المملكة العربية السعودية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المجلس العلمي
١٣

الأدب الأندلسي

بين التأثر والتأثير

للدكتور
محمد رجب البيومي

١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م

أشرفت على طباعته ونشره : إدارة الثقافة والنشر بالجامعة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم صاحب المعالي

الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي

مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

الحمد لله ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وبعد ،

فقد أتيح لي أن أقرأ الجزء الحادي والعشرين من مجلة مجمع اللغة العربية (١٣٨٦ هـ – ١٩٦٦ م) فرأيت كلمة ضافية عن (كتاب الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير) ألقاها الأستاذ الدكتور محمد مهدي علام مقرر لجنة الأدب بالمجمع ، في حفلة أقيمت لتكريم الدكتور محمد رجب البيومي مساء يوم الأربعاء ٢٦ من شعبان سنة ١٣٨٥ هـ بمناسبة فوزه بالجائزة الأولى للدراسات الأدبية عن كتابه الأدب الأندلسي ، وسرني أن أجد الدكتور محمد مهدي علام يقول في كلمته الجامعة بعد أن قدم المؤلف تقديماً حافلا بتاريخه وآثاره الأدبية في الشعر والنثر ما نصه ١ :

« ومما يذكر للباحث شجاعته في مناقشة آراء السابقين والمعاصرين ، وهي شجاعة محمودة كشفت عن سعة اطلاع وثقة بالنفس ، كما كشفت عن بعض الحقائق التي ندت عن سابقيه ، ولا شك أنه سيسلم لمن يقرأ بحثه أن يسلط عليه من الأضواء مثل ما سلط هو على كتابات من سبقه ، لقد

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ج ٢١ ص ٢٠٦ .

تبنى الباحث موضوعاً شاقاً تبناه وأحبه وعطف عليه، وعكف عليه ، ولكنه لم يتعصب له إلا قليلا ، لقد بحث عن المجد العربي في الأندلس ، وأشاد به وبأثره في المشرق العربي ، وفي المغرب الأوربي ، ولكنه حين بدا له أن السبق لم يكن للأندلس في بعض الفروع لم يتردد في إعلان ذلك، كما فعل في موضوع الموشحات ، وفي موضوع رثاء المدن والدول فقد خاض في هذين الميدانين معركتين أصاب فيهما نصراً ، وأصابته منهما بعض الجراح ، وقد كان في هـــذا ككل جندي باسل يتقدم إلى هدفه محتملا كل ما يقابله من صعاب .

لقد تحدث الباحث في أثر الأزجال والموشحات في شعراء التروبادور ، وعن دور الأندلس في نمو القصة الأوروبية ، وعن أثر الحب العذري في الأدب الغربي ، واختص بعض نوابغ الأندلسيين بدراسة مستفيضة ، كصاحب طوق الحمامة ، وصاحب حيّ بن يقظان وابن رشـــد وما أحدثته كتبه من يقظة فكرية في أوروبا ، كذلك ناقش في أسلوب علمي تأثير ابن شهيد في أبي العلاء وأثر ابن خلدون في الأسلوب الأدبي المعاصر) أ . هـ

وقد دفعني ما كتبه الدكتور علام إلى طلب الكتاب وقراءته ، لأن صاحبه من منسوبي جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وممن قاموا بالتدريس في كلية اللغـــة العربية بالرياض ، فدهشت حين أخبرني الدكتور البيومي أنه لا يزال مخطوطاً ، ورأيت أن أتصفحه في مخطوطته ، فراقني أن أجد إلماماً طيباً بالموضوع ، وأن أصيب بعض الجديد القيم مما أشار إليه الدكتور محمد عـــلام .

والحق أن روح الكتاب تجذب إليه قارئه ، لأنه يبرز مكانة الإسلام الحضارية ، وأثره في تقدم العمران شرقاً وغرباً ، ويصور ما أحدثه الفتح الإسلامي في الأندلس من حضارة زاهرة ، ومجد علمي تليد ، ولم يرسل الباحث قوله إرسالا دون تدليل ، فقدكانت مصادره الموثوق بها ذات إقناع حاسم . وبعضها مما كتبه قوم لا يدينون بالإسلام ، ولكنهم

يعترفون بالحقيقة العلمية دون تعصب بغيض، وأنت تقرأ ما كتبه المؤلف تحت عنوان (قضية التأثير من الوجهة الأسبانية، فتجد أقوال المؤيدين مسلسلة وفق أدوارها الزمنية)، وفيهم من أقنع وأمتع، وقد وقفت وقفات راضية عند ما نقله الدكتور البيومي عن الأديب الأشهر كلوت فارير الفرنسي، إذ يتحدث عن مآثر الإسلام في الحضارة الإنسانية، ويعلن أن اندحار الجيش العربي في معركة (بواتيه) المعروفة عند المسلمين بمعركة (بلاط الشهداء) كان كارثة على أوروبا، إذ أخر نمو الحضارة سبعة قرون، ولو انتصرت جيوش الإسلام في هذه المعركة لأنقذت أوربا من الظلام، يقول الكاتب فيما نقله الدكتور البيومي وجعله خاتمة لكتابه:

« حدثت فاجعة ربما كانت من أشأم الفجائع التي انقضت على الإنسانية في العصور الوسطى، وكان منها أن غمرت العالم الغربي مدة سبعة قرون أو ثمانية إن لم يكن أكثر طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد إلا على عهد النهضة، هذه الفاجعة هي التي أمقت حتى ذكرها، وأعني بها الانتصار البغيض الذي ظفر به على مقربة من (بواتيه) أولئك البرابرة المحاربون من الإفرنج بقيادة (شارل مارتل) على كتائب العرب والمسلمين الذين لم يحسن عبد الرحمن الغافقي جمعهم على ما ينبغي من الكثرة، فانهزموا راجعين أدراجهم، وفي ذلك اليوم المشئوم تراجعت المدنية ثمانية قرون إلى الوراء.

يكفي المرء أن يطوف في حدائق الأندلس أو بين الآثار العربية التي لا تزال تأخذ بالأبصار مما يبدو من عواصم السحر والخيال — أشبيلية وغرناطة وقرطبة وطليطلة — ليشاهد والألم آخذ منه ما عسى أن تكون بلادنا الفرنسية لو أنقذها الإسلام العمراني المتسامح، وخلصها من الأهاويل التي لا أسماء لها، وكان من ذلك أن نتج خراب غاليا القديمة فاستعبدها لصوص أورسترازيا، ثم اقتطع قرصان النورمانديين جزءاً منها، ثم تجزأت وتمزقت وغرقت في دماء ودموع . . . . . حدث ذلك حين كان

العالم الإسلامي من نهر الوادي الكبير في أوربا إلى نهر السند في قلب آسيا يزدهر كل الازدهار في ظل الإسلام » .

أما الأبحاث الخالصة للأدب العربي ففيها الجديد حقاً حين أثبت المؤلف بالشواهد أثر الأدب العربي في نمو القصة الأوربية ، كما أوضح تأثير العفّة العربية والمروءة الإسلامية فيما وجد من شعر عفيف يتجه إلى المثل الكريمة، وأنا لست معه في جعله ابن خلدون أندلسياً متابعة للأستاذ أحمد أمين فالرجل مغربي بنشأته ومرباه ، ولا يغني انتماؤه في أصوله البعيدة للأندلس شيئاً في هذا المجال ، وإذا كان الإسلام أمة واحدة فإننا نضيق كل الضيق بمحاولة استئثار إقليم ما من الأقاليم الإسلامية بنابغة لم يظهر في أفقه التماساً لتعلات بعيـــدة كما هو الشأن في ابن خلدون وابن سيناء والبيروني ممن دارت حولهم معارك لا تهدي إلى صواب !

ومجال المناقشات التي أدارها المؤلف أكثر من أن يحدّ ، وقد حمدت له شجاعته الأدبية مع أساتذته الكبار لأن الحق حق، كما وقفت عند قوله في المقدمة : « وقد يرى القاريء أني أكثرت من مناقشة أستاذي الكبير أحمد أمين في الأدب الأندلسي ، وعذري أن صلتي الشخصية به قد دفعتني من قديم إلى قراءة جميع مؤلفاته واستيعابها جهد الطاقة ، وقد كان رحمه الله يرتاح إلى معارضتي ، ويشجعني عليها مصيباً كنت أو مخطئاً » .

أقول وقفت عند هذا القول ، لأني أعرف من تاريخنا العلمي تشجيع الأساتذة لتلاميذهم ، وترحيبهم بمعارضاتهم العلمية القائمة على الدليل ، ودارسو المذاهب الفقهية يقفون على كثير مما خالف فيه اللاحق السابق ، فإذا تحرج المؤلف بعض الشيء من معارضة أستاذه ، فهو تحرج لم يمنعه من قول ما يعتقد وتلك سنة الباحثين .

ولعـــل من الخير أن أترك الكتاب لقارئه، مرحباً به في مطبوعات الجامعة ، وراجياً أن ينفع دارسي الأدب الأندلسي بمـــا قدم من الجديد .

والله ولي التوفيق . . . . .

د . عبد الله بن عبد المحسن التركي

بسم الله الرحمن الرحيم

حين قرأت إعلان المسابقة الأدبية ، وجدت في نفسي رغبة صادقة في الحديث عن الأدب الأندلسي ، فعندي عنه ما يمكن أن يقال فيه ، ولكن اقتصار الإعلان المجمعي على كلمتي الأدب الأندلسي وحدهما، قد تركني في حيرة إذ أن ثمانية قرون تحفل بمئات الشخصيات وشتى المذاهب ومختلف العصور لا يمكن أن يتسع للحديث عنها كتاب واحد يكتب في أشهر ! فلا بد أن يكون الحديث عن ناحية خاصة من نواحي هذا الأدب الحبيب !

ولكن أي ناحية أختار ؟ إن كتاباً يقدم في مسابقة مجمعية ، لا بدّ أن يحفل بالجديد ، فيضيف للحقائق المعلومة طريقاً غائباً، أو يوضح غامضاً خافياً من الرأي أو يفصل مجملاً موجزاً من الحكم ، وإلا كان تكراراً سقيماً يطالعه المثقف متحاملا على نفسه ، ومشوقاً أن يفرغ من سطوره ، وكأنها عبء ثقيل ، لذلك أخذت أفكر فيما أتحدث عنه ، حتى اهتديت إلى موضوع التأثر والتأثير فهو في رأيي يتسع للتفصيل والتوضيح.

لقد تعرض بعض الباحثين إلى هذا الموضوع ، فليس الحديث عنه جديداً كل الجدة ولكننا عهدنا من يكتبون عنه يوجزون القول بحيث يكتفون بباب واحد أو بابين ، فرأيت أن أقف وقفات هادئة لدى مناحيه المتشعبة لأرد عملياً على من يزعمون أن إيضاح التأثير الأندلسي في الأدب الأوربي شاق عسير لأن الآثار الأدبية في زعمهم يندمج لاحقها بسابقها بحيث يتعسر تمييز أصولها على الوجه الصحيح ، ولا كذلك الآثار الفنية والحضارية ! فهم يزعمون أننا لا نستطيع أن ننكر أثر الأندلس في الموسيقى والغناء والزخرفة المعمارية لوجود الآثار المواثل ناطقة شاهدة ولكننا نجد من ينكر التأثير الأدبي معارضاً ما قيل في إثباته باحتمالات وافتراضات تقوى آناً وتضعف آونة ، وقد كان ذلك ممكناً لو جملنا حديث التأثير في بضع

صفحات كما تعود أن يجعله الكاتبون ، أما وقد أفردنا كل باب ببراهينه وأدلته فإن الافتراضات المحتملة لا تنهض في دحض الواقع الراسخ إلا كما تقدر نسمة واهية على زعزعة طود مكين !

ولكن كيف نتابع خطوات هذا الموضوع الدقيق ؟ لدينا تأثر وتأثير ، فلنبحث عن مواضع التأثر في الأبواب الأولى، ومنها المطروق الواضح مما لا سبيل إلى خفائه كأستاذية المشرق وارتداد الثقافة الأندلسية إلى ينابيعه ، ومنها ما أتينا فيه بجديدرأيناه واعتقدناه كتأثيركتاب اليتيمة في أدب الأندلس وتحديد مدى الإصالة في شعر الطبيعة وفي رثاء المدن والممالك ! والخطب في ذلك كله أهون من سواه .

أما موضوع التأثير ، فقد تطلب من التبسيط والإيضاح ما ملأ أكثر صفحات هذا البحث إذا كان عليَّ أن أواجه حقائقه العلمية في فصول محددة ذات أهداف ، فتحدثت في فصل أول عن أثر الأزجال والموشحات في شعراء التروبادور ، وفي فصل ثان عن دور الأندلس في نمو القصة الأوروبية متأثرة بالتيار العربي ، وفي فصل ثالث عن نفحات الحب العذري في الأدب الغربي مستلهمة آثار ابن حزم في الطوق وفي فصل رابع عن سبق ابن طفيل إلى الحديث عن التربية الذاتية والتاريخ الكوني للحياة ، والتأمل الفلسفي في قصة حي بن يقظان موضحاً مبلغ تأثيره فيمن تلاه ، وفي فصل خامس عن ملاحم الأندلس شعبية وعربية وكيف أوحت باتجاه أدبي جديد .

أما التأثير في المحيط الشرقي فقد بسطت الحديث عنه في ثلاثة فصول تتحدث عن تأثير ابن شهيد في أبي العلاء وعن أثر الأندلس في الثقافة العلمية بمصر ، وعن صدى ابن خلدون في أسلوبنا الأدبي المعاصر ، وأرجو أن أكون – بعد هذه المحاولات المتواضعة – قد أضفت الجديد بما عالجته من البسط والتوضيح .

وقد تحاشيت جهدي أن أقع في أخطاء رسائلنا الجامعية كما أراها من وجهتي الخاصة فهي من ناحية أولى تعني غالباً بالكم عناية مستغربة ، إذ كثيراً ما تتجاوز الرسالة أربعمائة صحيفة في غير طائل ، فلو أن أحدهم كتب في موضوع يتصل بالأندلس مثلا لملأ أكثر من مائتي صحيفة بتاريخ الأندلس ومناخها وملوكها وتابع الولاة منذ موسى بن نصير إلى بني الأحمر مسهباً في تراجم الشعراء والأدباء دون ضرورة ملحفة ، وأنا أربأ بأعلام المجمع أن أطالعهم بالذائع الشهير ، أما المباهاة بالمراجع المحتشدة فحدث عنها ، إذ تجد كل صحيفة قد شطرت في منتصفها لتشير إلى المصادر الذائعة ولو كانت النصوص ذات اشتهار عام كخطبة طارق ! ! على أنني لم أحتج إلى ذلك لسبب واحد ، هو أن المراجع القديمة من ناحية التأثر والتأثير تكاد تكون متشابهة فيما تقدم من أخبار ونصوص ، أما المراجع الحديثة لأساتذتنا المعاصرين فقـــد حفلت بالجديد حقاً ، ولكنني تعمدت أن أشـــير إليها في متون الأبواب لا في هوامشها ليتسع المجال للتحليل ، وإذا كنت لا أقرأ الأسبانية وهي هامة في مثل هذا الموضوع فقد استعنت بمترجمات الدكاترة الأساتذة حسين مؤنس وعبد العزيز الأهواني ومحمد غنيمي هلال عن الأسبانية وأشرت إلى كل أثر في مناسبته ! مع الشكر والتقدير !

هذا وقد يرى القاريء أني أكثرت من مناقشة آراء أستاذي الكبير الدكتور أحمد أمين في الأدب الأندلسي ، وعذري أن صلتي الشخصية به قد دفعتني من قديم إلى قراءة جميع مؤلفاته واستيعابها جهد الطاقة ، وقد كان رحمه الله يرتاح إلى معارضتي ويشجعني عليها مصيباً كنت أو مخطئاً وأظنه في عالم الغيب لا يزال مبقياً على تشجيعه ! فليفسح لي زملاؤه المجمعيون من سماحتهم ما كان يفسح لي من تواضعه !

د . محمد رجب البيومي

هل من جديد في الأدب الأندلسي ؟

بدأت الدراسات الأدبية تتزايد في حقل الأدب الأندلسي ، وهي تلقي كثيراً من الضوء على حقائقه الغامضة ، فكل باحث جاد يخطو خطوة لاحقة في الطريق ، ويقدم من الآراء ما يكون موضع التحليل والتمحيص ، وذلك كسب كبير !

وقد رأينا من الكتاب من ينادون بالتريث في دراسة الأدب الأندلسي وحجتهم أن أكثر كنوزه لا تزال مطمورة في خفايا النسيان ، وما تقدمه المطبعة بين الفينة والفينة من نفائس المخطوطات لا يســاوي شيئاً إذا قيس بما تختزنه المكتبات العالمية في الشرق والغرب ، وقد تبدو لهذا الرأي وجاهة سريعة عند من لا يتعمقون الأشياء ، أما الذين أوتوا نصيباً من الدقة الحصيفة فيعرفون أن الكلمة الأخيرة في أي أدب من الآداب لم تقل بعد ، وأن كثيراً من الحقائق المتأصلة على مرّ الأحقاب تتعرض لانهيار مفاجيء حين يعمد لها من يتسلح بالمثابرة والنفاذ فيرى بها غير ما يرى السابقون من ذوي التفكير ! وإذا كان ذلك شيئاً طبيعياً في دنيا الأدب والعــلم ، فلماذا نجفل عن دراسة الأدب الأندلسي ؟ وإلى أي مدى تنتظر ؟ وما الذي يمنع أن نقول كلمتنا الآن ، فإذا جدّ جديد تتمخض عنه المخطوطات المطمورة ، فإنه إذ ذاك لا يصطدم بمنطق الأشياء بل يكون اطراداً للسير على منهج معلوم ، ولعمري لو أفلح هؤلاء في صد الباحثين عن قضايا الأدب الأندلسي انتظاراً لما سيجيء لتطاول الزمن دون أن نظفر بما ينفع الغليل في منطق أولئك ، وهكذا تضيع الحقائق بين المطال والتسويف .

ومنذ أصدر الأستاذ الدكتور أحمد ضيف كتابه عن بلاغة العرب في الأندلس ، والآراء تتفق وتفترق حول هذا الأدب الحبيب ، فلكل باحث رأيه الخاص في إصالة الأدب الأندلسي أو تقليده ، ونحن نرحب

بهذا الاختلاف ، ونراه مما يزيد جلاء الحقائق الأدبية وتوضيحها ، فهو يفسح مجال الموازنة والترجيح ويقدم من الآراء المتقابلة ما يساعد على الوصول إلى النتائج المرضية ، وإذا كان من المفيد أن نختلف ، فإن من الضار هنا أن نتفق على رأي واحد لا نتعداه ، إذ أن أحكام الآداب جميعها ترجع في بعض تقديراتها إلى الذوق الفني وليست كقضايا العلم التجريبي الذي ينفرد فيها العقل المجرد بميزانه الدقيق ، وإذا كان للذوق الشخصي نصيبه في الحكم الأدبي فلا بد أن تختلف الأذواق ومن ورائها اختلاف القضايا والأحكام ! !

ونكلف أنفسنا كثيراً من الشطط إذ نستعرض كل ما قيل بهذا الصدد من الآراء المعاصرة منذ أصدر الأستاذ الرائد أحمد ضيف كتابه عن الأدب الأندلسي ! ولكننا نختار بعض النابهين ممن يقفون وقفات متعارضة في هذا المجال ، لنسمع ما يقولون كما دونوه ، فإذا كان لنا من تعليق على ما قيل ، فبعد أن يقف القاريء على وجهات النظر واضحة مستوفاة ، وسنقف موقف المفسر فقط ! لتتضح الأمور على وجهها الصحيح . .

لنا أن نختار الدكتور أحمد أمين على رأس القائلين بتقليد الأدب الأندلسي وأتباعه ، فقد أكثر قديماً من المناداه بهذا الرأي في مقالاته الصحفية وبحوثه العلمية حتى إذا تعرض للفكر الأندلسي أخيراً بالجزء الثالث من ظهر الإسلام وجد المناسبة الواضحة لترديد هذا الرأي الذائع عنه في أكثر من مناسبة ! فانبرى يبديء ويعيد في تسجيل هذه المحاكاة الضيقة ! فهو مثلا يقول في ص ١٠٤ (١) .

« ولذلك لو أغمضنا أعيننا ، وَجَهِلْنا قائل القصيدة أهو شرقي أم أندلسي لم نكد نحكم حكماً صحيحاً جازماً على الشاعر ، أغربي هو أم شرقي. ولذلك كثيراً ما تنسب بعض الأبيات إلى أندلسي ، وينسبها بعضهم بعينها إلى

(١) ظهر الإسلام ج ٣ ص ١٠٤ ط ٣

مشرقي لعدم التمييز الواضح حتى عند الخبراء ، وربما كان مصداق ذلك ما حكى أن الشاعر الأندلسي الملقب بالغزال وجد في بغداد جماعة من المثقفين ، فأنشدهم شعراً لنفسه وادعى أنه لأبي نواس لعظم قدره عندهم ، فصدقوه ثم قال لهم : أنها لي ! ولو كانت شخصية الأندلسي واضحة في شعر أهلها لصعب نسبة أبيات أندلسية إلى شاعر شرقي ، غاية ما عندهم من فروق أن الطبيعة الأندلسية الجميلة مكنتهم أن يقولوا كثيراً في شعر الطبيعة ، وهذا لم يكن معدوماً في المشرق ، فإن الصنوبري مثلا وهو الشاعر الحلبي خلف لنا ديواناً كله تقريباً في ذلك » .

ويردد الدكتور مثل هذا القول في ص ١٣٠ وفي ص ٢٠٢ حتى إذا بلغ نهاية الشوط ختم بحثه عن الأدب الأندلسي بقوله ص ٢٣٠ .

« ولئن دمغ الأدب الجاهلي الأدبَ المشرقي ، فالأدب المشرقي دمغ الأدب الأندلسي وكان الظن أن يؤثر الأدب الأسباني والفرنسي أثراً غير تأثير الأدب الفارسي واليوناني في المشرق ولكن حدث أن تأثر الأندلسيون بالمشرق أكثر من تأثرهم بالأسبانيين لوحدة اللغة ووحدة الدين ، والخلاصة أن الأندلسيين في أدبهم وسعوا الإنتاج أكثر مما نوعوه فبدل أن ينتجوا باء بجانب الألف وهو الأدب المشرقي أنتجوا ألفاً أخرى تتشابه مع الأولى في الموضوع والوزن والقافية والسجع ونحو ذلك ، وكأنهم كانوا يحسون مركب النقص بالنسبة لأدباء الشرق فكملوه بمجاراتهم بدعوى التفوق عليهم ، ولكنهم لم يتفوقوا ، والظاهر أن تيار المشرق كان قوياً حتى استحوذ على أدب المغرب ولم يسمح له بالخروج عنه ، نذكر هذا بعد أن قرأنا كثيراً من آثار الأندلسيين وقد دخلنا في بحث الموضوع ونحن نعتقد أنا قادمون على شيء جديد مبتكر فإذا نحن أمام ثروة كبيرة مقلدة » .

هذا بعض ما ذكره الدكتور أحمد أمين ، وظاهر من حديثه أنه كان يأمل أن يؤثر الأدب الفرنسي ، والأدب الأسباني في إنتاج الأندلس على نحو ما أثر الأدب الفارسي وتراث اليونان في الأدب العباسي ! وما نظن

ذلك ممكناً على وجه من الوجوه ، لأن الأستاذ يعلم علم اليقين أن الثقافة الفارسية فرضت نفسها على الدولة العباسية لأن الوزراء العباسيين كانوا في الأكثر الغالب من الفرس وكان الوزير يقوم مقام الخليفة في كل الشئون تقريباً ، فجميع أمور الحرب والمال والتوقيع بيده ، وكان من شروطه الرئيسية أن يكون مفكراً كاتباً عالماً ، ولكل وزير كاتب مساعد يماثله ثقافة وعلماً وفكراً بل كان لولاة الأقاليم كتاب من هذا الطراز المثقف الممتاز فحماد عجرد وابن المقفع وعمرو بن مسعدة وعبد الله بن سوار وأضرابهم أدباء يحذون حذو الوزراء في الكتابة والمظهر فساعدوا على نشر الثقافة الفارسية وفيهم من ترجم بنفسه طائفة من آثارها الممتازة! بل أنهم لم يقتصروا على الثقافة الفارسية فتعدوها إلى الثقافة الهندية فاستفاد الأدب العربي من أدب الهند بلاغة وفناً ودخل من الألفاظ والقصص والحكم الهندية ما أفاض في توضيحه مؤلف الجزء الأول من ضحى الإسلام ، هذا بالإضافة إلى الثقافة اليونانية ومدارسها المختلفة في حران وجنديسابور والاسكندرية مما لقح الفكر العباسي بلقاح دسم مكين! ! أما ثقافة اللاتينية بالأندلس على عهد الفتح الإسلامي فلم تكن شيئاً يجذب الانتباه حتى تستطيع التأثير في الأدب العربي هناك ، كما لم تهيء لها الظروف من يستطيعون إبرازها من الوزراء والوجهاء على نحو ما قام به أنصار الثقافة الفارسية في بغداد . . . بل أننا نجزم أنها كانت من الضحالة بحيث لم يجد فيها أعداء الإسلام أنفسهم ما يحاولون به أن يقاوموا الفكر الإسلامي في مده المتلاطم الجياش ، واستمع إلى هذه الشكوى المريرة التي أطلقها القسيس الفرو القرطبي حين قال متحسراً (١) :

« إن إخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم ، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلسفة المسلمين لا ليردوا عليها وينقضوها ، وإنما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوباً عربياً

(١) تاريخ الفكر الأندلسي ترجمة حسين مؤنس ص ٤٨٥

صحيحاً ، وأين تجد الآن واحداً من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة ، ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين ، وآثار الأنبياء والرسل ! ياللحسرة ! ! أن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها ويؤمنون بها ويقبلون عليها في نهم ، وهم ينفقون أموالاً طائلة في جمع كتبها ، ويفخرون في كل مكان بأن هذه الآداب جديرة بالاعجاب فإذا حدثتهم عن كتب النصرانية أجابوك في ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم ! ياللألم لقد أنسي النصارى حتى لغتهم فلا تكاد تجد في الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب إلى صاحبه كتاباً سليماً من الخطأ ، فأما عن الكتابة في لغة العرب فإنك واجد منهم عدداً عظيماً يجيدونها في أسلوب منمق ، بل هم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فناً وجمالا ! .

هذه الشكوى الصارخة من القسيس اللهيف تنبيء أن اللاتينية لم تكن تحوي شيئاً يجذب انتباه المسيحيين من أبناء البلاد ! فكيف يكون بها إذ ذاك ما يجذب انتباه العرب الفاتحين ! وقد أفلح هذا القسيس المتعصب في حمل كثير من أتباعه على الاستشهاد الانتحاري عن طريق السب في نبي الإسلام ! ولكنه لم يفلح في صرف أحد منهم عن لغة الإسلام وتراثها الجميل ! ألا يكون ذلك دليلاً حياً على خواء اللاتينية الاسبانية ! وأنها لا تستطيع أن تقدم للعرب شيئاً ذا بال كما كان يتوقع الدكتور أحمد أمين ! !

على أننا نسأل فنقول ماذا كان يريد نعاة التقليد أن يقوم به أدباء الأندلس من التجديد ؟ أكانوا يريدون إنتاجاً طافراً لا يتفق مع إنتاج المشرق في شيء ! إن طبائع الأشياء تنكر ذلك فكل تجديد يحمل في طياته خطوط القديم ويحتذيه ، وما هو غير ثمرة سقطت من دوحة عريقة تضرب أصولها في أعماق القديم ! والابتكار الأدبي لن يكون انفصالا تاماً عن الواقع الملموس ، وإلا استنكره المتأدبون وثارت عليه الثوائر فلا يجد متنفسه

الطبيعي ويلحقه الاختناق السريع ! ! أما إذا أرادوا التجديد المتئد فقد ظهر على نحو ما فيما سنفيض فيه ببعض القول بهذه الصفحات عن قريب ! ! وإن كنا نرى أن عوامل قوية قد حالت دون التوسع الابتكاري وهي في مجموعها ترجع إلى أصول نفسية تحدد للأدب مجراه الذي اختطه دون أن يكون له قدرة على الانفلات البعيد .

فالعربي حين قدم إلى الأندلس قدم بذكريات أدبية ولغة شاعرية وميول عاطفية اختلطت بدمائه وجرت في عروقه ، فهي تتخايل لعينيه في روحاته وغدواته ، وتسري إليه طيوفها الحالمة في هجعاته ، ولن يستطيع فكاكاً من أسرها الخالب حتى ولو حاوله بشتى المجاهدات وهو ما يعبر عنه في علم النفس بالذاكرة العاطفية التي تجر للمرء خيوط ماضية ، فيتمثلها أنّى ذهب وجاء ! فالعربي الوافد مع الفتح الأول بدوي الديباجة ، تقليدي المذهب ، لأنه وإن كان في عالم جديد لا يزال يحن إلى الشيح والقيصوم ، ويتذكر مرابع أحبابه في صحراء المشرق وحواضره ! فيهتف بلسانه بما يجيش به اضطراراً دون أن ينزع إلى ابتكار مقصود ! هذا هو العربي المسلم الوافد ، ولن يبعد عنه كثيراً أحفاده وأبناؤه ممن نشأوا بالأندلس وتفتحت عيونهم على رياضها الساحرة لأنهم من ناحية أولى قد ورثوا ذكريات آبائهم ، وانحدروا من أصلاب تذكرهم بعالم آخر يزدهر فيه الافصاح البدوي ، وتنفحه أنسام نجد والعقيق وسلع ، وهم من ناحية ثانية يقرؤن أدب المشرق فيرون به صدى أشواقهم ، وينزعون إليه دون أن تقدر لهم رؤيته ، وأقل شيء أن يحتذوه في أشعارهم فيكون مثالهم الأرفع ، وأنموذجهم الراقي ، ومن ذا الذي لا يقرأ تراث أمية وبني العباس من أدباء الأندلس المسلمين دون أن تجيش به نوازع تدفعه حيناً إلى الرحلة للشرق فيضرب في أبعاد الأرض ليرى بعينيه ملاعب أحلامه ومسارح عواطفه ، وتجذبه أحياناً إلى الاكتفاء بحفظ روائع الشرق وتقليدها على أتم نطاق ! ! لقد يستغرب القاريء أن أذكر له أن أدباء الأندلس ممّن نشئوا بها يحنون إلى الصحراء العربيـة دون أن يروها ! والحقيقة أنني في حاجة

إلى أن أقوي رأيي في ذلك بما بسطه الأستاذ الدكتور إبراهيم سلامة في كتابه تيارات أدبية ص ٢٥٤(١) ، إذ حلّل هذا الموقف تحليلا واضحاً حين قال : « وإنا لنرى أن الاستنتاج الذي استخلصه بعض أدبائنا المعاصرين من دراساتهم للطبيعة والشعر ليس بذي خطر ، فقد فصلوا بين طبيعتين للعربي في الأندلس في أدبين عربيين لكل منهما طبيعتــه، دخل أحدهما الأندلس رجلاً مكون الفكرة مكون اللغــة ، قد عرف هواه في المشرق وأغلق قلبه عليه، فما عاد يفتح لهوى جديد ، ونشأ الآخر في الأندلس فكان مطلع حياته ومناط تمائمه وملعب هواه ، أما الأول فبعد أن دخل الأندلس كان يتلفت وراءه شأن كل عربي مهاجر، يطوف ما يطوف ويشم ما يشم ويعرق ما يعرق وهو عالق بنجد يتنغم به في حطه وترحاله :

فإن كنت قد فارقت نجداً وأهله فمــا عهد نجــد عندنا بذمــيم

لذلك كان العربي الأول في زعمهم بدوي الديباجة تقليدي المذهب يصف الناقة والجمل ويستام لهــا الشيح والقيصوم في بلاد لا تنبت إلا النيلوفر ، ويرى الرياض أمامه فلا تغربه ولا يتسلى بها عن المراعي التي تركها خلفه، وأما الثاني فقد ولد في قرطبة ومات في أشبيلية كابن زيدون مثلا ، فمثله يصف ما تحت قدميه ولا يبالي بالأدب التقليدي بل يبــدع ، ما شاء له الإبداع ! أو ما شاءت له طبيعة الأندلس ! إن استنتاجاً كهذا ينقصه الاستيعاب والتعميم فكثير من الشعراء الأوائل في الهجرة أغرموا بالأندلس ، وكثير من الشعراء النابتين في الأندلس قد رجعوا بهواهم إلى بلاد آبائهم وأجدادهم ، فابن زيدون قبل أن يكون أندلسياً مخزومي الأصل والنجار ، وقد قلنا أن اللغة ليست مادة ولكنها مادة مصورة فما دامت لغتهم عربية فصورها وأساليبها متحملة بصور البادية ، والعربي فوق ذلك مرتبط بوطنه عزيز عليه أن ينساه مهما بعدت به النية وشط المزار ! ! »

---

(١) تيارات أدبية للدكتور إبراهيم سلامة ص ٢٥٤ ط أولى .

هذا كلام الدكتور إبراهيم سلامة وهو يحل لنا مشكلات كثيرة في دعوى التقليد والتجديد ، وقوله البديع : « أن اللغة مادة مصورة فما دامت لغتهم عربية فصورها وأساليبها متحملة بصور البادية » . هذا القول ينقذ كثيراً من الشعراء مما حكم به عليهم بعض الناقدين من عقم وأمحال ! ولنا أن نضرب المثل على صحته بشاعر معاصر هو الأستاذ محمد عبد المطلب ! فقد عرف بين الشعراء بالشاعر البدوي ! وكان لشعره — ولا يزال — تأثيره الحيّ على قارئه لأنه — باعتباره عربياً من قبيلة جهينة التي تنزل بمحافظة سوهاج في الصعيد الأعلى من بلاد النيل — قد كان يحس إحساساً صادقاً بمرابع أجداده في نجد ، ومنازل قومه الأبعدين في الجزيرة العربية إذ كانت مهبط الإسلام ومشرق النور ثم مبعث الحضارة العربية إلى العالم في شتى القارات ! هذا الاحساس المعتز ، جعله يستروح البهجة والسعادة حين يتغنى بالصحراء ! وقد كان تأثره صادقاً لأنه في بعض مواقف انشاده كان ينشج بالبكاء ! وأكثر الأدباء يحكمون عليه بالتقليد ، ويقرنونه في ذلك ببعض من يسلكون نهجه عن طريق الذاكرة العلمية فقط ! ويابعد ما بين الشاعرين فأحدهما نظام لاقط حافظ ، وعبد المطلب يصدر عن إحساس ووجدان .

والذين يشكون لحظة في أن اللغــة ليست مادة فقط ولكنها مادة مصورة تأتي أخيلتها ومعانيها متصلة كثيراً بحروفها وكلماتها ، نقدم بين يديهم — تطبيقاً على ذلك — شاعراً ينظم بلغتين في موضوع واحد ، فمع اتحاد العاطفة وتوافق الانفعال ، واحتشاد الخواطر لديه ، حين ينظم بإحدى اللغتين ، فإننا نرى جو الأدب الذي يقيم في رحابه بناء قصيدته مسيطراً إلى حد ما على معانيه ، فتأتي قصيدته قريبــة من روح الأدب الذي تصدر عنه خيالا وفكرة وتعبيراً ، ولديك شاعر عظيم كسعدي الشيرازي تفطر قلبه جذاذاً لمحنة بغــداد على يد التتار ، وهاله أن تصبح آثار الإسلام ومصونات الحضارة نهباً هباءً بين أيدي الهمج والأوشاب ، فنظم في هذه الكائنة المشئومة كما يقول عنها المؤرخون قصيدتين إحداهما عربية ، والأخرى

فارسية ، يقرؤهما القاريء فيرى روح الأدب العربي بمادته وأخيلته في القصيدة العربية كما يلمس نزوحاً شاسعاً عن جو القصيدة العربية في أُختها الفارسية ، فإذا كان يقول في الأولى :

فأين بنو العباس مفتخــر الورى ... ذوو الخلق المرضي والغرر الزهر
غدا ســمراً بين الأنام حديثهــم ... وذا سمر يدمي المســامع كالسمر
هنيئاً لهم كأس المنيــة مترعــاً ... وما فيه عند الله من أعظم الأجر
فلا تحسبن الله مخلف وعــــده ... فإن لهــم دار الكرامة والبشــر
ألام تصــاريف الزمــان وجوره ... يكلفنــا ما لا نطيق من الأمــر

فإنه يقول في الثانية ما ترجمته — عن بني العبــاس أنفسهم — :

« أريقت دماء أولاد العباس كذلك على هذه التربة حيث كان السلاطين يضعون الجبين ، أواه أن تقع ذبابة على دم هؤلاء الأطهار ، فليصر إذن في فمها العســل علقماً حتى القيامة على أنه لا يليق النواح على دم الشهداء ذلك أن أقل سعادة لهم هو الخلد في عليين ، على الأرض كان تراب أقدامهم كحل العيون وفي يوم المحشر سيكون دمهم لون الورد صبغة خدود الحور العين » .

والقاريء يدرك بيسر روح الأدب العربي في الأولى وجو الأدب الفارسي في الثانية ! وذلك ما يؤكد سيطرة الثروة الأدبية التي يحفظها الشاعر وينسج على منوالها ، وليس معنى هذا أننا ننكر قدرة الشاعر المحلق على الخلق والابتكار ولكننا نقول إنه يصل إلى ابتكاره في طريق التراث المحفوظ ويضع ماءه في إنائه فلا محيص له عن التزيي بطابعه العريق .

أريد أن نحكم بحذر على الشعراء بعامة والأندلسيين بخاصة حين نرميهم بالتقليد لوجود بعض التشابه بين أحاسيسهم وأحاسيس المتقدمين فمما يزيد هذا التشابه اقتراباً اتحاد اللغــة التي يعبر بها المتقدم واللاحق معاً ، فيظن

القاريء أن القريب يحذو حذو البعيد ! وإذا كان ابن زيدون — في رأيي الخاص — أرق شعراء الأندلس وأصدقهم إذا قيس بهم جميعاً ، فمع ذلك نظر إليه بعض النقاد نظرة ساذجة حين وصمه بالتقليد ، مع أن حياته الزاخرة بالحب والولع والسجن كانت مدداً لانبعاث آهاته وميداناً للإبداع الشعري في قصائده ! فهو في أكثر ما نظمه شاعر مبدع يصدر عن إحساس مشبوب ، ولكن الأستاذ الدكتور شوقي ضيف يغفل ما قررناه هنا عن الذاكرة العاطفية ، والنزوع الوجداني فيقول في كتابه الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٢٤٢ ط رابعة :

« والحق أن الإنسان لا يتابع ابن زيدون في شعره حتى يحس بأن هذا الشعر يكاد يسقط من ديوانه فيرتد إلى أمكنته في شعر العباسيين ، ولعل هذا ما جعل صاحب الذخيرة يقول : » وأبو الوليد بن زيدون على كثير إحسانه كثير الاهتدام في النثر والنظام » فهو حقاً كثير الاهتدام لأشعار العباسيين يغير عليها ، فيسلبها من دواوينها ، ويسلكها في شعره على هذا النحو الذي رأيناه ، وما أشك في أن صوت ابن زيدون اتضح لنا الآن ، فهو بالرغم مما يبدو عليه من صفاء وعذوبة صوت مصنوع إذ هو صدى لصوت العباسيين لا يطرد على نسق واحد ، لأن الشاعر لا يختار له نسقاً معيناً يعيش فيه ، بل يعيش في كل نسق يقرؤه فتارة يعيش في جو البحتري وأخرى في جو أبي تمام أو المتنبي أو أبي العلاء من غير تفريق بين هؤلاء الشعراء ومعرفة أن كلا منهم يمثل مذهباً خاصاً له وهذا هو معنى ما نقوله من أن الشاعر الأندلسي ما يزال في شعره يخلط بين جميع المناهج والمذاهب العباسية » .

وقد توسع الدكتور شوقي ضيف في تطبيق رأيه فرأى في (١) ص ٤٣٥ أن قصيدة ابن زيدون الرائعة :

أضحى التنائي بديلا من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ط ٢ ص ٤٣٥ .

محاكاة تقليدية لقصيدة البحتري :

يكاد عاذلنـــا في الحب يغرينـــا فما لجاجك في عـــذل المحبينـــا

وهو رأي يتجاهل ظروف القصيدة وتعبيرها الحار عن مأساة الشاعر حين أخفق في غرامه بولادة ، وهي من الذيوع بمنزلة لا تخفى عن أقل تلاميذ الدكتور شوقي ! ولا أدري كيف نحكم على شاعر باحتذاء شاعر آخر لأنهما اتحدا في الوزن والقافية وبعض المعاني الشائعة ! لو جاز لنا أن نطمئن إلى هذا القياس الطريف ما عددنا قصيدة واحدة مبتكرة في الشعر العربي منذ عصر بني العباس ! والسبب واضح إذ أن من الميسور أن تجد لكل قصيدة لاحقة سلفاً يتحد معها في الوزن والقافية ، لقد كان الناس منذ العصر الجاهلي يرددون قول عنترة : هل غادر الشعراء من متردم ! ! وما زال الشعر يسح ويهضب منذ ذلك الأمد حتى جاشت غواريه واصطخبت أواذيه ! وأصبحنا لو نأخذ بمنطق الدكتور نحرم على كل شاعر أن يقول قصيدة ما ، فلعلها تتفق مع أمّ لها سابقة ، ومن الإنصاف للدكتور شوقي أن نقول أنه نظر إلى ما في نونية ابن زيدون من بعض المعاني المطروقة مما لا حيلة له فيه إذا صادف تعبيراً صادقاً عن خوالجه ، ولكن ذلك لايكفي لتجريده من الأصالة وإحالته على شاعر متقدم وإن يكن أبا عبيدة الوليد ، ولقد كان الأستاذ الكبير أحمد ضيف أصدق حكماً وأكثر نفاذاً حين حكم على النونية من خلال تجربتها الصادقة ، ورأى في معانيها الشائعة وفي غيرها مما شاع في غزل ابن زيدون ما يشير إلى صدقه لا إلى تلفيقه فهو يقول في كتابه عن بلاغة العرب في الأندلس :

« إذا كان لابن زيدون ميزة في شعره الغزلي فليس في ابتكار المعاني التي لم يسبق إليها ، وإنمـــا هي في طريقة تصويرها بعبارات تملك النفوس وتستولى على القلوب وكأن الإنسان لم يقرأ مثلها ولم يسمع بما يشبهها لجودة الافتتـــان في التعبير والأسلوب ولقد يسمع الإنسان أنينه في شعره ، ويرى

أنّته الحزينة من خلال كلامه ، وكأنه يرى تلك الحيرة وذلك القلق النفسي اللذين يملآن نفوس العشــاق ، ويمنعان عنهم راحة الحيــاة ولذاتها » .

وقد نكون مسرفين بعض الشيء في الاستشهاد بآراء الباحثين ، وعذرنا الواضح أن قضية التقليد غامضة مبهمة ! لأن التقليد يختلط بالتجديد اختلاطاً لا يستبنه غير المتبصرين ! وهؤلاء لا يلمحون الجديد إلا بين خيوط متشابكة تحتشد وتزدحم حتى تحتاج إلى مجهر دقيق ! ونحن في هذا النطاق نسترشد بأدب أمريكا المعاصر ، فقبل القرن العشرين لم يكن من المستطاع أن تميزه تمييزاً واضحاً من الأدب السكسوني ، إذ أن اتحــاد اللغــة بين بريطانيــا وأمريكا جعل الفوارق بين الأدبين متضائلة إن لم تكن متوارية ! بل إننا الآن لا نفرق بين أدب أمريكي أو أدب انجليزي إلا بسمات لا ترجع إلى الأسلوب أكثر مما ترجع إلى الغرض والموضوع ، فليس الأدب الأندلسي بدعاً في اتفاقه ! ولكن الاتفاق شيء والمحاكاة التقليدية شيء آخر دون نزاع ! !

ولا بدّ لنا في هذا النطاق من كلمة عن أدبنا العربي المهاجر بالأمريكتين فإن به اختلافاً واضحاً عن الأدب العربي بالدول العربية ! وهذا ما كان يرجوه الدكتور أحمد أمين والدكتور شوقي ضيف وأضرابهما ممن وصموا الأدب الأندلسي بالتقليد ! والقياس مع الفارق كما يقولون ، لأن أدباء العرب قد هاجروا إلى أمة حيّة ذات ثقافة وبيان لها في الأدب قواعد وشروح ، فاتصلوا بالتجديد الغربي اتصالا مباشراً جعلهم يتأثرون به ويبدعون قصائدهم المهجرية على نحو جديد ! ! وإذا كان هناك فروق واضحة بين حركة التجديد في الأدب العربي بالمشرق وموجة التجديد في الشعر المهجــري بأمريكا فإن هناك اتفاقاً بين الأصول الحية للتجديد الأدبي لدى الفريقين ، فكلاهما يهتم بالتجربة الذاتية ووحدة القصيدة ، والبعد بها عن التقديرية الجامدة إلى التأثيرية الموحية مما نضحت به الثقافة الغربية على الحركتين التجديديتين في الشرق والمهجر مع أن زعمــاء التجديد

فيهما لم يتصلوا اتصالا مباشراً يوجب توحيد الرأي ، وتقرير الاتجاه ! هذا التأثير الواضح في الأدب المهجري لم نجد مثيله في أدب الأندلس ! لأن أسبانيا اللاتينية لم تكن ذات أدب يسيطر ويؤثر ! فأين يجد الأدب العربي رافده الدافق ! وما حوله سراب لا يسمح بارتواء ! إنه مضطر إلى الاستعانة بأدب المشرق استعانة لا تمحق كيانه الأدبي كما يتصور بعض الغلاة ولكنها تدفعه إلى المسير ! !

لقد طال استماعنا إلى من رموا أدب الأندلس بالتقليد والترديد ، وفي الشقة المقابلة أناس يصفقون له مهللين ، ويلمحون في روائعه بوارق الجدة والابتكار فيقفون عندها مطيلين والأستاذ الكبير على الجارم في طليعة هؤلاء فقد كتب عن أعلام الأدب الأندلسي أمثال ابن زيدون وابن عياد وابن عمار سيراً تحليلية تنبض بالحركة وتتدفق بالحياة ثم ترجم قصة العرب في إسبانيا عن استانلي لين بول سعيداً أن رأى أمجاد آبائه تسطر بقلم أوربي منصف فنقلها إلى ذويه بيراعه البليغ ! ثم تسمّع إلى الهجوم على أدب الأندلس يأخذ أذنيه من منابر عالية تحفها الثقة التامة فلم يصبر أن صاح في وجوه هؤلاء الناقدين .. ومضى على النقيض من الدكتور أحمد أمين يقول في مقاله عن الشعر الأندلسي بمجلة الكتاب ديسمبر (١) سنة ١٩٤٧

« أنا واثق من أن هناك فروقاً بين الشعرين : الأندلسي والمشرقي ، وأنا نحس هذه الفروق حقاً ، وأنا مدرك من غير حاجة إلى تعليل أو فلسفة أني بعد قراءاتي الطويلة للشعرين الأندلسي والمشرقي أستطيع أن ألمح الشعر الأندلسي وأن أتبين خصائصه . غامضة من وراء الضباب . وأعتقد أن الأديب الذي لا يستطيع أن يميز على وجه من الوجوه بعد طول المعاناة والمزاولة خصائص الشعر وسماته في عصوره المختلفة أديب خائب ضعيف الملكة له دماغ لا تثبت عليه الصور ، إن الشعر كالماء يأخذ لون إنائه ، وهو مثل كل مخلوق حي نابض يتأثر بالبيئة التي هو فيها ، وإذا كان هناك فرق

---

(١) مجلة الكتاب : دار المعارف : ديسمبر سنة ١٩٤٧ .

بين شاعر وشاعر ، فأولى أن يكون هذا الفرق أبين وأظهر بين شعر الموطن والموطن ، إن الشعر الجاهلي غير الشعر الإسلامي وهذا لا يماثل الشعر العباسي في خصائصه ، وشعر مصر غير شعر الشام والشعر المصري في عهد الفاطميين غيره أيام الأيوبيين والمماليك » .

وهذا دفاع مخلص ولكنه إلى الخطابة أقرب منه إلى البحث المنهجي ، ولن ننتظر من مقال في مجلة سعة في التحليل واستطراداً في الاستشهاد ، ونفاذاً إلى اللباب ، أما الذي تكفل بذلك أو حاول أن يقوم به جهد المستطاع فهو الأستاذ الدكتور أحمد هيكل في كتابه عن الأدب الأندلسي ، والدكتور هيكل يحمل الدكتوراه من أسبانيا في هذا الأدب . ويقوم بتدريسه في كلية دار العلوم أعواماً متوالية كان من بعض آثارها كتابه هذا عن « الأدب الأندلسي من الفتح الإسلامي إلى سقوط الخلافه ! » وقد أراد أن يحدد مواضع التجديد في كل حقبة ! وأن يضع كبار الشعراء الأندلسيين في أماكنهم التي يراها من الابتكار والتقليد ! فاجتهد كثيراً فيما يريد . ويخيل إلينا أن هيامه بالأدب الأندلسي قد دفع به إلى التطرف والتماس الابتكار في كل موضع حتى فيما يتعذر معه الابتكار باتفاق ، ودليلنا — على سبيل المثال — أنه أراد أن يعثر على الطريف الجديد في الفترة الزمنية التي سبقت عهد الخلافة وهي المعروفة بعصر الولاة ، مع أن هذه الحقبة كانت مسرحاً لهجرة الشعراء من المشرق وأكثر من قال الشعر إذ ذاك — كعبد الرحمن الداخل — الذي اشتهر بشعره لا يمثّل الأندلس في شيء، لأنه حين قال أبياته الشهيرة التي اتخذها الدكتور مثالا للتجديد :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة	تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى	وطول التنائي عن بني وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة	فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن في المنتأى الذي	يسح ويستمري السماكين بالويل

« أقول حين قال ذلك كان وافداً من المشرق شاعراً يجري القريض في دمائه ويتدفق مع الدم في شرايينه ولم تنفحه الأرض الجديدة بثقافة خاصة تدعوه إلى التجديد الذي يريده الدكتور ! وأين هذه الثقافة ؟ بل لو وجدت إذْ ذاك ثقافة على سبيل الفرض ما تسنى له أن يرد حياضها وهو السياسي الداهية الذي ينتقل كل يوم من معركة دموية إلى مؤامرة سياسية ، وقد رأى الدكتور الباحث في هذه الأبيات ما سماه بالتركيز العاطفي(١) ، وهو في رأيه أمر جديد يستحدثه الداخل في دنيا الشعر ! ومع التسليم جدلاً فقط بهذا التركيز العاطفي فهو مشرقيّ صافي الدم حر النسب غير هجين !! والدكتور هيكل يرى سمات هذا التركيز الجديد في أن الداخل لم يصف النخلة في طولها ولا في لونها ولا في ثمرها ولم يتخيلها مارداً ذا شعر طويل ولا شيخاً ذا قوام هزيل وإنما ترك ذلك كله ليصف النخلة بأوصاف عاطفية ويصورها بصورة نفسية وقد جعل منها إنساناً حياً يغترب وينأى عن الوطن ويحنّ إلى الأهل وقد فرض بينه وبينها مشاركة وجدانية وعلاقة نفسية جعلته يخاطبها في حنوّ ويناجيها في عطف » .

وتحليل الدكتور للأبيات رائع بديع حقاً ! ينمّ عن إحساس صاف وذوق رائق ولكنه بعد ذلك شيء والتجديد شيء آخر إذ أن الشعر الأموي يعرف هذا التركيز العاطفي كما سماه ويعرض لنا قبل الداخل صوراً منه أعمق وأبعد من صورة النخلة فلديك مثلا عروة بن حزام وهو شاعر مخضرم أتى قبل الداخل بأمد بعيد يقول عن ناقته :

هوى ناقتي خلفي وقدامي الهوى ... وإني وإياها لمختلفان

هواي أمامي ليس خلفي معرج ... وشوق قلوصي في الغد ويمان

متى تجمعي شوقي وشوقك تظلعي ... ومالك بالعبء الثقيل يدان

---

(١) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة للدكتور أحمد هيكل ص ٩٦ ط أولى مكتبة الشباب .

وهي أبيات ذائعة مشتهرة ! وذيوعها المشتهر يغني عن إيضاح ما بها من التركيز العاطفي كما عناه الدكتور ، وقريب منها قول شاعر الحماسة متحدثاً عن ناقته :

أراد الله نقيلك في السلامي على من بالحنين تعولينا
فإني مثل ما تجدين وجدي ولكني أسرّ وتعلنينا
وبي مثل الذي بك غير أني أجلّ عن العقال وتعقلينا !

فقد ركب الشاعر ناقته واستمع إليها تئن وتحن ، وكان به وجد يشكو عقابيله فهو الآخر أنان حنان ، فتصور لدى الناقة ما به من شجن عاطفي ، ورآها تقاسمه لوعة الهوى وتباريح الصبابة فصاح بها :

فإني مثل ما تجدين وجدي ولكني أسرّ وتعلنينا !

ثم استطرد في الموازنة استطراداً بديعاً فذكر أن هناك فرقاً واضحاً بين الشاعر وناقته ! فهي معقولة تأخذها القيود فلا تستطيع أن تهيم على وجهها كما تشاء فترد منازل الأحبة ، وملاعب الذكريات ، أما هو فيجل عن العقال وشتان بين حنين لمطلق السراح وحنين لمغلول الجناح !

ألا يجد الدكتور ما عناه بالتركيز العاطفي قد تقدم الداخل بأحقاب على أني أفهم أن يطلق الدكتور على هذا اللون من الأدب تجسيماً أو تشخيصاً أما أن يصفه بالتركيز العاطفي ، فذلك ما فاتني سره ، ولا أدري مدى انطباقه على ما يريد بالتحديد ! ومن ضروب التجديد التي ارتآها المؤلف في هذه الحقبة التقليدية ما سماه بالتجديد الموضوعي مستشهداً بقصيدة لأبي المخشي يشكو عماه ، والقصيدة شعور متألم لزوج ضرير يرى أم بناته ترمقه في أسف حين تراه يتحسس موقع أقدامه ويتخشع لقائد يهديه السبيل ! ولكنها مع ذلك لا تحمل من الجديد ما يريد الدكتور .

فأقل ما يقال عن العمى أنه مرض حسّي يستشعره الضرير بمرارة صارخة ! وأصعب منه في مضمار الوصف الشعري مرض من الأمراض

المعنوية كالحسد أو الغيرة أو الرياء وقد وصفها شعراء الجاهلية وصدر الإسلام أوصافاً تحمل صدق التجربة ، وتستعين بالتعبير الموحي مما يراه الدكتور من دلائل التجديد لدى الشاعر الأعمى ، وأخشى أن أسوق أمثلة كثيرة لما أريد فأطيل في غير مطال .

لقد تطرف فريقا التقليد والتجديد في قضية الأدب الأندلسي تطرفاً متوقعاً غير مستغرب ، وقد اتفقوا جميعاً مع هذا الاختلاف السافر — على أنماط من التجديد وجدت بارزة في هذا الأدب ، ولعلها تنحصر في الموشحات والأزجال والملاحم ، والإبداع في وصف الطبيعة ورثاء الممالك الزائلة ، ولا بد لنا أن نقف فيما يلي من الصفحات وقفات نافذة لدى كل نوع من هذه الأنواع بل أننا سنضيف إليها ما رأيناه من دلائل التجديد الأندلسي في النثر الأدبي لا في الشعر وحده كما يريد بعض الباحثين أن يقصر عليه مجال التجديد إن وجد ! والحق أن لدينا إبداعاً فائقاً في الكتابة الأدبية لدى بعض المهرة من الأدباء وقد تغافل عنه الباحثون في هذا المضمار وهو بحاجة ملحة إلى أضواء تشير إليه وتدل عليه ، وسبيلنا أن نوجز القول في ذلك ، وحسبنا أن نحدد وأن نوجه تاركين لأرباب البحث المستوعب جانباً من الميدان الفسيح .

لقد أغفلت الحديث عن سيطرة المشرق النفسية مع أصالتها في باب يتحدث عن القديم والجديد لدى الأندلسيين ، ولكني تعمدت ذلك لأفردها بالحديث في موضوع لاحق يراه القاريء عن كثب ! وهي بعد تحتاج إلى مزيد من التبسيط !

سحر المشرق

من الأشعار التي تروى لعبد الرحمن الداخل قوله :

أيهـــا الراكب الميمم أرضي إقر من بعضي السـلام لبعضي
إن جســمي كما تراه بـأرض وفـؤادي ومالكيـه بـأرض
قدر البـين بيننـا فافترقنـا وطوى البين عن جفـوني غمضي
قد قضى الله بالبعـاد علينـا فعسى باقترابنـا سوف يقضي

هذه الأبيات ذات دلالة هامة ، لأنهـا تصور نوازع الأمير الباسل إلى مطارح عزته بالمشرق ، فجسمه بالأندلس وحده ، ولكن فؤاده بالمشرق وهذا الشعر أعظم من أن نقصره على هوى وجداني يتصل بحبيبة معينة ، فالمعروف عن الداخل أنه قدير على كبح أهوائه معرض عما يعوق مجده السياسي من ترف وأنس وغيد وشباب ! وقد وقعت من قلبه بعض الشابات الفواتن في غفوة من غفوات إرادته فلم يمهلها غـير أسبوع ، وأطلق سراحها ، معلناً لهـا في تأثر مرير ، أنه لا يستطيع أن يسجنها في قصر من الذهب لا يغاديه صاحبه إلا على أبعاد تترامى حتى تكاد تنقطع ! أقول أن هذه الأبيـات تصور ظمأه الحار إلى مجد الشرق ببغداد، وولوعه أن يصبح ذات يوم فيجد نفسـه حاكم المشرق لا غريبـاً نائياً يصـارع الأهـواء المتناحرة في أقصى البلاد ، وكانت الأهوال العاصفة من حوله تذكي بقلبه لواعج هذا الحنين المتقد ، فيوسف الفهري والصميل يجتمعان باديء ذي بدء على مناوءته فإذا تغلب عليهما بجهد جاهد نازعه القاسم بن يوسف ثم يتوالى الثائرون من بعده من أمثال عبد الغافر اليمني وحيوة بن ملامس وهشـام الفهري والعلاء بن مغيث حتى تعظم الداهية بظهور الفاطمي البربري ! محن متتالية متشابهة كليلات المحاق ، هذه من تلك ، والرجل الطموح لا يكاد يتنفس في تؤده ، فإذا فرغ في بعض أوقاته للنهوض الداخلي

ببلاده هاله أن يجد الفرق شاسعاً بين فوضى البربر وقبائل القيسية واليمنية وأخلاط الأسبانيين ممن يحكمهم في دولته الناشئة ، وبين حضارة المشرق ، وثقافة بغداد ، وسحر دمشق ، وإذا كان لا بد مما ليس منه بد فليتخذ من الشرق مثالاً حضارياً يحتذيه ، ولتكن بغداد بحضارتها وعلمائها وأدبائها وشعرائها منار هدايته ، على ضوء حضارتها يبني دولته ، وبثقافتها الحيّة يملأ عقول رعاياه ، وبأدبها الزاهر من شعر ونثر يسكر أرواحهم بما يلذ ويشوق !

كان المشرق أذن أستاذ الأندلس ، تتطلع إليه في إخلاص ورغبة ولا تحاول قبل عصر الناصر أن تقيس نفسها به ، بل كبرى مناها أن تحرز نفائس مؤلفاته وروائع آثاره ، وأن يغذ أبناؤها الرحيل إلى الارتشاف من حياضه والري من موارده ، فإذا وفد عليهم وافد من أعلام الشرق تطلعت إليه العيون في إكبار واقتعد مقعد الأستاذ عن فخر واعتداد . .

ومعروف أن الكثرة الكاثرة من جنود الفتح الأول كانت من البربر ، والأقلية القليلة من العرب ، وهؤلاء وأولئك لا يتيسر لهم أن يقيموا ثقافة أدبية أو حضارة عمرانية ، لأن البرابرة بداة لم يتمكنوا من العربية ، وزملاءهم من العرب في صراع طائفي بين قبائلهم تارة وبينهم وبين المغاربة تارة ثانية وبين الاثنين وبقايا القوط من غلاة الناقمين تارة ثالثة ، وحالة كهذه لا تسمح برقي وازدهار حتى إذا جاء الداخل مهد الأسباب إلى تدفق عربي جديد ، وقد اضطرته السياسة أن يستعين بهم على البربر تارة وأن يستعين بالبربر عليهم في أكثر المنازعات ! حتى إذا هدأ الجو بعض الشيء في أواخر أيام الداخل بدأ الاهتمام بثقافة المشرق يأخذ مأخذه وتطلع التلاميذ المغتربون إلى أساتذة كبار ! على أن أسباب الاتصال بين المواطنين كانت ممهدة ميسرة ، فأرض الإسلام بلد واحد في منطق الرعايا والأفراد ، يرحل المسلم إذ ذاك ما يرحل فلا يسأله سائل ماذا يقصد ؟ وأين يريد ! ومن يرحل من الأندلس إلى المشرق يتزود بالزاد الدسم من الثقافة والعلم والأدب ويرجع إلى بلاده

حاملا نفائس المؤلفات وراوياً بدائع الأشعار ومسجلا ضوابط اللغة والعلوم فيتبوأ مكانة الأستاذ ويعظم في عيون مواطنيه عظمة تخصه بالهيئة والجلال ، وتمهد له مناصب الفتيا والقضاء إن تفقه ، والوزارة والكتابة إن تفقه وتأدب ! هذا من رحل إلى المشرق ، أما من قدم من أعلامه فهو تحفة نادرة يتوافد الناس إلى رؤيتها ، ويقبلون على الاستفادة من غيرها ، وقد سجل المؤرخون كتباً كثيرة تحمل أسماء من رحل وعاد كما تسجل مواقف من قدم فأفاد ، وهناك كتب أخرى تجمع أسماء المؤلفات الوافدة من المشرق ، وهي تضم نفائس أعلامه في كل مجال من مجالات الثقافة فقهاً ولغة ونحواً وتصريفاً وتاريخاً وأدباً ، دع ما عرف من فنون الجدل والفلسفة ، فقد ظلت الأندلس بمنأى عنه إلى أمد بعيد ! ! .

آتت الرحلات والمؤلفات ثمارها ، حتى جاء عهد الناصر وولده الحكم فكانا بالأندلس بمكان الرشيد وولده المأمون بالمشرق ، فإذا كان هرون الرشيد قد أحيا الحركة الأدبية ببغداد على عهده بما نفح به الشعراء من هبات جزيلة ، وبما شاهد من المناظرات العلمية بين الكسائي وأئمة اللغة والأدب في أبهاء مجالسه ثم بما أنشأ من خزانة الحكمة حين ولي يوحنا بن ماسوية ترجمة الكتب الطبية القديمةوأخذ يجمعها من أنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم ثم جاء ولده المأمون فسار في الشوط إلى نهايته ، وشابه أباه في تغذية الحركة الفكرية ، بحيث كانت مجالسه مدارس علماء وحلقات مفكرين ثم زاد في نطاق بيت الحكمة حين راسل ملك الروم في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المدخرة لديه ، وبعث لذلك جماعة من أفذاذ التراجمة كإبن البطريق وسلم والحجاج ابن مطر ، حتى أصبحت بغداد وارثة الروم ثقافة وعلما كما تمثلت فارس والهند أدباً وحكمة ، إذا كان الرشيد والمأمون قد خطوا هذه الخطوات العلمية ببغداد ، فإنهما قد رسما الطريق للناصر وولده الحكم بالأندلس أن يقفوا أثريهما في هذا المجال المديد !

لقد بدأ الناصر فاستقدم أبا علي القالي صاحب الأمالي ، وساعده استقرار الأمن في بلاده وازدهار الرخاء في عصره وطموح الأمل في نفسه

أن يدفع البلاد إلى نهضة ثقافية شاملة ، وحضارة إنسانية زاهرة ! وكان أثره الغالي بعيداً رائعاً حيث تخرج على يده أعلام ثقات في الدراسات اللغوية كما استطاع أن ينصر المذهب القديم في الشعر العربي حين روى آثار الجاهليين والإسلاميين ، وظل في قرطبة ثمانية وعشرين عاماً ، ومهما كان من تأثيره اللغوي والأدبي فإنه لا يقاس بأثره العظيم في تنشئة الحكم نشـأة أدبية ، جعلته وهو ولى العهد يبذل المستطاع في جمع الكتب وتأليفها حتى إذا أصبح صاحب الأمر في البلاد ، أحدث هذا الدوي الرنان في دنيا الثقافةالأندلسية ! ويقول اللذين تحـدثوا عنه من الكاتبين : «أنه كان نظـاراً في الكتب كثير التعليق عليها ، وقلما تجد كتاباً في خزائنه دون أن يكتب عليه معلقاً» كما كان يرسل إلى أفذاذ العلماء في الشرق والغرب يدعوهم إلى التأليف في موضوعات يقترحها ، إذ يجد المكتبة العربية في حاجة إليها ، ولم يكن أنانياً يشغل نفسه بعائلته وبنفسه ، فيطلب إلى المؤلفين تسجيل مآثر أجداده كما لمسنا عند كثير من الملوك والرؤساء ولكن سعة عقله قد ارتفعت به إلى أوج باهر فنظر إلى التأليف نظرات موضوعية ، إذ كان حريصاً على أن يجمع لديه التراث الأندلسي على أوسع نطاق — وهذا مما يحمد له — فقد كلف أدباء كثيرين بالكتابة عن شعراء الأندلس وقضاتها وعلمائها وفقهائها ، ولعله يريد أن يحيي الثقة لدى الأندلسيين في عصره حين يجدون آباءهم قد تركوا من التراث العلمي ما يمتع ويفيد ، فيواصلون البحث نشطين ! وممن في حضرته من المؤلفين اسحاق بن سلمة وهو مؤرخ ضاعت أكثر آثاره وابن فرج مؤلف الحدائق بإرشاد منه ، وخالد بن سعيد ومحمد بن الحارث الخشني والزبيدي وغيرهم من الأفذاذ ، بل أن القاريء ليدهش حين يجد الحكم يضع للمؤلف فهرس كتابه ويرسم له خطة تأليفه ، فالزبيدي يقول في مقدمة كتابه عن النحاة : « وأن أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله رضي الله عنه لما اختصه الله به ومنحه الفضيلة فيه من العناية بضروب العلوم ، أمر بتأليف كتاب يشمل على ذكر من سلف من النحويين واللغويين في صدر الإسلام ثم من تلاهم من بعد إلى زماننا هذا ، وأن أطبقهم على بلادهم

وزمانهم حسب مذاهبهم في العلم ومراتبهم . . فألفت هذا الكتاب على الوجه الذي أمرني به ، وأقمته على الشكل الذي حده ، وأمدني رضي الله عنه في ذلك بعنايته وعلمه ، وأوسعني من روايته وحفظه إذ هو البحر الذي لا تعبر أواذيه ، ولا تدرك سواحله ، ولا ينزح غمره ، ولا تنضب مادته(١) » .

ولا تظن أن الزبيدي قال هذا القول تزلفاً للحكم دون أن يكون له نصيب من الواقع ، لأن سيرة الحكم تدلنا أنه كان أبعد الخلفاء عن الاهتمام بتزلف الوصوليين ورياء المغرضين ! ومسلكه مع فقهاء قرطبة يؤيد ذلك أبلغ التأييد ، فلو كان الرجل حريصاً على انتشار الصيت الكاذب ، لاتخذهم أبواقاً ينفخون في الدعاية لسلطانه ! ولكنه عارض جمودهم المتزمت ، ولم يحفل بما يتخرصون به لدى الناس ! وهم ما همْ إذ ذاك ، نفوذ كلمة وامتداد صيت ! حتى ألبوا عليه الجموع وكادوا ينجحون في استئصاله لولا حيلته البارعة مع أخذهم بالشدة حيث اتسع الخرق على الراقع ، وأنا أعجب لهذا الخليفة العالم البحاثة كيف استطاعت مآذق السياسة ومعاثر الدولة أن تهيئ له من الوقت ما ينفقه في بناء الثقافة ! ووضع الفهارس لبعض المؤلفات ، وجمع الأدباء من شتى الأقطار ! وشراء الكتب من أبعد الممالك ، وحرصه على ذلك حرصاً مدهشاً ! حتى قال الكثيرون أن كتاب الأغاني بكافة أجزائه قد ظهر لدى الحكم قبل أن يظهر لدى المشرق ، لأنه كان يقف على أدوار تأليفه وهو عنه بمنأى في قرطبة فعمل على إحضاره بعد أن أثقل جيب أبي الفرج ! وأكاد أشك في هذا الأمر لأن مؤرخي أبي الفرج يذكرون أنه لم يكن له في حياته من النباهة وبعد الصيت ما كان له بعد وفاته ، وأن قيمة كتاب الأغاني لم تظهر للناس على وجهها الباهر إلا بعد أن فارق مؤلفه الحياة !

---

(١) طبقات الزبيدي ٩ — ١٠ نقلا عن كتاب الدكتور إحسان عباس عصر سيادة قرطبة ص ٥٠ .

نعم ، أنه كان من جلساء الوزير المهلبي وصديقاً لشعراء عصره وكتّابه ورواته ، ولكن ذلك كله أضعف من أن يجعل الحكم في قرطبة يترصد خطواته في التأليف ، والأمر مع ذلك موضع شك لا أكثر ولا أقل !

لقد انتقل الأدب الأندلسي في عهد الحكم من الاعتراف بالتلمذة إلى المنافسة الحقيقية لأستاذه المشرقي! ولم يأت التلميذ بجديد باهر يأخذ به أبصار أستاذه ، ولو قد فعل لدارت معركة صاخبة كالتي نشاهدها في تواريخ الآداب بين الشباب والشيوخ أو بين القديم والجديد !

ولكن التلميذ أراد أن يسابق أستاذه في الاتيان بمثل ما لديه فقط ! والنتيجة مضمونة على كل حال ، لأن الانتاج إذا كان متحد النوع ، متقارب المذاق ، فالفضل لصاحب التجربة الطويلة والتاريخ المديد والانتاج الحفيل ، والحق أن الشعور النفسي لدى الحكام من طبقة الناصر والحكم ، والأدباء من كتاب وشعراء ، بأن أدب العباسيين هو النمط المحتذي في القول ، قد أوصد أمامهم أبواب الابتكار ، فإذا أضفنا إلى ذلك تشابه التربة الأدبية من حيث النوع والبذرة والماء فإن تشابه الثمرة أمر محتوم لا محيص عنده ولا محيد ، وما وجد من ضروب التجديد مما سنفيض في بعض بواعثه ، ومميزات لونه لم يكن مقصوداً متعمداً ، ولكنه في أهون أمره يمثل الاستثناء ولا يمثل القاعدة المطردة ! ! وأصحاب المقارنة بين الأدبين يفيضون في بيان طرق الاحتذاء وألوانه ، ويرددون أسماء المقلدين ومنازع تقليدهم ، ولهم في كل كتاب يرصد أمواج الفكر الأندلسي ثبت حافل بالكتب والأسماء فهم مثلا يقولون أن أبا الفضل جعفر بن شرف القيرواني ألف كتاب الزمان محاكاة لكتاب كليلة ودمنة الذي ترجمه ابن المقفع ، وأن كتاب الحدائق الذي وضعه أحمد بن فرج الجياني قد عارض به كتاب الزهرة لابن داود الأصفهاني ، وأن كتاب المظفري الذي كتبه ابن الأفطس صاحب (بطليوس) قد عارض به عيون الأخبار لابن قتيبة

ويقع في نحو من عشرة أجزاء كما أن هناك أكثر من ديوان شعري سُمّي بالحماسة مختاراً على طريقة أبي تمام ، أما كتاب الأنســاب للسمعاني فقد عارضه الرشاطي المحدث الأندلسي بكتاب على غراره . . . وتطول القائمة لو ذهبنا نستوعب ، فحسبنا أن نشير ! ! ولن نجد في باب الموازنة بين شعراء المواطنين أوضح من تسمية كل شاعر أندلسي بقريع مشرقي فابن هانيء وابن دراج كلاهما يوصف بأنه متنبي الغرب وابن زيدون بحتريه ، وابن خفاجة صنوبريه وابن طفيل عرف بابن سينا واشتهرت ولادة بعلية بنت المهدي وقيل لابن عبد البر صاحب الاستيعاب حافظ المغرب كما قيل للخطيب البغدادي حافظ المشرق .

أذكر أن الأستاذ محمد رضا الشبيبي علامة العراق وشاعره قد استقصى هذا الموضوع في كتابه عن أدب المغاربة والأندلسيين من ص١٠ إلى ص١٣ ثم قـــال :

« أن الأندلسيين قد استعاروا أسماء حواضر الشرق فأطلقوها على حواضر معروفة في الأندلس والمغرب فشبهوا أشبيلية بحمص وغرناطة بدمشق وفاس ببغداد إلى غير ذلك ، وأحدثوا بلدة سميت البصرة تشبيها لهـــا بالعراق » .

ثم قال العلامة الشبيبي تعقيباً على ذلك : « وهذا — مما يذكر للمغاربة والأندلسيين ويدل على فضلهم وتواضعهم — ضرب من الاعتراف بسبق المشارقة وتفوقهم في العلم والتعليم والبحث والتأليف(١) » !

ويخيل إليّ أن السبق الزمني بأكثر من مائتي عام بين ازدهار الحضارة العربية بالمشرق وازدهارها بالأندلس جعل هذا الاعتراف أمراً طبيعياً لا غرابة فيه يتقدم به اللاحق للسابق عن طواعية ! ولكننا نتساءل أكان هذا الاعتراف اجماعاً تنعقد عليه الكلمة ، ويشار إليه في مجال التفضيل أم أن

(١) أدب المغاربة والأندلسيين ص ١٣ للعلامة الشبيبي ط معهد الدراسات العربية بالقاهرة .

هناك من أدباء الأندلس على بصرهم الناقد من ضاقوا به وأنكروه ، أن لدينا نصوصاً كثيرة لأفذاذ من الأندلس يحاولون بها أن يجعلوا الأندلس مع المشرق في قرن واحد بل ساروا إلى أبعد من ذلك فجعلوا الأندلس راجحة والمشرق مرجوحاً ، وأظهر من جال في مضمار التفاضل علامة الأندلس وفقيهها الأكبر وباحثها النابغة ابن حزم ، فقد عقد رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها،أوردها المقرى في الجزء الثاني(١)من النفح فاستعرض ما أثر عن بلاده في مضمار التأليف من تاريخ وتفسير وحديث ولغة وأخبار وطب استعراض من يرى السبق الظافر في إقليمه ثم ختمها بقوله : « وبلدنا هذا على بعده من ينبوع العلم ، ونأيه من محلة العلماء فقد ذكرنا من تآليف أهله ما أن طلب مثلها بالأهواز وفارس وديار مضر وديار ربيعة واليمن والشام أعوز وجود ذلك على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفهم وذويه ، ومراد المعارف وأربابها ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرب جفونه بن الصمة الكلابي لم نُباهِ به إلا جريراً أو الفرزدق لكونه في عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره فهو جار على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين ، وإذا سمّينا بقي بن مخلد لم نسابق به إلا محمد بن اسماعيل التجاري ومسلم بن الحجاج النيسابوري — ثم أفاض ابن حزم فيما يشبه ذلك عن العلماء حتى قال عن الأدباء :

« ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج القسطلي لما تأخر عن شأو بشار وحبيب والمتنبي ، فكيف ولنا معه جعفر بن عثمان الحاجب ، وأحمد بن عبد الملك بن مروان ، وأغلب بن شعيب ، ومحمد بن شخيص ، وأحمد ابن فرج ، وعبد الملك بن سعيد البرادى ، وكل هؤلاء فحل يهاب جانبه وحصان ممسوح الغرة » .

وأنا حين أقرأ هذه الأسماء — مع ثقتي بابن حزم وسداد حكمه — أعلم أن جل شعر الأندلس قد ضاع لا محالة فكيف يكون هؤلاء في منزلة

---

(١) نفح الطيب — ج ٢ ط أولى .

بشار وأبي تمـــام والمتنبي ثم لا نعلم عنهم شيئاً إلا ما جمع من ديوان ابن دراج ! ! على أننا نكاد نجزم بأن الذي فقد على كثرته من طراز ما وجد على قلته . فالحكم على نوع الأدب وتحديده لا يختلف ضياعاً أو وجوداً ، فلئن غاب مائة ديوان ووجد عشرون مثلا ، فالمعين الدافق سائل واحد في الحاضر والغائب على السواء وهو ما لا يحيد كثيراً بالحكم على أكثر أدب الأندلس بالمحاكاة والترديد ! على أن الدكتور أحمد أمين فقد انتقد ابن حزم ومن لف لفه في معركة الموازنة والتفضيل انتقاداً صائباً فهـــو يقول بالجزء الثالث من ظهر الإسلام ص ١٢ :

« ومما لا شك فيه أن المنهج الذي سلكه ابن حزم والشقندي ليس منهجاً علمياً ودقيقاً ، إنما هو كلام يقال ، فمن الصعب جداً الحكم بأن فرداً أزكى من فرد ، فكيف الحكم بأن أمّة أذكى من أُمّة ، بل إنها أذكى من الأمم ، ومسلكهما — يقصد ابن حزم والشقندي بعد أن عرض كلامه وهو ممّن يدور في فلك ابن حزم — الذي سلكاه أنهما يحكمان حكماً كلياً ثم يستدلان عليه بمسألة جزئية ، فيقولان أن أهل الأندلس عرفوا بعلو الهمّة أو الاعتناء بالنظافة ، ويستدلون على ذلك بحادثة حدثت لرجل أو من رجل ، فكيف يصح هذا في العقل ؟ إنمـــا المنهج الصحيح هو مثلا في توزيع مقياس الذكاء على الناشئين ، وعمل ذلك في أمّة أخرى ، والمقارنة بينهما ، ونحو ذلك وبذا تطمئن النفس بعض الشيء عند النتيجة ، أما القول جزافاً بأن أمه أذكى والاستدلال بأن فلاناً ألف كتاباً قيّماً ، فبرهان قاصر ، ومحال أن تكون أمة كثيرة العـــدد كالأمة الأندلسية لا ينتج منها علماء أعـــلام وأدباء فطاحل (١) » .

أعتقد أن الذين تعاظمهم سطوة الأدب المشرقي من أعلام الأندلس يعبرون عن جانب نفسي من مشاعرهم ، فهم لدى أنفسهم أعلام فضلاء ، ولكن ما يلمسونه مع مواطنيهم الأقربين من تنافس وتصارع يؤديان في

(١) ظهر الإسلام ج ٣ ص ١٢ .

بعض الأحيان إلى جحود وكفران ، قد جعلهم يضيقون أولا بما يصادفونه من عقوق ، ثم يوازنون أنفسهم بما يتخيلونه عن أعلام المشرق في سبحاتهم الحالمة ، فيظنون أنهم في مشرقهم لا يكابدون قليلا مما يكابدون ، فيشعرون بمرارة لاذعة لا تلبث أن تنقلب ثورة على أدب هؤلاء دون ذنب جنوه ! فأبن حزم مثلا على جلالة علمه ورسوخ قدمه كان قطباً لمعركة طاحنة تحتدم بها الآراء ، وله خصوم أقوياء لا يفتئون يمدون له أسباب الكيد والوقيعة حتى اعتقل في منزله ، وأحرقت كتبه ، وهو عند نفسه لا يقل مكانة عن الشافعي وأبي حنيفة ومالك ولكن قومه ضيعوه ، ثم أخذوا يفاخرون بالمشارقة فاندفع إلى قوله السالف تحت تأثير ظروف قاهرة لا طاقة له باحتمالها ، ويدل على ذلك عند ابن حزم وآحاد من أمثاله ، ما يترنمون به من الشعر تنفيساً عن مشاعرهم المضطرمة كأن يقول ابن حزم مثلا :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ... ولكن عيبي أن مطلعي الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع ... لجد علي ما ضاع من ذكري النهب
ولي نحو أكناف العراق صبابة ... ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فإن ينزل الرحمن رحلي بينهم ... فحينئذ يبدو التأسف والكرب
فكم قائل أغفلته وهو حاضر ... وأطلب عنه ما تجيء به الكتب
هنالك يدري أن للبعد قصة ... وأن كساد العلم آفته القرب

وكأن يقول ابن دراج القسطلي :

فإن غربت أرض المغارب موطني ... وأنكرني فيها خليط وجيران
فكم رحبت أرض العراق بمقدمي ... وأجزلت البشرى على خراسان
وأن بلاداً أخرجتني لعطل ... وأن زماناً خان عهدي لخوان

هذا والمثل القائل : « أحب شيء إلى الإنسان ما منع » يعبر عن حقيقة نفسية لا ندري كيف غابت عن كاتب حصيف كابن حزم ، فالأدب الأندلسي في متناول أصحابه ، لا يحسون له وحشة أو اشتياقاً ، أما أدب

المشارقة فبعيد يُسأل عنه في لهفة وحنين ! ولو مد هؤلاء الناقمون أنظارهم إلى رجال المشرق لوجدوا ما لديهم هنا يماثل ما لدى القوم هناك ، فالمشارقة هم الآخرون يحنون إلى روائع الأندلس ويلتمسون السبيل إلى تنسم أخبارها واستظهار أشعارها ويتقبلون ذوي الرحلة منهم — في الأغلب — تقبل الارتياح والانشراح وقد حرص حكام المشارقة على تدوين أخبار اخوانهم رغبة في الوقوف عليها وسيرورتها بين الناس ، فالفقيه الطرطوشي صنف سراج الملوك في مدينة الاسكندرية استجابة لرغبة حاكمها المأمون البطائحي ، وابن القطاع قد صنف الدرة الخطيرة في المختار من شعراء الجزيرة ليرضى أدباء مصر والمحدث الأديب ابن دحية صنف كتابه الأدبي المطرب في أخبار شعراء المغرب بناء على اقتراح الملك الكامل من بني أيوب ، وهناك مطرب آخر في الأدب غير مطرب ابن دحية سبق أن ألفه الكاتب الأندلسي اليسع بن حرم بمصر ، استجابة لرغبة صلاح الدين الأيوبي فإذا كان أمراء المشارقة ووزراؤها حراصاً على الأدب الأندلسي فهم يرونه أهلا للتقدير والاحتفاء ولا يسمعون من أبناء بلادهم من ينكر عليهم ذلك ! هذا من ناحية ، أما تخيل مكانة العلماء في المشرق على مستوى لا ترتقي إليه مكانة الأندلسيين في بلادهم فسراب يتخايل من بعيد دون أن تقع له العين على حقيقة فهل نسى ابن حزم أن البلاء هنا هو البلاء هناك ، وأن أبا حنيفة على جلالة علمه كاد يموت تحت العذاب ، وأن مالكاً ضرب بالسياط ، وأن ابن حنبل قد امتحن بما تزلزل به الجبال وأن عشرات من أمثاله جابهم الزمان بما اعتاد أن يفجع به الكرام المرزئين من حملة الهدى والإصلاح !

إن زامر الحي لا يطرب كما يطرب الغريب الذي يدوي صيته قبل أن تقع عليه العين ! ولذلك صرخ ابن بسام في افتتاح الذخيرة مردداً صرخة ابن حزم في رسالة المفاضلة ، بل عبر عن حرارة كاوية تلهب جوانحه حين هتف في ألم لذاع (١) . :

---

(١) الذخيرة لابن بسام — مقدمة المؤلف ط أولى عن كلية الآداب المصرية .

« ومازال في أفقنا هذا الأندلسي القصي ، إلى وقتنا هذا من فرسان الفنيْن ، وأئمة النوعين ، قوم هم ما هم ، طيب مكاسر ، وصفاء جواهر ، وعذوبة موارد ومصادر ، لعبوا بأطراف الكلام المشقق ، لعب الدجى بجفون المؤرق ، وحدوا بفنون السحر المنمق حداء الأعشى ببنات المحلق ، فصبوا على قوالب النجوم ، غرائب المنثور والمنظوم ، وباهوا غرر الضحى والأصائل بعجائب الأشعار والرسائل ، نثر لو رآه البديع لنسى اسمه ، أو اجتلاه ابن هلال لولاه حكمه . ونظم لو سمعه كثير ما نسب ولا مدح ، أو تتبعه جرول ما عوى ولا نبح ، إلا أن أهل هذا الأفق أبو إلا متابعة أهل الشرق يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب . أو طنّ بأقصى الشـــام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتاباً محكماً ، وأخبارهم الباهرة ، وأشعارهم السائرة مرمى القصية ، ومناخ الرذية ، لا يعمر بها جنان ولا خلد ، ولايصرف فيها لسان ولا يد ، فغاظني منهم ذلك ، وأفقت مما هنالك ، وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهري ، وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري ، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة ، وتصبح بحاره ثماداً مضمحلة مع كثرة أدبائه ووفور علمائه ، وقديماً ضيعوا العلم وأهله ، ويارب محسن مات إحسانه قبله ! وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان ، وخص أهل المشرق بالاحسان ! « .

نفثة مصدور بلا شك ! ولكن تعليلها واضح أسفر عنه ماكتبناه آنفاً بصدد مفاضلة ابن حزم ، ولعل من أثرها الحسن أن حدت بابن بسام إلى تستطير الذخيرة فقدم لنا تراثاً خالداً يذكر له بالثناء على أني أعجب لبعض الباحثين لماذا يجعلون نتاج الأندلس يقف وحده أمام نتاج بغداد في أخصب عهودها الزاهرة ، ولا يحاولون ذلك مع أدب كأدب مصر في عهد الولاة وابن طولون والفواطم أو أدب الشام في عهد بني حمدان أو أدب ما وراء النهر من بلاد فارس وخراسان ! لماذا تقف الأندلس وحدها موقف المضاهاة والمقارنة ! وهي بعد إقليم لا يختلف عن غيره من الأقاليم ، ثم ألا يكون ذلك دليلاً

على سمو الأدب الأندلسي وازدهاره إذ استطاع أن يبلغ ما لم يبلغه أدب مصر أو الشام أو ما وراء النهر حيث لا يقف نتاج إقليم منها أمام أدب بغداد ! قد يقال إن قرطبة كانت عاصمة خلافة أموية ، كما كانت بغداد عاصمة خلافة عباسية ، وهي بذلك ترفع نفسها إلى مستوى المنافسة ولها أن تتحمل تبعة النتائج كما تجيء ، ولكن القاهرة أيضاً كانت عاصمة خلافة فاطمية تنافس بغداد وتهددها في أمنع معاقلها الحصينة ، وكان لها بيت الحكمة على ضفاف النيل منافساً خزانة الرشيد والمأمون على ضفاف دجلة ومكتبة الناصر والحكم بالزهراء ! فلم قصر الأدب المصري أن يطمح للمباهاة ! إن السبب واضح لا يحتاج إلى جهد ! فالأدب العربي في مصر الفاطمية كان مقصوراً على الخاصة من ذوي المناصب والدواوين أما الأدب العربي في الأندلس فقد كان نهباً مشاعاً للكثرة الكاثرة من طبقات الشعب(١) ، وفيهم الزراع والصناع والتجار ومن يمتهن الحرف المتواضعة فتعمل يده ويفكر عقله . ويترنم لسانه ، وحدث بعد ذلك عما يجيش به الأدب من لجج ترفدها جداول متكاثرة لا يهدأ بها تيار أو تقف دونها أسداد . . . بذلك كله وبغير ذلك أيضاً استطاع نتاج هذا الإقليم المتأدب أن يزخر ويفيض !

يقول أساتذة الأدب المقارن أن من العوامل الأولى لعالمية الأدب وازدهار تأثيره في كثير من الآداب الأخرى شعور ذوي العقليات الناضجة بعدم كفاية أدبهم القومي في التعبير عن رغبات النفس ، ومبتكرات الحياة فيتجهون إلى أدب آخر يجدون لديه دماً جديداً ينقلونه أو ينقلون منه إلى أدبهم المحتاج ، فتجد به روح أخرى ويغمره نشاط يعيد إليه بعضاً من فناء النفس وشباب الروح ، ولذلك يقول (جوته) الشاعر الألماني الطائر الصيت : « ينتهي كل أدب إلى الضيق بذات نفسه إذا لم تأت إليه نفائس الآداب الأخرى لتجدد الخلق من ديباجته » .

---

(١) الأدب الأندلسي ص ٧٦ للدكتور جودت الركابي .

ومايقال عن الآداب المختلفة في دنيا الأدب المقارن ، يقال كذلك عن أدبالإقليم الخاص بين آداب الأقاليم الأخرى في اللغة الواحدة والأدب الواحد ، فقد شعر ذوو الملكات العالية بالأندلس بحاجتهم الماسة إلى أدب المشرق ، وقوى هذا الشعور ما لمسوه فعلا لدى الأدب المشرقي من نفاذ وقوة وتأثير ، فعكفوا عليه عكوف من يراه غاية الأمل ، ومرتقى الاعجاز ! ولم يجل في أذهانهم أن يتيامنوا كثيراً عنه إلى غيره أو إلى نفوسهم الخالقة إذ يسبرون أغوارها ويكتشفون مجاهلها فتسعدهم بالجديد ! وكان النتاج المشرقي من الغزارة والتدفق والموالاة بحيث لم يترك بريقه مغازلة الأبصار ، وخطف القلوب ! وأخذت المؤلفات المشرقية تتتابع لتحتذى ، ومهما كان تأثير هذه المؤلفات فإن أحدها وهو يتيمة الدهر للثعالبي قد بلغ بتأثيره في صياغة النثر ، واتجاه النقد ، وكتابة التاريخ ما لم يبلغه أثر سواه . . . ونحن نستأذن القاريء أن نبين له ذلك بما نستطيع به أن نخدم قضية التأثر والتأثير .

أثر اليتيمة في أدب الأندلس

أكثر ما عثر عليه في التراث الأندلسي من كتب التراجم والأخبار يرجع تأليفه إلى عهد ملوك الطوائف وما يليه ، وأقله يتقدم هـذا العهد لأئمة من سابقي الكتاب ، وأنت حين تقرأ هذا الكثير مما صدر في العهد الأخير تجده يكاد أن يكون متشابهاً ، فليست هناك فروق بعيدة بين كاتب وكاتب ، وكأنهم يصدرون جميعاً عن مورد غير مختلف ولا ننكر أن لكل كاتب ما ينفرد به من السمات التي لا تخفى على البصير المتيقظ ، ولكن الطابع العام مع ذلك واحد ، فجل هذه الكتب تميل إلى المبالغة والاسراف ، وتتخذ من التراجم الانسانية معرضاً للبديع بسجعه وجناسه ، حتى لتكاد الحقائق الذاتية تختفي في طيات هذه الزركشة الشائعة ، وهي ظاهرة هامة تحتاج إلى تعليل وتحليل .

لقد وفدت إلى الأندلس من المشرق كتب الأعلام من أئمة التأليف ، وتداول الأندلسيون آثار ابن المقفع والجاحظ وأبي الفرج الأصفهاني وأبي حيان التوحيدي وأضرابهم من ذوي الأسلوب الحي والتفكير الخصب !

ولكن أثر هؤلاء الأئمة لم يكد يتضح فيما نشر من الكتب في عهد الطوائف وما يليه ، واتضح أثر كتاب ذائع ، تقبله الأندلسيون بارتياح ، وطفقوا ينهلون منه ويعبون ، واتخذه الأكثرون نمطاً عالياً يحتذى ، في صناعة التأليف ! ذلك الكتاب الذائع هو يتيمة الدهر بأجزائه الأربعة لأبي منصور الثعالبي رَحِمَهُ الله !

وأنت حين تبحث عن سر ارتياح القوم لصاحب اليتيمة وولوعهم باقتنائه تجد لديك ما تقول ! فالنثر العربي لعهد الثعالبي كان قد تطور من الطبع إلى الصنعة ومال به الخوارزمي والصابي وابن العميد والصاحب

والهمذاني إلى ضروب من التكلف تعمد إلى الحلية الظاهرة والزينة البارزة وتغفل الاستشفاف والتبصر وتخطيء الاصابة اليقظة للتعليل والتحليل! وجاء الثعالبي فتأثر بسابقيه الأقربين وكان له من ظروف نشأته واتجاهه ما حبب هذا اللون إلى قلبه ، إذ أن بلاغة اللفظ وحدها في أضيق حدودها المتعارفة كانت هي التي تأخذ بمجامع تفكيره ، ونظرة إلى منحاه في التأليف توضح هذا الاهتمام، فكتاب فقه اللغة ، وكتاب الكنايات وكتب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب كلها تشير إلى اهتمامه الجزئي بالتراكيب اللفظية ! وقد يكون هذا بدعة العصر أجمعه ! إلا أن الثعالبي حين نقل هذا الولوع الفني بالصنعة اللفظية من ميدان الرسائل والمقامات إلى ميدان التأليف العلمي قد فتح الطريق إلى اتجاه جديد في التأليف ، ومهما قيل عن تسويغ هذا الاتجاه ، فليس هو الطريق المفيد !

انتقل كتاب اليتيمة إلى الأندلس فأحدث دويه ، وأرّخ الكتاب يوم صدوره واحتفلوا باستقباله احتفالا لم يتيسر لأكثر الوافد من الآثار ، وتعليل ذلك الاهتمام قريب غير بعيد ! فمناظر الأندلس توحي بالزينة ، وحضارة الأندلس قد أوجبت تنميق الأثاث وتجميل الرياش ، وتحلية القصور والأبهاء ، ثم انتقلت إلى اختراع الموشحات في دنيا النظم ، ومن الطبيعي أن تنتقل إلى إستحسان البديع في دنيا النثر ، أضِفْ إلى ذلك أن أكثر القائمين بكتابة الرسائل لدى ملوك الأندلس أدباء وفقهاء في وقت واحد ، وولوع هذا النوع من الكاتبين بالبهارج اللفظية أشد وأكثر ، ولسنا ننكر أن منهم أدباء خلصاء ترنح أعطافهم روائع الأدب الأصيل ولكن ماذا يصنع القليل أمام الكثير .

جاء كتاب الثعالبي فأحدث دويه وأخذ أصحاب التراجم يحتذونه مباهين ! ! وإذا قلت أصحاب التراجم فإني أعني التراجم السياسية والأدبية معاً ، لأن أكثر حاكمي الأندلس ، أدباءٌ وشعراءٌ بل كانت الوزارة في أكثر سبلها لا تلتمس أصحابها في غير الأدباء والشعراء ! فكل شاعر يطمح

للوزارة وكأن الشعر والأدب من أسلحة السياسة والحكم لذا كانت كتب التراجم من سياسية وأدبية متشابهة متآخية! وقد وجد في المشارقة من وصلوا إلى الوزارة عن طريق الأدب ! ولكنهم بالقياس إلى أولئك نفر قليل !

إن ولوع الأندلسيين بالزينة والزخرف كسبب نفسي ترد إليه هذه الظاهرة ، هو الذي أتاح لكتاب اليتيمة أن يصبح مثالا يحتذى ، وإلا فإن شيخ مؤرخى الأندلس وسيد كتابها ابن حيان كان جديراً أن يكون رائد المدرسة التاريخية في إقليمه لو وجد من تلاميذه وحفدته من يتذوقون نهجه ، أو يحاولون السير على منواله ! ولك أن تعجب حين ترى ابن بسام في الذخيرة ينقل آراء الرجل وأقواله مسهباً مطيلا فإذا عاد ، إلى نفسه تداركته عدوى اليتيمة ونسى الأفق المشرق الذي كان ينقل من أضوائه ، أيكون ابن بسام أعجز من أن يحاكي ابن حيان ! هو كذلك بلا شك ، ولو أنه حاكاه في زمنه المتأخر ما وقع حديثه أطيب موقع لدى من يرهفون أسماعهم لصلصلة الحلي ورنين الأسجاع !

كان ابن حيان (٣٣٧ — ٤٦٩) جزل العبارة شديد العارضة ، قوي الآصرة تلمس في أسلوبه قوة وتدفقاً وتراه نسج وحده في براعة التلوين ، وقوة التصوير ، فإذا نظرت إلى أحكامه شاقك أن تجد بعداً في الغور ، وبراعة في النفاذ ، ودقة في الملاحظة ، وهو جاحظي التركيب في تدفقه وانصبابه ، وكثيراً ما ينجو من استطراد الجاحظ إلى الموضوعية المركزة المحددة ، وكاتب فحل من هذا الطراز لا يرحب به العامة من القارئين ترحيبهم بالكاتب السهل المتناول القريب الأخذ ! ولعل ذلك مما أضاع مؤلفاته على كثرة أجزائها وجودة منحاها ، إذ لو رزقت سواداً كبيراً من القارئين لتزايد نسخها ، ووصل إلينا منها شيء ذو بال . . . لأننا لم نر الرجل حقاً إلا فيما نقله عنه صاحب الذخيرة — وما أكثر ما نقل — وإلا في ثلاثة أجزاء من كتاب المقتبس فقط ، أما بقية الأجزاء العشرة ، وأما كتاب المتين ذو المجلدات الستين وأما كتاب فقهاء قرطبة وأما كتاب المــآثر العامرية ، فواسفا !

يقول المؤرخ الهولندي (دوزى) عنه ، : « إنه يسوق التاريخ مساق من يبدي رأيه وحكمه فيما يعرض من القضايا ، ويبحث عن أسباب الأشياء ويناقشها عن علم وفهم وذكاء كما سيفعل من بعده نقادون كابن سعيد وابن خلدون ، ويمتاز ابن حيان إلى ذلك بأسلوب ناصع لا يهبط إلى الركاكة ، ولا يقع كذلك في التفصح والاسراف في قعاقع الألفاظ ورغم التزامه هذه السهولة لا يهمل جانب الجمال في أسلوبه ، ويبعث في كلامه دائماً حماسة وغنى وطابعاً غالباً من الجد ، ونخرج من هذا كلهبأننا لا نجد بين مؤرخي العرب إلا القليلين الذين نستطيع أن نقارنهم به ، ولن نجد بينهم من نقدمه عليه » (١) .

أجل لن نجد من مؤرخي العرب من نقارنه به إلا كاتباً كابن خلدون أما الذين أكثروا من التراجم الأندلسية من بعده فقعدت مواهبهم المتواضعه دون اللحاق به ! وفيهم من جـــروء على انتقاده فابن بسام : يقول عنه — الذخيرة ١/٢ ص ٨٥ .

« ومع ذلك فقد كان سهماً لا ينمي رميه ، وبحراً لا ينكش آذيه ، ولو سكب الماء ما نقع ، أو تعرض لابن ذكاء ما سطع ، يتناول الأحساب قد رسخت في التخوم وأنافت على النجوم ، فيضع منارها ، ويطمس أنوارها بلفظ أحسن من لقاء الحبيب غب الموعد ، وأمكن من عذر الطبيب عند العود ، فرب شامخ بأنفه ، ثان من عطفه ، قد مر من كتابه بفصل جرده لوضع حسبه ، وخلده أحدوثة باقية في عقبه ، فيرده ورود الظمآن الرنق ، ويلبسه لبس العريان الخلق » .

فصاحب الذخيرة يأسى على لذعات ابن حيان ونقداته ، فهو يريد منه أن يذكر المحاسن ، ويغضي عن المساويء ! وقد نسى ابن بسام شيئاً هاماً ، هو أن من كان في ألمعية ابن حيان وقوة بصيرتهوشمول نظرته يرى كثيراً

---

(١) الأدب الأندلسي للدكتور هيكل ص ٣٩٣ نقلا تاريخ الفكر الأندلسي ترجمة مؤنس ٢١١ .

من الهنات فيمن يتناول ، ولا بد أن يقول رأيه مستنداً إلى تجربته الواسعة ، وخبرته الأصيلة بالنفوس ، قد يكون ابن حيان أكثر من النقد وأسرف ، فالصفحات التي اقتبسها ابن بسام تحت عنوان (المختار من قوله) تضرب في النقد إلى مدى متطاول كاد أن يكون سباباً ! حتى ليفهم القاريء أن كتابته جميعها من هذا الطراز ، ولكن متابعة ما طبع من الذخيرة ، وما تُدُووِل من أجزاء المقتبس تفهمنا أن ابن حيان ناقد منصف يسجل الشر والخير معاً ! وهو ما لا يرتضيه ابن بسام ، وقد تعرض الدكتورأحمد أمين إلى الفصل في هذه القضية فقال في ظهر الاسلام ج ٣ ص ٢٧٨ .

« ونحن إلى مذهب ابن حيان أقرب ، فالمؤرخ عليه أن يتحـرّى الصدق في المدح والذم والنافع والضار ، أما اقتصاره على المدح دون الذم (كما يريد ابن بسام) . فتقصير في رواية الحق . وقول « لنصف الحق ، وليس الرجل المشهور في التاريخ ملكاً لنفسه ، بل أصبح ملكاً لشعبه يشرحه المؤرخ الحصيف كما يشرح الطبيب المريض فنحن مع ابن حيان لا ابن بسّام ، وكثيراً ما ضقت ذرعاً بالمؤرخين الذين لا يذكرون إلا المحامد ، ويغضون الطرف عن المفاسد بل قد يخلقون المدائح خلقاً ، وإن لم يصح نسبتها إليهم حقاً (١) »

ولو تعمقنا بواعث التأليف لدى ابن حيان وابن بسام لوجدنا كلا الرجلين منطقياً مع نفسه ، فابن حيان ألف كتابه ليصدر أحكامه كما يراها عقله البصير ، ويقول بعض الكاتبين عنه أن لم يقصد إذاعة كتبه بين الناس بل جعلها مذكرات خاصة لورثته كي يستفيدوا منها وينتفعوا بعظاتها ، وأنا أستبعد هـذا ولا أقبله لأن المؤلف الذي يكتب أكثر من مائة مجـلد في التاريخ لا يقرّ بينه وبين نفسه أن تظل هذه الآثار الحافلة ملكاً لعشرة من القراء أو عشرين ! ! ولكنه يقوم بمجهوده الضخم ليسمع الناس ما يريد ! وإذا كان ابن حيان قد اعترف بهذا الضن حين قال عن بعض كتبه : الذخيرة ١ ـ ٢ ص ٨٨ .

---

(١) ظهر الإسلام ج ٣ ٢٧٨ .

« وكنت أعتقدت الاستئثار به لنفسي ، وخبأه لولدى ، والضن بفوائده الجمة على من تنكب إحمادي به إلى ذمي ومنقصتي ، طويتُ على ذلك كشحاً ، وأمضيته عزماً إلى أن رأيت زفافه إلى خطبة سنيّه أتتني على بعد الدار هن أكرم خاطب ، وأسنى ذي همة الأمير الموئل : يحى ابن ذي النون (١) » فليس لنا أن نجعل هذا الاعتراف قضية مسلمة ، لشيء واحد ! لأنه يخالف طبائع الأشياء ! هذا شأن ابن حيان في تأليفه أما ابن بسّام فقد ألف الذخيرة لينصف أهل الأندلس ، ويقف بهم مع المشارقة في مستوى واحد ! ومؤلف هذه وجهته لا يتسنى له أن يسطر ما يعرف من المآخذ ! وإلا ما استطاع أن يبلغ بمؤلفه ما يريد ! !

لقد أطلنا القول شيئاً ما عن ابن حيان ! وهو كاتب يستحق الالتفاف دون نزاع وقد أنصفه الكاتب المفضال الأستاذ علي أدهم ، حين ذكر في معرض تبرئته من التحامل أنه وإن كان ينتصر دائماً للخلافة الأموية « فهو أوسع أفقاً وأكثر أمانة وأشد احتراماً للحق من أن يكيل لهم المدح جزافاً ويخلع عليهم إبراد الثناء بلا حساب ، وقد عدد في الجزء الثالث من كتابه (المقتبس) مناقب الأمير عبد الله ، وأبدع في وصفها ، ولكنه لم يقف عند هذا الحد ، وأضاف إلى ذلك ذكر عيوبه ونقائصه وأحصى عليه أخطاءه وجرائمه » .

ولا أعرف مؤرخاً من مؤرخي المشارقة يقوم لابن حيان في قوة التصوير وبراعة التلوين مع الإصالة والطرافة ، وهو في قوة تصويره ، وصرامته وصراحته ، واستمساكه بالموازين الأخلاقية يذكرني بالمؤرخ الروماني العظيم تاسينوس » مجلة الثقافة عدد ٦١٤ .

إن هذا المؤرخ الفذ الذي يقول عنه صادقاً الأستاذ علي أدهم أنه لايعرف مؤرخاً من مؤرخي المشارقة يقوم له ! لم يستطع بآثاره أن يقف في وجه كتاب اليتيمة حين تخطى الشرق إلى الأندلس فسحر الناس وبهر الكتاب !

---

(١) الذخيرة ٢/١ ص ٨٨ .

وقد توالى كتّاب التاريخ من بعده أمثال ابن الفرضي والحافظ الحميدي وابن بشكوال وابن الأبار وابن عبد البر وابن بسّام والفتح بن خاقان وابن سعيد والحجاري وعبد الواحد المراكشي وابن الخطيب والمقري ومن يلف لفهم من المؤرخين فقصروا جميعاً عنه وما حاذوه ! ولا نستطيع أن نخص كل هؤلاء بالتحليل ! ولكننا نعمد إلى اثنين ممن رزقوا الحظوة في الذيوع ، والمعاصرة في الحياة لنتخذ منهما دليلا على أثر الثعالبي في كتابة التاريخ الأندلسي ثم أثرهما تبعاً لذلك في انتقال العدوى البديعية إلى من يليهما من الكتاب ! وهما ابن بسام صاحب الذخيرة والفتح بن خاقان صاحب القلائد والمطمح ! وما أغفلنا ابن الخطيب عن انتقاص ولكن فضله ذائع وأسلوبه مشتهر وهو بعد لاحق بهما على أنه تأثر بثلاثتهم جميعاً ، إذ قرأ ما خلفوه !

لقد ذكر ابن بسام في مقدمة كتابه أنه اتخذ تقسيم الثعالبي منهجاً له ، فهو يقسّم الذخيرة أربعة أقسام ، كما قسّم الثعالبي اليتيمة أربعة أقسام وهذا التقسيم جغرافي كتقسيم صاحبه فلكل أقليم شعراؤه مهما اختلفت منازعهم الأدبية ! فقسم لقرطبة وما يليها من وسط الأندلس وقسم لأشبيلية وما جاورها من الغرب ، وقسم لبلنسية وما يليها من الشرق وقسم أخير للوافدين من المشارقة إلى الأندلس ! وهكذا سار سير الثعالبي حين جعل اليتيمة أقساماً أربعة ، قسم لأشعار أهل الشام وما يجاورها وقسم لأشعار أهل العراق وقسم في محاسن أشعار أهل الجبل والقسم الرابع في محاسن أهل خراسان وما وراء النهر ، وهذا الاحتذاء السافر يتضمن اعتراف ابن بسام بمنهج أستاذه لأن الثعالبي كما نقل صاحب الوفيات عنه حـ ١ ص ٥٢١ .

«كان في وقته راعي تلعات العلم ، وجامع أشتات النثر والنظم ، ورأس المؤلفين في زمانه وإمام المصنفين بحكم أقرانه ، سار ذكره سير المثل ، وضربت إليه آباط الإبل ، وطلعت دواوينه في المشارق والمغارب طلوع النجم في الغياهب» هذا الاحتذاء المقصود دفع المعاصرين من باحثينا الأفاضل إلى موازنات مختلفة بين الرجلين فالدكتور طه حسين يقول في

مقدمة الذخيرة الجزء الأول ١ — ص ب « وهو يصطنع ما اصطنعه الثعالبي من السجع والتأنق في تقديم الشعراء والكتاب والتعريف بهم والثناء عليهم والنقد لهم ، ولكنه بعد هذا كله يخالف الثعالبي في أمر ذي خطر ، فهو أبعد منه نظراً ، وأنفذ منه بصيرة وأعمق تفكيراً ، وهو على تكلفه في اللفظ لا يخدع بالرواء الظاهر عما وراءه من جودة المعنى أو رداءته ومن صواب التفكير أو خطئه ولعله أن يكون أفقه من الثعالبي بالحياة الأدبية في إقليم من الأقاليم ، فهو أدق منه ملاحظة لما يكون من الصلة القوية بين طبيعة الاقليم ، وما ينتج فيه من أدب بل بين طبيعة الأجناس البشرية وما تنتج من أدب بل بين ما يكون من مجاورة الأمم المختلفة وما تنتج من الأدب الخ» .

والأستاذ على أدهم يقولُ في العدد ٦٦٠ من الثقافة : ويبدو لي أن الثعالبي كان على فضله وسعة اطلاعه أكثر خضوعاً لأحكام القدماء من ابن بسّام وأنه كثيراً ما يخدعه البهرج ويحسب الشحمِ فيمن شحمه ورم ، أما ابن بسام فإنه نافذ النظر ، سليم الذوق بارع الناقدة دقيق الملاحظة ، لا يخدعه الطلاء المموه ، ولا تضل تفكيره الألفاظ الضخمة المدوية أو الطنطنة العالية » .

ومن يقرأ الذخيرة يعرف أن مؤلفها يعلم كل العلم موقفه من صاحب اليتيمة ، فهو على اعترافه بمتابعته يعلن أنه خالفه في أمرين جوهريين ، الأول ما أفاض فيه ابن بسّام حين قال : المجلد الأول — القسم الأول ص ٢٣ .

وقد وعدت في صدر هذا الكتاب بأن أتخلل أشعار الشعراء ورسائل الكتاب والوزراء بما عسى أن يتعلق بأذيالها ، ويساير أفياء ظلالها ، من أنباء فتن ذلك الزمان البعيد — كان — طلقها ، المفرق لشمل الأمر في هذه الجزيرة نسقها ، ونلمع بنبذ من مشهور وقائعها ونشير بأسماء طوائف زوابعها وتوابعها ، ليجمع هذا المجموع بين الشعر والخبر ، جمع الروضة بين الماء والزهر والزمان بين الأصائل والبكر ، فإني رأيت أكثر ما ذكر الثعالبي من ذلك في يتيمته محذوفاً من أخبار قائليه ، مبتوراً من الأسباب التي وصلت

به وقيلت فيه فأمل قاريء كتابه منحاه وأحوجه إلى طلب ما أغفله من ذلك في سواه » .

فهو ينعي على الثعالبي إغفال الحوادث والتواريخ ثم ينعي عليه مرة أُخرى ذكر الفاحش من الأهاجي والماجن من القول فيقول بالقسم الثاني من المجلد الأول ص ٦٢ .

« والقسم الثاني هو السباب الذي أحدثه جرير وطبقته وكان يقول إذا هجوتم فأضحكوا ، وهذا النوع منه لم يهدم قط بيتاً ، ولا غيرت به قبيلة ، وهو الذي صُنّا هذا المجموع عنه وأعفيناه أن يكون فيه شيء منه ، فإن أبا منصور الثعالبي كتب منه في يتيمته ما شانه وسمه ، وبقي عليـــه اثمه » .

ونسأل بعـــد ذلك : هل تقيد ابن بسام بمنهجه ! أما الذي يعرفه قاريء الذخيرة – ما نشر منها – فهو أنه لم يقدر على الإحاطة بالتواريخ والأخبار جميعها ، ولكنه بذل الجهد المستطاع ، وبقى ما بقي مما يتطلب البحث الجديد ، كما أن قاريء الذخيرة يعرف أن ابن بسام ترخص في ذكر بعض الماجن من القول رغم حملته على الثعالبي ! بل العجيب أنه قبل هذه الحملة بصحيفتين فقط من ٦١ يذكر أبياتاً قذرة يقول أنها من الكنايات المليحة التي تعرض بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ! وكأن له عنها محيد !

على أن ابن بسام مع هذا لا يقارن بمعاصره الفتح بن خاقان بحال ، مهما اضطرت معاصرتهما كثيراً من النقاد إلى هذه المقارنة ! وأن عظم تأثرهما معاً باليتيمة ويكفى أن نلخص السبب في جملة واحدة هي أن ابن بسام جاد والفتح هازل ، فليس إلى التقائهما من سبيل ! .

ومن المفيد أن نوضح وجهة نظرنا في ذلك ، فننظر إليهما رجلين وأديبين ، لنرى الفتح يندفع في استهتاره إلى ما يشين ! ثم يتطاول على الناس بالحق وبالباطل معاً ، وهو حين عمد إلى التأليف لم يصدر عن رغبة في اجتلاء حقائق الأدب والتاريخ ، ولكن اتخذ قلمه وسيلة للتكسب المقيت !

فهو يرسل إلى أدباء عصره ومشهوري مصره يحدثهم عن رغبته في تأليف كتاب أدبي يتحدث عنهم ، ويلتمس ما لديهم من الشعر والنثر ثم ينتظر ما يجيء ، فإن كان الرد مصحوباً بالبدر الثمينة والهدايا النفيسة أطلق أرسان المديح إلى أبعد الأشواط ، ، وإن تقاعس عنه ذو الشمم ممن يأنفون أن يكونوا لعبة في يد لاعب أو يترفعون أن يشتروا المدح الزائف بمال مقرر مفروض ! فإن الفتح يشويهم بسياطه ويستعدى عليهم الحكام والناس ، ويصدر في كل ذلك عن ذوق مريض ! لقـــد أرسل إلى الوزير الفيلسوف النابغة أبي بكر بن الصائغ المعروف بابن باجه يسأله بعض أشعاره مع ما يطمع فيه من المـــال ، فما التفت إلى دعوته ، ورأى فيه وصولياً يبتز المال من طريق بغيض ! ومثل ابن باجه لا يتأتى له أن يقدر سلوك الفتح وأدبه معاً فهو في الأول متسول محترف ، مع ما عرف عنه من العربدة واصطحاب السفلة وغشيان الريب ، وهو في الثاني ينمّق أسجاعاً فارغة لا يراها الفيلسوف تهدف إلى جلاء حقيقة مطموسة أو تساعد على فهم ظاهرة مستعصية ! فما الذي يجذبه إليه مع هذه القبائح ! لقـــد عزّ على الفتح أن يهمل ويغفل فكتب في القلائد فصلا عن الفيلسوف أملاه الحقد والضغينة والثأر قال في مقدمته (١) « هو رمد عين الدين ، وكمد نفوس المهتدين اشتهر سخفاً ومجوناً وترك مفروضاً ومسنوناً فما يتشرع ، وما يأخذ في غير الأضاليل وما يشرع ، ناهيك من رجل ما تطهر من جنابة ، ولا أظهر مخـــيلة أنابة ، ولا استنجى من حدث ، ولا أشجى فؤاده بتوار في جدث ولا أقر بباريه ومصوره ولا فردٌ يباريه في ميدان تهوره ، الإساءة لديه أجدى من الإحسان ، والبهيمة عنده أهدى من الإنسان ، نظر في تلك التعاليم ، وفكر في أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ورفض كتاب الله الحكيم واقتصر على الهيئة ، وحكم للكواكب بالتدبير ، واجترأ عند سماع النهي الإيعاد واستهزأ بقوله تعالى : « إن الذي فرض عليك القرآن لرادُّكَ إلى ميعـــاد » .

---

(١) قلائد العقيان ص ٩٢ م هندية .

لو كان الفتح يعتقد ذلك في ابن ماجه عن صدق وإخلاص لوجد العذر من الناس في تسجيل ما سطر ، وافق الحق أو جافاه ، ولكنه كشف نفسه حين تراجع الوزير عن موقفه منه كفّاً لشرّه فنفحه ببعض المال ، فأطفأ جذوة غضبه ، واندفع إلى كتابة جديدة ملأها بالثناء الحافل ، ولم يدّخر وسعاً في تنسيق صفحة مضادة للأولى في كتابه مطمح الأنفس (١) يقول فيهـــا عنه :

« نور فهم ساطع ، وبرهان علم لكل حجة قاطع ، تتوجت بعصره الأعصار ، وتأرجت من طيب ذكره الأمصار ، وقام وزن المعارف واعتدل ومال للأفهام فنناً وتهدل ، إذا قدح زند فهمه أورى بشرر للجهل محرق ، وإن طما بحر خاطره فهو لكل شيء مغرق ، مع نزاهة النفس وصونها ، وبعد الفساد من كونها ، والتحقيق الذي هو للإيمان شـــقيق ، والجد الذي يخلق العمر وهو مستجد ، وله أدب يود عطارد أن يلتحفه ، ومذهب يتمنى المشتري أن يعرفه ، ونظم تعشقه اللبات والنحور ، وتدعيه مع نفاسة جوهرها البحور » .

هذان نصّان متعارضان يكشفان عن معدن الرجل ! وهما أيضاً يكشفان عن خصائص أدبه ، ولا يشرفانه في مجال الموازنة بينه وبين معاصره ابن بسام إذ أن صاحب الذخيرة قد تجافى عن بعض أخطاء يتيمة الدهر حين حاول تقييد الحوادث وتسجيل التواريخ ما استطاع ! ! أما الفتح فقد فهم بتأثير اليتمة من ناحية وطبيعة الجو السائد من ناحية ثانية أن الكتابة معارض ألفاظ ، ومتاحف أسجاع ، وتطبيقات مدرسية للجناس والطباق والتورية ! أما أن تكشف عن حقيقة ، أو توضح فكرة ، فهذا ما لا يبتغيه الفتح أو يعتقده ! ومع هذا فقد وجد من الأدباء من يقبلون تنميقه ، ويرتضون تلفيقه ، فلسان الدين بن الخطيب يقول عنه : « كان آية من آيات البلاغة لا يشق غباره ولا يدرك شأوه ، عذب الألفاظ ناصعها ، أصيل المعاني وثيقها ، لعوباً

---

(١) مطمح الأنفس ٤٢ ط هندية .

بأطراف الكلام ، معجزاً في باب الحلي والصفات » وابن سعيد يقول في المغرب عنه : الدهر من رواة قلائده وحملة فرائده ، طلع من الأفق الأشبيلي شمساً طبق الآفاق ضياؤها ، وعم المشرق والمغرب سناها وسناؤها وكان في الأدب أرفع الأعلاموحسنة الأيام . . . وهو وأبو الحسن بن بسام صاحب الذخيرة فارساً هذا الأوان ، وكلاهما قس وسحبان ، إلا أن ابن بسام أكثر تقييداً ، وعلماً مفيداً ، وإطناباً في الأخبار ، وإمتاعاً في الأسماع والأبصار ، والفتح أقدر على البلاغة من غير تكلف ، وكلامه أكثر تعلقاً وتعشقاً بالأنفس ! » .

ويزول العجب من هذين القولين حين نعرف أن لسان الدين بن الخطيب وابن سعيد المغربي كليهما من تلاميذ الثعالبي وهواة اليتيمة ! وخطتهما في التأليف ترتضي الاكثار من القول والمباهاة بالزركشة اللفظية والزخرفة البديعية ! وذلك داء العصر ومنحاه ، فلا غرو أن هاما بأسلوب الفتح بن خاقان ! ولو رجع بهما الزمن إلى هذا العصر لسمعا الدكتور أحمد أمين يقول عن صاحب القلائد في ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٨٣ .

وأسلوب الذخيرة أقرب إلى نفوسنا فهو لا يلتزم السجع كما يفعل ابن خاقان ، وأسلوب الفتح هذا أجوف يلعب بالألفاظ والاستعارات لعب البهلوان ! ! » .

لقد شغلت منذ أعوام بدراسة الفلسفة الإسلامية بالأندلس ، فطالعت نبذاً من آراء ابن باجه وابن طفيل وابن رشد ، وعرفت أن هناك فيلسوفاً آخر هو الفضل بن شرف ، فحاولت أن أقف على سيرته ، وطفقت أبحث عنه في كتب التراجم ، حتى عثرت على قول الفتح .

« الناظم الناثر ، الكثير المعالي والمآثر ، الذي لا يدرك باعه ، ولا يترك اقتفاؤه واتباعه ، أن نثر رأيت بحراً يزخر ، وأن نظم قلد الأجياد دراً تباهي به وتفخر ، وأن تكلم في علوم الأوائل بهرج الأذهان والألباب ،

وولج منها في كل باب ، وقد كان أول ما نجم بالأندلس وظهر ، وعرف بحوك القريض واشتهر ، تسدد إليه السهام ، وتنتقده الخواطر والأوهام فلا يصاب له غرض ولا يوجد في جوهر إحسانه عرض ، وهو اليوم بدر هذه الآفاق ، وموقف الاختلاف والاتفاق ، مع جرى في ميدان الطب إلى منتهاه ، وتصرف بين سماكه وسهاه ، وتصانيف في الحكم ألف منها ما ألف ، وتقدم فيها وماتخلف ، فمنها كتابه المسمى « يسر البر » ومنها الكتاب الملقب بنجح النصح ، وسواها ، من تصانيف اشتمل عليها الأوان وحواها » . هذا كل ما قاله الفتح ، وقد أخذت أضرب كفاً بكف بعد قراءته ، وأسأل نفسي ما ذا قدم لي المؤرخ الكبير غير بديع وأســـجاع وزركشة وابتداع ! وكان مما أسعدني أن أجد الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي صاحب مجلة البيان رحمه الله يحار مع الفتح حيرتي ، وينشر مقالا بالرسالة (١٤٩) سنة ١٩٣٦ يقول فيه بعد أن نقل كلام الفتح : « وقد جرى الفتح في هذه الترجمة على شنشنته في سائر تراجمه ، فلم يذكر اسم المترجم له ولا اسم أبيه ولا منشأه فضلا عن أنه أغفل تاريخ مولده ووفاته ، وكذلك لم نر لغير الفتح ترجمة لهذا الأديب الكبير يصح أن تسمى ترجمة يعوّل عليهـــا » .

تأصلت إذن طريقة اليتيمة في المؤلفات الأندلسية ، احتذاها الفتح شبراً بشبر ، ووقع في بعض أخطائها ابن بسام ولولا تشبعه بمؤلفات ابن حيان لجعلها هو الآخر مثالا يحتذيه أما الحجاري وابن سعيد والمراكشي وابن الخطيب والمقري ، وأما أضرابهم من مؤرخي عصر الطوائف وما يليه فقد أصابهم من تأثيرها الساحر ما لا نزال نرى عقابيله فيما نقرأ لهم من التصانيف ولم يقتصر نمط اليتيمة على الأفق الأندلسي وحده ، ولكن بريقه الساطع قد جذب إليه مترجمي المشارقة ممن فتنوا به ، ونسجوا على منواله ، لقد حاول أبو منصور أن يجعل اليتيمة بأجزائها الأربعة ذيلا لكتاب البارع في أخبار الشعراء الذي تقدم به هرون بن علي بن المنجم المتوفي ٢٢٨ ه ، ثم جاء من بعد الثعالبي أبو الحسن علي بن الحسن الباخرزي المتوفي سنة ٤٦٧ ه ،

وألف كتابه دمية القصر ، وقد جعله ذيلا لليتيمة نهج به نهجه ، وقلد عبارته وأسجاعه ثم جاء أبو المعالي سعد بن علي الوراق الحطيري المتوفي ٥٦٨ ه وصنف كتاب (زينة الدهر) جاعلا إياه ذيلا على كتاب الباخرزي دمية القصر ثم ظهر الكاتب الأشهر العماد الاصفهاني المتوفي سنة ٥٩٧ ه فأصدر جريدة القصر وجريدة أهل العصر . . . وكل هذه الذيول المطولة تنهل من مورد الثعالبي ، وتنهج نهجه ! ! وهي بعد مشرقية لا أندلسية ! ثم توالت المؤلفات التاريخية تحمل الطابع البديعي وكأن العصر المملوكي في الشرق وعصور الزوال بالأندلس قد استطابت هذا اللون وارتضته عن اجماع لا يخرج عنه إلا كاتب عبقري كابن خلدون ! !

كان أبو منصور الثعالبي يبذل جهده الحافل في جمع الأشعار البعيدة وسؤال من يلقاهم عمن يعرفون من الشعراء ، وإذا صادف أديباً مصرياً أو أندلسياً أو فارسياً فرح به وأخذ ينقل عنه ما يروى ، وأنت تقرأ بعض تراجمه للشعراء ، فتجده لا يكاد يعرف عن الشاعر شيئاً إلا ما سمع من أشعار ، فيضطر اضطراراً أن يكتب له ترجمة إنشائية تنحو منحى المقامات ، وتصلح لكل شاعر ينظم الشعر ، كما تباع الملابس في المحلات التجارية ، ليشتري منها الآباء لأبنائهم غيباً ما يخالونه يتناسب ، وقد يلبس الابن حلّته المشتراه فإذا بها ليست مما يصلح له ، ولكنه مضطر إلى ارتدائها ، كما اضطر القاريء أن يقبل تراجم الثعالبي للشعراء في اليتيمة وإن لم تبرز قسماتهم وشياتهم على اتضاح ، والحق أن صاحب اليتيمة بذل طاقة قوية في حفظ تراث الشعراء من بني عصره ، ولولاه ما استطعنا أن نعرف شيئاً عن أكثر من روى لهم من الشعراء لأن المغمورين لديه أضعاف أضعاف المشتهرين ! ولكن طريقته في السؤال عن الأدباء واستهدائهم بعض أشعارهم قد انتقلت إلى من بعده ، فكان ابن بسام يكتب لأدباء زمانه طالباً نماذج قوية من أشعارهم ليضمها إلى الذخيرة ، فيفد إليه ما يريد ! وكل مسئول لا محالة يهدي من قوله أطيب ما يستحسن في رأيه ، وهذا حسن إذا جاء الأمر من بابه ، ولكنه انقلب تسولاً شائناً على يد الفتح بن خاقان بل صار أداة ارهاب وهجو

وإستعداء ، وأذكر أن الطيب الذائع والفيلسوف الماهر أبا العلاء زهر لم يقبل أن يجيبه على شيء ، فكتب الفتح رسالة فاحشة في ثلبة وتقدم بها إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن ناشفين ، محاولا أن يتهمه بالالحاد والمروق ، كما أن طريقة الثعالبي في الاعتماد على الوافدين غير مأمونة فقد يروى أديب للشاعر ما ليس له عن قصد وعن غير قصد ! ولا بد أنتكون هناك نماذج كثيرة في اليتيمة والدمية والخريدة والذخيرة والقلائد والمطمح ليست لأصحابها على وجه التأكيد ! ! مهما يكن من شي ء فنحن في معرض أنصاف الثعالبي نقرر أنه بذل أقصى ما يستطيع ، وأن هيامه بالأدب قد دفعه إلى تشييد معقل قوي من معاقله حفظ جانباً من تراث القرنين الرابع والخامس معاً ! أما قصور تراجمه وتراجم من بعده عن أن تقدم التاريخ الحي في أكثر ماديج ، فيواجهنا بمهمة خطيرة ، إذ ينبغي أن يحرص ناشروا هذه المجلدات من علمائنا المحققين على استيفاء النقص ما أمكن ، فلا بد — أن صدق الناشر المحقق في إخراجه ، أن يضع في هامش كل ترجمة ما يصل إليه جهده الباحث من أخبار صاحبها ذاكراً ما وقف عليه من المراجع والمصادر ! ! فإذا اتجه أصلا المحققين من الناشرين هذه الوجهة فلا بد أنهم سيجدون الجيد المفيد ! ولك أن تتصور معي اليتيمة والجريدة وأضرابهما وقد عولجت هذا العلاج ، فأكملت ما تيسر من النقص ! وأصبحت مرجعاً أدبياً وتاريخياً معاً ! ومن المحقق أن بعض من ترجم لهم في هذه الموسوعات لا نجد من المصادر المعاصرة ما يمدنا عنهم بشيء ولكن من المحقق أيضاً أن كثيراً من هؤلاء قد كتب عنهم فهم يتطلبون عنايه المحقق واهتمامه ، إن كان كفئاً لعمله إذ من المقرر أن يضطلع بالنشر بحاثة متمرس ضليع قرّاء ، أما الذين يكتفون بالنشر الخاطف فهم وراقون !

لقد نشر الأستاذ الجليل أحمد يوسف نجاتي رحمه الله تسعة أجزاء من كتاب نفح الطيب عن دار المأمون قام بتحقيقها واستيفاء النقص فيما ورد من تراجمه ، فلم تتكاءده عقبه ما في طريقه بل كان اطلاعه الثاقب الشامل — وإن أسرف أحياناً — يمده بجميع ما يريد ، ولو صدق محققو التراث الأدبي صدق الأستاذ نجاتي لتلافوا النقص ، وقوّموا المائل ، ومهدوا الطريق . . . .

مدى الأصالة في شعر الطبيعة بالأندلس

كان من المسلمات البدهية لدينا في عهد التلمذة بالمدرسة الثانوية والكلية الجامعية معاً أن الشعر الأندلسي قد برع في وصف الطبيعة براعة لا يقاس بها غيره ، وأن جمال الأندلس بجبالها الخضر وسهولها اليانعة وجداولها المترقرقة ، ورياضها المخضلة وترفها الناعم المريح كل ذلك قد ألهم الشعراء ما لم يلهم به بلد آخر من بلاد العربية في المشرق ! ثم مضت بنا الأيام على هذا الاعتقاد ، ونحن نقرأ ما لدينا من شعر الطبيعة بالشام والعراق وغيرهما فنجده لا يقل براعة عن شعر الأندلس ! ثم نعود الكرة إلى شعر الطبيعة بالأندلس فنعجب بكثرته النسبية ، ولكننا نتساءل أي إعجاز مكين قد ارتفع به عن شعر الشرق في نظر الباحثين فلا نكاد نجد من القلائد المعجزة ما يطمئننا إلى ما نشأنا عليه في أزمنة الدراسة ! ! أيكون لدى هؤلاء المؤلفين من مدرسين وجامعيين ما ليس لدينا من النصوص ! هل عندهم من مخطوطات الأندلس ما يملكون الفصل به في قضية لا يتيسر لنا الحكم فيها على وجهها الصحيح ! ! ولكنهم حين يستشهدون على براعة الأندلس البارعة في الشعر الطبيعي ، لا يأتون لنا بما نجهل من القصائد !

فأشعارهم المختارة شائعة ذائعة ، ونحن قد أطلنا الوقوف أمامها إطالة مغرقة فلم ترتفع بنا عن أرض الشرق إلى سماء ذات صور وتهاويل ! ! أيكون الفرق بين شعر الطبيعة في الإقليمين ضئيلا محدوداً كما نراه ويكون هؤلاء الدارسون الأفاضل قد وقعوا تحت تأثير استنتاج مخطيء أتى به باحث متقدم فتلاه اللاحقون ! لقد مكثنا نتردد في الجزم بقول فاصل ، حتى وجدنا أستاذنا الدكتور أحمد أمين ينشر بحوثه المعروفة بمجلة الثقافة سنة ١٩٣٩ عن جناية الشعر الجاهلي على الأدب العربي فيتعرض لشعر الطبيعة بالأندلس كي يقول فيه : (عن الجزء الثاني من فيض الخاطر ص ٢٥٨ إذ جمعت به هذه المقالات) .

« لقـــد كانت بالأندلس أغنى بقاع المسلمين منظراً ، وأوفرها جمالا ، أبدعها الخالق أيما إبداع ، وصاغها خير صياغة ، ولونها أجمل الألوان ، فلا يستطيع من يراها إلا أن يغني ، ولا من شاهدها إلا أن تفتنه ، ومن الحق أن شعراءها غنوا أكثر من غيرهم ، وتفننوا في ذكر محاسن الطبيعة أيما تفنن ، ونبغ فيهم أمثال ابن خفاجة الملقب بشاعر الطبيعة ، ولكني لا أكتم القاريء أني قرأت كثيراً من شعره ، وشعر غيره من الأندلسيين ، فكان شعوري نحوهم أنهم أجادوا الصياغة ولم يوفقوا أن ينفخوا الروح ، شعرهم تمثـــال بديع لا حياة فيه إلا في القليل النادر ، شعرهم من رأسهم لا من قلبهم ، أكثر جهدهم موجه إلى البحث عن تشبيه رائع ، واستعارة بديعة تعجب علماء البيان لا نتيجة شعور يتدفق ، يريد أن يحتضن الطبيعة لجمالها ، ولا هو صرخة إعجاب خرجت من أعمال القلب في بساطة فطرية ، ولا هو تمجيد للجمال ولا هو إحساس من الشاعر باندماج الطبيعة في نفسه واندماج نفسه في الطبيعة حتى كأنه هو وهي أو هي وهو وحدة لا انفصام لها ، كلا ، ولا هو شعور بحياة الطبيعة وقوة نبضها كما ينبض القلب ، ولا هو شعور الظمآن يريد أن يرتوي ولا يرويه إلا جمال الطبيعة ثم هو يعل منه وينهل ، وكلما عب ازداد لذة وازداد ظمأ .

لاشيء من ذلك ! وإن عثرنا منه على شي ء فهو القليل النـــادر الذي لا يروي ظمأ إنما أكثره من قبيل الخيال المصطنع يتعمق فيه الشاعر ، ليظفر باستعارة أو يسبح في الآفاق ليأتي ببعض المحسنات البديعية » .

صادف كلام الدكتور أحمد أمين في حينه هوى لدى نفسي ، ولكن نفراً من كبار الباحثين قد تصدوا لمعارضته فحاولوا أن ينقضوا وجهات كثيرة من أنظاره المختلفة ، وقد تعرض الدكتوران عبد الوهاب عزام بالثقافة وزكي مبارك بالرسالة للتعقيب على آرائه في الأدب بعامة ومن بينها ما يتصل بشعر الطبيعة الأندلسي ، وننقل هنا طرفاً مما قاله الدكتور زكي مبارك ، لنستطيع بعد ذلك أن ننصف شعر الطبيعة الأندلسي على ضوء الاختلاف المتباعد يميناً وشمالاً في الآراء .

قال الدكتور زكي — عن مجلة الرسالة العدد ٣١٩ سنة ١٩٣٩ :

« هل من الحق أن الأندلسيين لم يحسوا الطبيعة ولم يتذوقوها ، كما قال أحمد أمين ! إن المعروف عند جميع أدباء اللغة العربية أن الأندلسيين تفوقوا في وصف الطبيعة فكيف تفرد أحمد أمين بنكران ذلك ؟ أيكون أعلم الناس بالأدب ولا نعرف ! هذا والله أعجب العجب . . ! . . . إن الأدب الأندلسي قد تعرض للضياع منذ أجيال فلو قلنا أن ذلك الأدب ضاع منه أكثر من تسعة أعشاره لما بعدنا عن الصواب ، ومع ذلك بقيت آثاره تشهد بأن العرب في الأندلس أحسوا الطبيعة والوجود إحساساً قليل النظائر والأمثـــال !

معاذ الأدب أن نفهم الطبيعة كما يفهمها أحمد أمين فنظنها مقصورة على الشجرة والزهرة ، إنمـــا الطبيعة كتاب الوجود بما فيه من حجر ومدر وشجر ونبات وماء وجماد والطبيعة الشاملة تظهر بعظموتها وجبروتها ممثلة ناطقة في أكثر ما كتب الأندلسيون ولو شئت لقلت أنهم بالغوا في ذلك حتى قاربو الاسفاف ، فهل كانوا يعملون من وراء الغيب أن سيجيء في أواخر الزمان من يتهمهم بالغفلة عن تذوق الطبيعة والوجود » ! ثم أخذ الدكتور يستشهدبأبيات أندلسية في الطبيعة لا نظنها بعدت عن مثل الدكتور أحمد أمين ، فهي من الذيوع والسيرورة بحيث يعرفها أكثر القراء ! ولكن اختلاف الرأي بين الباحثين الكبيرين قد نشأ من نقطة واحدة ، هي ما ينبغي أن يتسم به شعر الطبيعة في الأدب العربي ! وبإيضاح هذه النقطة الهامة ينكشف مقطع الرأي دون نزاع !

قرأ الدكتور أحمد أمين نماذج كثيرة للشعر الأوربي في الطبيعة ، فرأي أن أكثر المناظر الطبيعية في الغرب لدى شعرائه الكبار توحي بمعان رائعة في وحدة الوجود وتناسقه ، وتلهم أفكاراً حية عن الزمان والمكان والحب والخلود والماضي والحاضر والأزل والأبد ، فالشلالات المنحدرة في تدفق ، والبحر الممتد في سعة وعمق ، والغاباتُ ذاتُ الشجر الملتف

والطير المغرد والجبال المتوجة بالثلوج كل أولئك مما يلهب خيال الشاعر الأوربي فيقبس منها بوارق الإبداع ويخلع عليها من ذات نفسه فيراها ذوات أرواح وأصداء وأصوات ويتخيل لهـا تاريخاً حافلا يمتلىء بالفرح والألم والنشوة والحسرة والصعود والهبوط والتقيد والانطلاق ، كما أن الشعر العربي يقف عند المعنى الجزئي ، فإذا وصف طائراً أو زهرة ، جعل يترصد ألوان التشبيه ومناحيه في الرأس والجناح والريش لدى الطائر وفي الكم والأريج واللون والورق لدى الزهرة ، مكتفياً بذلك عما يفيض فيه الشاعر الأوربي من الاهتمام بالجوهر الكلي والاطار الشامل مظهراً فلسفة الفكرة آنـاً ورقة الهمس والحنين آناً آخر مما يفاجيء القاريء بإحساس جديد تمور به نفسه دون أن نرهق فكره بمختلف التشبيهات الذهنية! والتحاسين اللفظية التي نجد كثيراً منها في الشعر العربي ! هذا إلى أن شعر الطبيعة في الأدب العربي، مشرقاً وأندلسـاً – لا تنفرد فيه الطبيعة بالموضوع غالباً ، فهي تأتي في قصيدة المدح أو الرثاء أو الغزل استطراداً ، فالشـاعر ينظر إليها معجلا فيلم ببضعة أبيات ثم ينتقل إلى ما يريد ! فوصف أبي تمام للربيع في قصيدته الشهيرة :

رقت حواشي الدهـر فهي تمرمر ... وغـدا الثرى في حلبـة يتسكر
نزلت مقدمة المصيف حميـدة ... ويد الشتاء جـديدة لا تنكـر

وأبيات ابن الرومي :

حيتك عنا شمال طاف ريقهـا ... بجنـة نعمت روحاً وريحـانـا
هبت سحيراً فناجى الغصن صاحبه ... سرا بها وتداعى الطـير إعلانـا

كل ذلك وعشرات من أمثالها جاء في قصائد المديح عرضاً ومثله في الأندلس كثير من شعر أبن هانيء وابن حمد يس وابن زيدون ! أما أن تكون الطبيعة ذات استقلال خاص بالقول فهو ما لم يظهر بكثرة كاثرة إلا عند بعض الشعراء في البلاط الحمداني كالصنوبري والنامي وكشاجم والسرى الرفاء ! وهو بعد لا يتجاوز الأبيات القليلة فليس يصدر عن نفس

جياش متدفق يرسل القول إرسالا كما ينحدر الماء من أعلى الجبل إلى منحدر السفح ! أما الشعر الغربي فالطبيعة ذات حيز كبير مستقل نري من الاهتمام بها لدى الشعراء ما يوحي بعظم تأثيرها الخالب ! حتى أن شعراء الملاحم وشعراء المسرح لا يعفون آثارهم الرائعة من الوصف الطبيعي ، ويرون في الافتتان بالطبيعة ما يضفي على الملحمة البطولية والمسرحية التمثيلية بهجة ومتعة ! مع اتساع الشعر الغنائي لتصويرها والافتنان بجمالها كل الافتتان ! وهذا ما يطلبه الدكتور أحمد أمين في الأدب العربي فلا يجده ، وكأن يأمل أن يرى في أدب الأندلس ما يشير إليه ، إن عز أن يجد ما يشابهه ، فلم يقع على شي ء ! وهذا ما دعاه إلى نقد الأندلسيين .

أما الدكتور مبارك فلا يريد أن يخلط الأدب العربي بغيره ! فإذا كان شعراء الأندلس قد أكثروا القول في شعر الطبيعة فقد قاموا بجهدهم المشكور وزاحموا المشارقة وربما تفوقوا عليهم في الكثرة الكمية ! وهذا وحده ما يجيز للدكتور أن يباهي بما قالوه ! وأن يعنف في نقد الأستاذ أحمد أمين عنفاً كان الأجدر ألا يكون !

على أننا بعد ذلك نتجه إلى صميم الموضوع فنسأل أكان شعر الطبيعة في الأدب الأندلسي موازياً لأخيه المشرقي في القيمة الفنية لم يكد يزيد عنه شيئاً أم أنه احتذاه بدءًا ثم استطاع أن يسير في طريق التقدم الابتكاري خطوات وئيدة ؟ وإذا فعل ذلك فإلى أي أمد سار ، إننا إذ نجيب عن هذا السؤال إنما نقدم للقاريء ما يفيد !

من الخطأ الذي يقع فيه أرباب الموازنات بين الأدبين أنهم يجعلون جميع ما قاله المشارقة يقف أمام ما قاله الأندلسيون ! ونسوا بذلك شيئاً واضحاً هو أن عمر الأندلس الأدبي أقل بكثير من عمر المشرق ! فالأدب الجاهلي مثلا أدب مشرقي وأدب صدر الإسلام وعصر بني أُمية أدب مشرقي وأدب السنين الأولى لعهد بني العباس أدب مشرقي أيضاً ولكنها كلها لا تدخل في باب الموازنة ! لأمر واضح هو أن أدب الأندلس إلى أوائل

عهد بني العباس لم يكد يولد بعد ! وعلى ذلك فهو حفيد لما تقدمه من آداب هذه العصور ، وإذا أردنا أن نقيم موازنة بينه وبين أدب مشرقي فلتكن الموازنة مع أدب حفيد مماثل أم الآداب السابقة فهي آباء وأجداد للأدبين معاً ، ولا يليق في باب الموازنة العادلة أن يذهب بفخر هذا الميراث الحفيل حفيد دون حفيد ، فإذا كان لدينا من جدة متأصلة في شعر الطبيعة جاهلياً وأموياً فهي مما لا يندرج في حساب أحد ! وإنمـــا الذي نسأل عنه إذ ذاك هل نمت هذه الجدة في أدب ما فواصلت سيرها المنتظر أو أن الجمود قد وقف بها دون الاطراد في هذه الدائرة المحددة نسير !

وإذا كان من المتعارف عليه إصطلاحياً — ولا مشاحة في الاصطلاح — أن أدب الطبيعة يشمل الطبيعة الحية كالحيوان والطير والطبيعة الصامتة كالنبات والجبال والحدائق والغابات والبحار والسماوات أو بعبارة أخرى يشمل ما سوى الإنسان مما يرتسم في صفحة الحياة ! فإننا حين نتصفح الشعر العربي نجده في عصري الجاهلية والإسلام قد اهتم بالطبيعة الحية أكثر من اهتمامه بها فيما بعد ! ! فتحدث الشعر الجاهلي حديثاً مطيلاً عن حيوانات البادية من ناقة وفرس وذئب وكلب ! وشاركه الأدب الأموي اهتمامه بحيوان البيئة وطيرها ، وإن قل الحديث عن هذه الطبيعة الحية نسبياً في الأدبين الأندلسي والعباسي معاً ! ! ويجب أن نفرق هنا بين نوعين من الشعر في الطبيعة الحية ! ! النوع الأول وهو ما يعرف بالوصف ، ذلك الذي يقف عند الأعضاء والملامح والأجزاء فيصورها تصويراً جزئياً حسياً ! وهو موفور كثير في كل أدب ! حتى في آداب عصور التدهور والانحطاط على نسبة بين الجودة والرداءة ! أما النوع الثاني وهو الذي يبعد عن الوصف الحسي إلى الحديث عن الخواطر والشجون لدى الطير والحيوان ! فقد بدأت ظواهره في الأدبين الجاهلي والأموي ، وكان الظن بها أن تنمو في الأدبين العباسي والأندلسي ولكنها تحجرت أو كادت في الطبيعة الحية ! واكتفى الشعراء برسم الظواهر الحسية مما يقف عنده البصر وحده وهو مما عيب على الأدب العربي بعامة ! والحق أن الشاعر الجاهلي كان أصدق فطرة وأخلص

طبيعة من ذوي الثقافات البيانية والتوليدات الذهنية في عصور الصنعة والاحتفاء ! أن الشنفري مثلا يصاحب الوحش في البيداء بروح إنسانية ، ويقول عن أصدقائه من العجماوات « هم الأهل لا مستودع السر عندهم بذائع » ثم تأخذه الرحمة بالذئب فيتابعه حين يلتمس القوت فلا يجده ، وإذ ذاك يعوي فتخف إليه الذئاب عاديات مسعدات فإذا أقمن المناحة ورأين عدم جدواها في الشبع والري لجأن إلى الصبر والاستسلام ! كم كان جميلا من الشنفري أن يتابع هذه المخلوقات الجائعة ثم يتعاطف معها فيقول :

فلما لواه القوت من حيث أمــه ... دعا فأجابتــه نظــائر هــزل

فضج وضجت بالبراح كأنهــا ... وإياه نوح فوق عليــاء ثكـــل

عوى وعوت ثم ارعوى بعدوارعوت ... وللصبرأن لم يسعف الشجو أجمل(١)

ثم نجد هذا التعاطف يتقدم خطوات أخرى في العصر الأموي إذ يركب الأعرابي ناقته فيسمعها تحن ، ولم تسر بعد كثيراً حتى تتعب ، فيدرك أنها تعالج من الشوق ما يعالج ، ويراها غريبة مثله فلا بد أن يسعد الغريب الغريب ! ثم ينقلب هذا التعاطف بين الإنسان والحيوان إلى إيثار يصدر عن محبة وإخلاص ، فيود الأعرابي لو خلص قلبه من الشوق ، فيهديه إلى ناقته ليساعدها على الحنين ! ولله هذا الإيثار السمح وهذا الشعور الرائع يجيش به بدوي فطري فيسامي أعظم شعراء الوجدان حين يقول :

دع المطايــا تنســم الجنوبــا

إن لهــا لنبــأ عجيبـــاً . . !

حنينهــا وما اشتكت لغوبـــا

يشهد أن قد فارقت حبيبـــا

---

(١) لعل الشنفري يذكرنا بتعاطف عنترة حين يقول عن جواده :

فأزور من وقع القنــا بلبانه ... وشكا إلي بعبرة وتحمحـــم

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ... ولكان لو عرف الـكلام مكلمي

ما حملت إلا فتى كئيبـــــــــا
يسر مما أعلنت نصـــــــيبا
لو ترك الشوق لنـــا قلوبـــا
إذن لآثرنا بهن النيبـــــــا
إن الغريب يســـعد الغريبـــا

وشاعر كالفرزدق ليست تشيع الرقة العاطفية بين ما عرف من أشعاره ، ولا فيما تنوقل من أخباره بل ربما كان إلى كثافة الحس ، — وهمود الشعور وغلظة الطبع أقرب من نظرائه ! ولكنه يتحدث عن الذئب مرتين فينبجس قلبه عن رقة لا نعرفها لديه أن الشاعر الذي افتخر بأنه لم يبك على زوجته كجرير حين لحقت بالفناء فالمرأة أهون من أن يبكي عليها رجل !

وأهون مفقود إذا الموت ناله ... على المرء في أصحابه من تقنعا

هذا الجامد الصارم يجد ذئب الصحراء دانياً من طعامه ، فيقاسمه زاده ، ويصيح به في مودة !

تعش فإن عاهدتني لا تخـــوني ... نكن مثل من يا ذئب يصطحبان
وأنت امرؤ يا ذئب والغـــدر كنتما ... أخيين كانا أرضعا بلبـــــان
ولو غيرنا نبهت تلتمس القـــرى ... أتاك بسهم أو شـــباة ســـنان

ثم يتحدث عن موقف آخر مع ذئب استضافه في مكان يعرف بالغريّيْن فيقـــول :

وليلة بتنا بالغريين ضافنــــــــا ... على الزاد ممشوق الذراعين أطلس
تلمسنا حتى أتانا ولم يـــــزل لدُن فطمتْـــه أمـــه يتلمـــس
ولو أنه إذْ جاءنا كان دانيـــــاً ... لألبستُه لو أنه كان يلبـــس
ولكنْ تنحى جنبه بعـــد ما دنـــا ... فكان كقيد الرمح بل هو أنفس

فقاسمته نصفين بيني وبينه بقية زادي والركائب نعس
وكان ابن ليلى إذ قرى الذئب داره على طارق الظلماء لا يتعبس !

هذا الانجذاب العاطفي نحو الحيوان والطير مما يتدرج في باب الطبيعة الحية قد انقطع أو كاد فيما تلا العصر الأموي من عصور ، فالبحتري يتحدث عن الذئب كما تحدث الفرزدق ! ولكن لا نجد من التعاطف والرحمة ما هو جدير بشاعر كالبحتري بل نجد من الافتعال والتلفيق ما ينبيء عن عاطفة متحجرة سمحت له أن يقول :

طواه الطوى حتى استمر مريره فما فيه إلا العظم والروح والجلد
سما لي وبي من شدة الجوع ما به ببيداء لم تعرف بها عشية رغد
فأوجزته خرقاء تحسب نصلها على كوكب ينقض والليل مسود
فخر وقد أوردتُه منهل الردى على ظمأ لو أنه عذب الورد
وقمت فجمّعت الحصى واشتويته عليه وللرقضاء من تحته وقد
ونلت خسيساً منه ثم تركته وأقلعت عنه وهو منعفر فرد

والشريف الرضي ذلك العربي العلوي الهمام ينحو منحى البحتري فيقول عن ذئبه :

ولما عوى والرمل بيني وبينه تيقن صحبي أنه غير راجع

وهكذا نفتش عن أدب الحيوان والطير في شعر بني العباس والأندلسيين ومن وليهم فلا تجد غير الوصف فقط مما لا يستثير العواطف ، أو يكشف عن التعاطف والتآلف ! ولدينا قصائد عباسية كثيرة في الحيوان لعشرات من الشعراء ! ولكن قصاراها أن يتجه وجهة المتنبي – شرقاً – حين قال في أسد البدر بن عمار :

أمعفر الأسد الهزبر بسوطه لمن ادخرتَ الصارم المسلولا
ورد إذا نزل الجزيرة شاربا ورد الفرات زئيره والنيلا

ما قوبلت عيناه إلا ظُنّتنـــا   تحت الدجى نار المجوس حــلولا
يطأ الثرى مترفقاً من تيهـــه   فكأنه آس يجس عليـــلا

أو تتجه وجهة ابن حمد يس بالأندلس حين يصف الأسد فيقول :

هزبر له في فيه نارٌ وشــفرة   كما يستوي لحـم القتيـل على الجمر
سراجاه عيناه إذ أظلـم الدجـى   فإن بات يسري باتت الوحش لا تسْري
يصلصل رعدٌ من عظـيم زئيره   ويلمعُ برقٌ من حماليقه الحمـر
له ذنبٌ مستنبط منه سوطُـه   تـرى الأرض منه وهي مضروبة الظهر

فمع جمال هذا الوصف الرائع لدى المتنبي وابن حمديس وعشرات ممن يرُدون موردهما في الاهتمام بالهيكل الظاهري دون اتساع النظرة الإنسانية وشمولها فإننا نرى أن شعراءنا العرب قد وقفوا عند الصورة البصرية موقفاً كان من الحسن أن يتجاوزوه وهذا شأنهم جميعاً ـ باستثناء أبي العـلاء في شعر الطبيعة الحية شرقاً وغرباً !

على أن الحمام قد فاز بنصيب كبير من القول ! فكل عاشق تهيج لواعجه صدحات الحمائم ! فيعبر عن شجونه مستطرداً إلى وصفها ! وأدب الحمائم أكثر من أن يحصر ، وأوضح من أن يدل عليه، وهو على درجة قريبة من التشابه بين المشرق والمغرب فإذا قال الشاعر الشرقي :

ألا يا حمام الأيك إلْفُكَ حاضـر   وغصنُك ميّاد ففيـم تنـوح ؟
أفق لا تنح من غير شيء فإنني   بكيت زماناً والفـؤاد صحيـح
ولوعاً فشطت غربةً دارُ زينـبٍ   فها أنا أبكي والفـؤاد جريـح

قال الشـاعر الأندلسي :

ألا يا حمام الأيك مالك باكيـاً   وغصنُك نضْرٌ والجنـاب مريع
تغنّ ولا تنشجْ فإلفُك حاضـر   قريبٌ وإلفي غائب وشســوع
وقلبُك خلو من تباريح لوعـتي   وقلبي بلوعات الفراق صديـع

والاحتذاء هنا واضح سافر ! ! وهو مما لا يُحمد للمتأخر إذا صدر عن رغبة التقليد لا عن تجربة توجب التنفيس ! وشعر التجربة الصادقة لا يخفى ، ففيه من حرارة الانفعال ، وتوهج العاطفة ، وكمون اللوعة ما لا يخفى على البصير ! لقد كان أبو فراس الحمداني أسيراً في بلاد الروم ، يبعث قصائده إلى ابن عمّه كي ينهض إلى فكاكه متوسلا شاكياً ، ثم طرق سمعه ترجيع ورقاء هتوف تنوح دون أن تذوق من طارقات النوى ما ذاق الأمير الشاعر ! ولكنها وهي الطليقة السراح تبكي وتنحب دون المكبل الأسير ! فانطلق أبو فراس يبثها الشجن ، ويخبرها عما تجهل من أمره ، ويهتف في آهة هادئة مشجية :

أقول وقد ناحت بقربي حمامة ... أيا جارتا لو تعلمين بحالي
معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى ... ولا خطرت منك الهموم ببال
أتحمل محزون الفؤاد قوادم ... على غصن نائي المسافة عال
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا ... تعالي أقاسمك الهموم تعالي
تعالي تري روحاً لدي ضعيفة ... تردد في جسم يعذب بال
أيضحك مأسور وتبكي طليقة ... ويسكت محزون ويندب سالي
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة ... ولكن دمعي في الحوادث غالي

هذا أبو فراس بالمشرق! أما المعتمد بن عباد بالأندلس فأشدّ منه لوعة ، وأعظم مأساة ، لقد حبسه يوسف بن تاشفين بالعدوة ولم يرحم ملكه الضائع ومجده السالف وبلاءه المشكور في موقعة الزلاقة حين تلاقى الجمعان ، بل زاد فقيّد يديه وقدميه وأرهق زوجته وأطفاله بما يقصم الظهور بعد نعيم وارف وعز حافل ومجد سعيد ! ولم يجد الملك الأسير غير الشعر يبثه حنينه ويودعه شكواه . وقد عبرت به أسرابُ القطا طليقة غير مقيدة فتمنى أن يكون مثلها يسرح في فضاء الله دون إرهاق ولحقه شعورُه الشاعر فدعا لها بالصّيانة والعصمة ولأفراخها بالماء والظل فإن أفراخه لا يجدن منهما شيئاً ! ونفّس عن صدره بهذه الزفرة ذات اللهب الحبيس .

بكيتُ إلى سرب القطا إذ مَرَرْنَ بي — سوارحَ لا سجنٌ يعوق ولا كبل
ولم يَكُ واللهُ المُعيدُ حسادةً — ولكنْ حنيناً إنَّ شكلي لها شكل
فأسرح لا شملي صريع ولا الحشا — وجيع ولا عيناي يبكيهما ثكل
هنيئاً لها إن لمْ يفرقْ جميعها — ولا ذاق منها البعد عن أهلها أهل
وأن لم تبتْ مثلي تطير قلوبها — إذا اهتز باب السجن أو صلصل القفل
لنفسي إلى لقيا الحمام تشوفٌ — سواي يحب العيش في ساقه حجل
ألا عصم الله القطا في فراخها — فإن فراخي خانها الماء والظل

هذه التجربة الصادقة لا يمكن أن تكون تقليداً لأبي فراس ! وإنما هي شعور إنساني صادق يهتز به أديب حساس ، وهي بعدُ نموذج جيد لما نفتقده من أواصر التعاطف بين الإنسان والطائر في أدبنا العربي ! وأي تعاطف حيّ أبلغ من قول الملك الأسير :

ألا عصم الله القطا في فراخها — فإن فراخي خانها الماء والظل

وبعد فلقد طال تطوافنا حول أدب الطبيعة الحية في المشرق والأندلس ، وانتهى بنا المسير دون أن نجد بهما ما يصلح أن يكون نماء طبيعياً لبذرة الشعر الجاهلي ذات التعاطف الإنساني الشفيق ! وسنبحث الآن عن أدب الطبيعة الصامتة في الأندلس لنرى مداه في الطرافة والتجديد .

قلنا في صدر هذا البحث أننا نتساءل عما إذا كان شعر الطبيعة في الأدب الأندلسي موازياً لأخيه المشرقي في القيمة الفنية لم يكد يزيد عنه شيئاً أم أنه احتذاه بدءاً ثم استطاع أن يسير في طريق التقدم الابتكاري خطوات وئيدة وإذا فعل ذلك فإلى أي مدى سار ؟ وهذا السؤال لا يزال يتطلب الإجابة فيما يختص بالطبيعة الصامتة ! وهي المتبادرة إلى الذهن بداهة حين نتحدث عن شعر الطبيعة بالأندلس ! فبماذا نجيب . . .

إذا كان الأدب الأندلسي بعامة قد أخذ يستقل ويتميز ، ويدعم كيانه الذاتي منذ عهد الخلافة في زمن الناصر ، فإننا نجعل من أدب هذه الفترة

وما تلاها من العصور ، مجال الحديث عن شعر الطبيعة ، فإذا أردنا أن نلتفت إلى المشرق إذ ذاك فإنا نجده أيضاً قد استقل بأخصب عهود الطبيعة في تراثه ! إذ أن البلاط الحمداني بحلب قد جمع حوله من عشـــاق الطبيعة نفراً غير قليل ! وكأني بهؤلاء ومن جاء من بعدهم رأوا المتنبي يسد عليهم منافذ القول في المديح ، وينهض صرحه الشامخ أمام سيف الدولة فيكاد يحجب عنه سواه على كثرتهم الزائدة وجهدهم الحفيل ! وإذ ذاك وجدوا في الطبيعة عزاء وسلوى . فانطلقوا يصفون هذه البيئة الترفة الفاخرة ! وقد برع منهم من حمل اللواء ، وتقدم المركب ، وهو شاعر الطبيعة الوصاف أبو بكر الصنوبري فتابعه وزاحمه في اتجاهه السري الرفاء وكشاجم والخالديان والوأواء الدمشقي والزاهي والناشيء وعبد الحسن الصوري وأبو الفرج الببغاء وابنا ورْقاء والخباز البلدي والواساني وغيرهم ممن تحدثت عنهم يتيمة الدهر بإفاضة وإعجاب ! وكان الشعر الحمداني في هذا العصر الذهبي يسطر صفحة ذهبية للأدبالعربي في القرن الرابع ، ويحدث تأثيره المدوي في شتى الأمصار العربية ! إذ كانت دواوين شعراء بني حمدان تصل إلى الأندلس ومصر وفارس وبغداد فيعكف عليها الوراقون نسخاً ، لتباع بمغريات الأثمان وطالما عقدت مجالس الأدب ببغداد في دار الوزير المهلبي ومحافل الشعر بأصبهان في حضرة الصاحب بن عباد وكلها تدور حول شعر بني حمدان .

تقدم الصنوبري شعراء عصره في الهيـــام بمحاسن الطبيعة ، فأكثر الحديث عنها إكثاراً لا يقف عند حد ، حتى لقد قسم القول فيها إلى أبواب متميزة ، فباب للروضيات يتحدث عن سحر الحدائق والبساتين وباب للزهريات يصف الأقحوان والسوسن والشفيق والبهار والآذريون والنرْجس والـْخَيـْريّ والنسرين والورد والنيلوفر والياسمين ويقيم المناظرات بين نوع ونوع ويفضل صنفاً على صنف ، وقد تقدم ابن الرومي إلى نحو ضئيل من ذلك ، ولكنه على يد الصنوبري وأضرابه قد أصبح بدعة العصر وأسلوب الوصف ! حتى عرف بعض الشعراء بالتعصب لنوع معين من الأزهار ، يبديء في أمداحه ويعيد كما عرف الوأواء بحب النرجسوالسري الرفاء

بحب الورد الأحمر واشتهر أبو بكر الخالدي بوصف شقائق النعمان ! هذا في الزهريات أما الأثمار فما أكثر الحديث عن النارنج والليمون والبطيخ والتين الأسود والتفاح والشمام وأما المائيات فما أكثر الحديث عن السحاب والأنهار والسواقي والبرك والأسماك والثلجيات وأما الفصول فقد ذخر الشعر في الربيع والصيف والشتاء والخريف ! هذه الأشعار الطبيعية جميعها قد انتقلت إلى الأندلس وأحدثت أثرها النفاذ !

ونحن حين نقرأ ما لدينا من هذه الأشعار ، نجدها تتشابه وتتقارب فهي تقوم على الصورة الحسية ! ويقل بها ما سميناه بالتعاطف الوجداني ولا تكاد نجد فروقاً واضحة بين شاعر وشاعر ! فالصنوبري على زعامته قريب مختلط بالسري الرفاء وكشاجم في منحاه وطبيعة جوه وتقيد انطلاقه ! ولا أدري لماذا أضيق بأشعار الطبيعة الوصفية التي ألمس فيها إصرار الشعراء على أن تكون أشعارهم نماذج للتطبيقات البلاغية والبديعية ! فهي معرض حسن للتشبيه والاستعارة والطباق والجناس ! ولكن الصورة الناهضة خلف الاستعارة والتشبيه باهتة الملامح ، ضائعة القسمات !

لقد قال الصنوبري كثيراً في الأنهار ، واختص نهر (قويق) بأكثر من عشر قصائد ، ولكن إحداها لا تبلغ من نفسي على كثرة صورها الحسية مبلغ البيت الأخير من قوله في هذا النهر وكان يعمر بالماء شتاء ، ويجف صيفاً فتصيح فيه الضفادع :

قويقُ إذا شمّ ريح الشـــــتاء أظهَر تيهـــاً وكبراً عجيبـــاً
وإن أقبــل الصيف أبصـــرته ذليـــلاً حقـيراً حزينـاً كئيباً
إذا ما الضفادعُ نادينْـــــه قويقُ قويقُ أبى أن يجيبـــا

وأبو العباس النامي أطال القول في السحاب وجرى مع شعراء بني حمدان في أوصاف التدفق والانصباب وبكاء المزن وضحك الرياض ! ولكنه أبدع حقاً حين قال :

خليليّ هــلّ للمزن مقلة عاشــق أم النار في أحشائها وهي لا تدري

أشارت إلى أرض العراق فأصبحت وكاللؤلؤ المبتول أدمعها تجري
سحاب حكت ثكلى أصيبت بواحد فعاجت له نحو الرياض على قبر
فوشى بلا رقم ونقش بلا يد ودمع بلا عين وضحك بلا ثغر

أبدع لأنه تعدى الصورة البصرية إلى استكناه السحابة ، ومحاولة استبطانها ، وخلع الحياة عليها ! وهذا جيد طريف .

انتقلت هذه الثروة من أدب الطبيعة إلى الأندلس ! وأدباء الأندلس مولعون بعدُ بكل شرقي شائق ! وطبيعة بلادهم الزاهرة الناضرة مما يوجب الاحتفاء بهذا اللون واقتفاءه ! بل إن ابن خفاجة وهو أكبر شعراء الطبيعة بالأندلس كان يسمى بالصنوبري تشبيهاً له بأبي بكر ! وكان فخوراً بذلك ، وقد عكف على ديوانه واقتفاه ! ولا نريد أن نقول أن الشاعر الأندلسي كان مقلداً يقتصر على المحاكاة ولكن نريد أن نقول أنه وجد عند الصنوبري ما ليس لدى غيره مما يوافق مزاجه ، ويروي أحاسيسه فتشرب روحه ثم انطلق إلى أجواء الشعر ليوقع على قيثار جديد !

تقرأ شعر الطبيعة في الأندلس فتأخذ عينك روضة فسيحة ذات أزهار متشابهة وثمار متقاربة ! وأغصان مورقة لا تطالعك غالباً بما لا تعهد ، ولكنها تنقل إليك صورة تعرفها ومع ذلك تهش لها وتقف عندها وترحب بها ! وبين هذه المشتبهات المتفقات ترى على أبعاد متفاوتة شيئاً طريفاً كأنك تراه لأول مرة ، فتسرع خفيفاً إليه وتطيل عنده الوقوف !

ترى زهراً متشابهاً يعجبك بروائه ، وتراه لا يقل عن نظائره ، فهو مما تعهد وتعرف ! ويمثله قول ابن خفاجه :

وكمامةٍ صدر الصباح قناعها عن صفحة تندى من الأزهار
في أبطح رضعت ثغور أقاحه أخلاف كل غمامة مدرار
نشرت بحجر الأرض فيه يد الصبا درر الندى ودراهم النوار
فحلت حيث الماء صفحة ضاحك جذل وحيث الشط بدء عذار

والريح تنفض بكرةً لمم الربـى والطل ينضح أوجه الأشجـار
متقسم الألحاظ بين محاسـن من ردف رابيـة وخصر قـرار
وأراكةٍ سجع الهـديل بفرعهـا والصبح يسفر عن جبين نهـار
هزتْ له أعطافهـا ولر بمـا خلعت عليه ملاءة النـوار

الصور كثيرة ، والنظم قوي متماسك ، ولكن الشاعر صانع ماهر لم يعطك من عنده الكثير ، وإنمـا قدم لك نموذجاً متقارباً ممـا نعلم ! ولنبعد عنه قليلا إلى ابن سهل لنسمعه يقول :

انظر إلى لون الأصيـل كأنـه لا شك لون مودع لفـراق
والشمس تنظـر نحـوه مصفرة قد خمشت خداً من الإشفاق
لاقت بحمرتهـا الخليج فألفـا خجل الصبا ومدامع العشـاق

فلون الأصيل يوحي بأنه مفارق مودع ! والشمس عاشقة حزينة تخمش خدها من الإشفاق ثم تسقط في الماء لترى في شفقها الدامي خجل الصبا بين مدامع العاشقين ! تصوير يقترب من الحياة قليلا ، ويكاد ينفخ الروح فيما يصف ! وأنه لجيد رائع لو لم يكن سبقه ابن الرومي بقوله المبـدع :

وقد رنّقت شمس الأصيل ونفّضت على الأفق الغربي ورْساً مزعزعـاً
وودّعت الدنيا لتقضي نحبهـا وشول باقي عمرها فتشعشعـا
ولاحظت النـوار وهي مريضـة وقد وضعت خداً إلى الأرض أضرعا
كما لاحظت عواده عين مـدنف توجع من أوصابه ما توجعـا
وظلت عيون الروض تخضل بالندى كما أغرورقت عين الشجى لتدمعا
يراعينها صوراً إليهـا روانيـا ويلحظن ألحاظاً من الشجو خشعاً
وبيّن إغضاء الفراق عليهمـا كأنهمـا خـلا صفاء تودعا ! !

وإذا كان فيما تقدم لابن خفاجة وابن سهل ما يذكر بالمتعارف المعهود، فلنبتعد قليلا عما نعرف ، ولنمض وئيداً إلى الطريف الجديد !

نرى الآن في الآداب العالية الرفيعة أن النسيب العاطفي لا يكاد يذكر إلا من خلال الطبيعة لأنها الإطار البديع لصور اللقاء والسمر ! فعلى ضفاف الأنهــار ، وتحت مشتبك الأغصان ! وفي الليلة القمراء ومع النسيم الهادي الوئيد يحلو تناجي الأرواح وتهامس الأفئدة وامتزاج النفوس ! ومظاهر الطبيعة هي البريد الأمين الذي ينقل عن المحب لواعجه وأحاسيسه فللرشاش المتقاطر ، وللشفق الوردي ! والدر المتجمد في أعالي الغصون ، ولنفحات الزهور واختلاج المياه رموز عاطفية تكشف عن معانٍ حبيسة في نفوس العشاق ! وما أفصحها من رموز تشافه الاحساس وتنقل المعاني دون حروف وكلمات ! ! وقد وجدنا لدى ابن زيدون وهو العاطفي الصادق اللوعة الجياش الحنين ، قصيدة في وصف الطبيعة من خلال نوازعه وأشجانه تقرب كثيراً من الأدب العالمي في عصرنا الراهن وما سبقه من عهود الابتداع والتجديد ! وهي خطوةٌ بديعة في أدب الطبيعة العربي ولعشاق الأدب الأندلسي أن يعتبروها مظهراً من مظاهر التجديد العاطفي المصور وقد اعتبرها بعض النقاد دليلَ حيوية ابن زيدون ومظهر ارتقائه الفكري بين معاصريه فهو يقول موجهاً حديثه لولادة .

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقــاً … والأفق طلق ومرءى الأرض قد راقا
وللنسيم اعتــلالٌ في أصائلــه … كأنه رق لي فاعتل إشفاقــاً
والروض عن مائه الفضيّ مبتسـم … كما شققت عن اللبـات أطواقـاً
يوم كأيام لذات لنـا انصرمت … بتْنا لهـا حين نام الدهر سراقـاً
نلهو بمـا يستميل العين من زهر … جال النـدى فيه حتى مال أعناقاً
كأن أعينه إذ عاينتْ أرقـي … بكتْ لما بي فجال الدمع رقراقـاً
ورد تألق في ضاحي منابتـه … فازداد منه الضحى في العين إشراقاً
سرى يُنافحه نيلوفر عبـق … وسنان نبه منه الصبح أحـداقاً
كل يهيج لنـا ذكرى تشوقنـا … إليك لم يعـد عنهـا الصدر أن ضاقا
لا سكن الله قلباً عن ذكركمـو … فلم يطـر بجناح الشوق خفاقـاً

لو شاء حملي نسيمُ الصبح حين سرى ... وا فاكمو بفتى أضناه ما لاقا
لو كان وفّى المُنى في جمعنا بكمو ... لكان من أكرم الأيام أخلاقا
كان التجاري بمحض الود من زمن ... ميدان أُنسٍ جرينا فيه أطلاقاً
فالآن أحمدُ ما كنا لعهدكمو ... سلوتُم وبقينا نحن عشاقا !

فهذه الصرخة اللهيفة قد ارتفعت على جناح الطبيعة إلى أفق وضيء ! إذ يتضاءل جوارها أكثر ما نعهد من الوصف البصري الذي يقف عند الجزئيات دون أن يفرغها في روح كلي عام! وهي شبيهة بما نجده لدى شيلي وتينسون وودلر من كبار شعراء الانجليز بل إنها لتذكرنا بمثل قول شلي : «إنّ رجع الألحان بعد خفوت الصوت يبقى مردّداً في الأفئدة . ولنشر البنفسج بعد موته طيبٌ في الأنوف ، وأوراقُ الورد بعد ذبولها تنثُر على فراش الحبيب ، وهكذا ذكرياتُك تظل بعد ذهابك ماثلة ! ! » تماماً والله كما خلدت ذكريات ولادة في الزهراء ينفح بها النسيم في الروض المبتسم عن مائه الفضي ويعبر عنها الندى الجائل في أحداق الزهر حتى مالت منه الأعناق! والورد الأبيض المتفتح في الضحى تفتحاً زاد ضوء النهار إشراقاً أي أشراق !

ولا أدري لماذا تذكرني هذه القصيدة الفريدة بأُخت لها قالها ابن خفاجة شاعر الطبيعة بالأندلس والقصيدتَان ليْستا في موضوعٍ واحد حتى يجوز لي أن أعقد الشبه بينهما بهذه السهولة ! ولكن اختلاف الموضوع لم يمنع اتفاق الاطار ، والإطار هاهنا هو الطبيعة المفتان ! فقد نزل ابن خفاجة أيكةً فناءً فذكرتْه عهده بالأنس مع حبيبةٍ فقيدة ودعت الحياة ! وقد هاجت الذكرى شجونه فبكى ! وجعل النسيم يراوحه فيتنشّقه متحسراً ، ولكنه لا يجد العبق الذي كان يعهده مع حبيبته ! وَقَطَعَ الشاعر يومَه بالأيكة ، فلما همتِ الشمس بالمغيب وعلتْ وجه النهار كآبة كابية تذكرَ مغيب حبيبته بمغيب الشمس فسارعَ إلى قبرها باكياً ! بالله إن الطبيعة هنا ذات روح غير معهود في أكثر ما نظم شاعرها الكبير ! فالأيكةُ والريحُ والأرُج ومغيب الشمس ! كل ذلك ممتزجٌ بعاطفة أُخرى تهزّ كيان الشاعر

وتقودُه قسراً إلى الظلام ، وهناكَ يصرخ صرختِه اليائسة ويتساءل عن اللقاء الموعود متى وأين بعــد أن صدعت الشمل أيدي الحوادث ! ! إنه يقول :

ألا أذكرَتني العَهْد بالأنس أيكة   فأذكرتُها نوحَ الحمام المطــوق
وأكببت أبكي بين وجد أناخ بي   حــديث وعهــد للشــيبة مخلق
وأنشقُ أنفاس الرياح تعلّـــــلا   فأعدُم فيها طيب ذاك التَنَشّـــق
ولما علْت وجه النهــار كآبـــة   ودارتْ به للشمس نظرة مشــفق
عطفتُ علّى الأجداثُ أجهشُ تارةً   وألثم طوْراً تربهــا في تشــــوق
وقلت لمغففٍ لا يهبّ من الكرى   وقد بتّ من وجدٍ بليلٍ المؤرق
لقد صدعَت أيدي الحوادث شملنا   فهلْ من تلاقٍ بعدَ هذا التفرق
وإن تلكُ للخلّين ثمّ التِقَــاءَةٌ   فياليتَ شعري أين أوْ كيف نلتقي

بعض الناس لا يعتبر هذة القطعة الفذة من شعر الطبيعة ، وربمــا فضّل عليها قصيدة كقصيدة ابن خفاجة :

للهِ نهرٌ ســال في البطحـــــاء   أشهَى وروداً من لمى الحسناءِ !
متعطف مثل السوار كأنّــــــه   والزهر يكنفه مجـــــرّ ســماء

ولكن الذين يعلمون أن الطبيعة ملهم مؤثر ! ومذكر يقظ بشجــون الأمس ، وسوالف العهد يعرفون كم كان الشاعر موفقاً في استلهامها ! وأظنه نظم هذه الأبيات في سهولة متيسرة حيث لم تجْبره على انتزاع الصور البيانية من تشبيه واستعارة ليثقل بها حديثه — كعهدنا به — وإنما انطلق مع طبعه في غفوةٍ من سيطرة التصوير الحسي لينقل عن خاطره دون تكلف ! لقــد كان ابن خفاجة مغرماً بالطبيعة حقاً ! ولكنه مع ذلك كان مغرماً بأن يقال أنه شاعر الطبيعة الأندلسي ! فكان يكثر متعمداً عن شعر الطبيعة دون موجب ملح ! مات بعض أصدقائه فرثاه بقوله :

في كل نادٍ منكَ روضُ ثنـــاء   وبكلّ عين منك جدولُ مـــاء
ولكل شخصٍ هزة الغصنِ النّدِي   غب البكاء ورنة المكــــــاء

وهذا تلفيقٌ ذهني مفتعل ما كان أغنى ابن خفاجة عن نَسجه لو لمْ يعلق بنفسه أنه شاعر الطبيعة فلا بدّ أن يتحدث عنها في الرثاء ! معَ أن عاشق الطبيعة يتحدث عنها عفواً دون سبق الاصرار ! يتحدثُ عنها في كل غرضٍ من نسيبٍ ورثاء ووصف وعتاب وحكمةٍ فترى روحها تملأ الأبيات ، وتطالعك شفافة رفاقةً من خلال الفكر والتصاوير ! أما أن يتعمدها الشاعر تعمداً في الرثاء فهذا ما يوحي أنها الأصل وأن الميت لا يساوي عند صاحبه شيئاً ! ولكن المجال مجالُ إظهار عبقرية شعرية يتوق بن خفاجة أن يتحدث بها الناس ! ! كانت جريدة الأهرام تنشر أثناء الحرب العالمية الثانية وما قبلها بقليل مقطوعات في وصف الطبيعة بالريف المصرى بامضاء شاعر البراري وهو — رحمه الله — صديق مخلص ، وقد زُرته مصادفةً يوم وفاة جبرائيل تقلا صاحب الأهرام ، فقال لي إنه سيرثي الفقيد ولكنْ بأسلوبة الخاص ! فاستفسرت عن مراده فقال لقد عهدني قراء الأهرام أكتب عن الورد والياسمين والنّهر فلا بد أن يكون رثائي كذلك ! وسترى براعتي ! ! هكذا قال ، ثم نشرت الأهرام بعد ذلك من رثائه ما لا يخرج عن قوله أنّ الندى قد انقطع فمال الياسمينُ إلى الأرض ليعزيها ! ولو كانت الأبيات لديّ لذكرتها ! ولكني تذكرتها حين قرأت أبيات ابن خفاجة في رثاء صديقه ! ! لأن المنزع واحد بين الرجلين على اختلاف الزمان والمكان !

وسننصف ابن خفاجة إنصافاً يرتفعُ به عن شعراء الطبيعة لعهده حين نذكر حديثه عن القمر والجبل ! فقد كان إذ ذاك شاعر الطبيعة بحقّ ! إنه لم ينظرْ إلى القمرِ في اكتماله فيراه قُرصاً من لجين ! ولم يتذكر طفولته وهو هلال بعدُ فيجدَه زورقاً من فضةٍ قد أثقلته حمولةً من عنبر ! ولم ير شحوبه قبلَ المحاق فيراه حسناءَ مريضة طال عليها الهجر كما نسمعُ من بعض الشعراء ولكنه يصيخ إلى نجواه ويتمنّى أن يحادثه في سمائه عن شجونه وآلامه ! ويقول أنه لو تحدث لحازَ الجمالين مِنْ خبُر ومن خبر وأن سَكَت فإنه

صاحب الصمت البليغ الواعظ وإن بكى فعن شجو يفجّر عين الماءبالحجر !
استلهامٌ بديع حقاً ومحاولةٌ شاعريّة لفهم هذا الكوكب المتألق ! واستبطانٌ
عميق لمشاعره ، ونبش حصيف عن خوافيه يفصح عنه قول الشاعر :

لقد أصخْتُ إلى نجواكَ من قمرٍ وبتّ أدلج بين الوعي والنظر
لا أجتلي مُلحاً حتى أعي ملحا عدْلاً من الحكم بين السمع والبصر
وقد ملأت سواد العين مِنْ وضَحٍ فقرط السمع قرط الأنس من سمرِ
فلو جمعَت إلى حُسْنٍ مُحاورةً حُزتَ الجمالين من خُبر ومن خَبر
وإن صَمت ففي مرآلُ لي عظة قد أفصحت لي عنها ألْسُنُ الصبر
تمرّ من ناقصٍ طوراً ومكتملٍ طوراً ومن مرتقٍ طوراً ومُنحدِرِ
والناس من معرض يلهو وملتفتٍ يَرعى ومن ذاهلٍ ينْسى ومدكّر
تلهُو بساحات أقوام تحدّثنا وقد قضوا فمضوا آناً على الأثر
فإن بكيتُ وقدْ يبكي الخليل فعنْ شجوٍ يفجّر عين الماء في الحجر !

هذه نفثة شاعر طال عهده ، بالطبيعة ومارس القول في أفانينها
المختلفة مقلّداً تارة ومبتكراً تارة أخرى حتى استطاعَ بعد لأي أن ينفذ إلى
اللباب من جوهر الأشياء وأن يرىَ في المظاهر الخارجية دلائلَ سافرة
عما يستكن تحتَها من معان ورموز ! ! وربما كان ابن خفاجة على
استعدادٍ أن يبدع في هذا المجال لو رأى مِن ناقدي عصره من يشدّ على
يديه ويهنئه بمنهجهالجديد ! ولكنّ طبيعة الجو الأدبي إذْ ذاك لم تكنْ تسمح
بوجود هذا الناقد الحصيف ، عَلى أن بواعث الاستبطان كانتْ لدى الشاعر
في وقتٍ ما من أوقات حياته أقوى وأعمق من أن يتشاغلِ عنها بالأوصاف
الحسية دون تأمل واستشفاف ، فقد وقف ابن خفاجة أمام الجبل مرّتين !
فكشَف له في الأولى عن بعض سره حين قال عنه في إيجاز :

وصهوةِ عزم قد تمطيت والدّجى مكبّ كأن الصّبح في صدره سر
وأشرف طماح الذؤابة شامخ تمنطق بالجوزاء ليلاً له خصر

وَقورٌ على مر الليالي كأنما يصيخ إلى نجوً وفي أذنه وقر
تمهد منه كلّ ركنٍ ركانةً فقطّب إطراقاً وَقَدْ ضَحِكَ البدر
ولاذَ به نسرُ السماءُ كأنما يحن إلى وَكْر به ذلك النسر
فلم أدرِ من صَمت له وسكينةٍ أكبرةُ سنٍ وقرّت منه أم كِبر

أما الوقفة الثانية فلا نرىَ من شعراء العربية إلى الآن من حاولَ أن أن يأتي بإبداعها البليغ ، فقد استطاعَ ابنُ خفاجة أن يتسمّع صوت الجبل عن رهافةِ أُذن ولطافةِ حسّ ، فحدّثه الطود باكياً متأثراً ، ذاكراً تاريخه الحافل مذ كان ملجأ لقاتلٍ أو موطناً لناسك عابد ، وقد باتَ فيه المدلجون بالليل واستظلّ بجنابه المقيلون بالنهار ! فألفهم وألفوه واستطاب مقامهم واستطابوه فما خفق أيكه الآن غير أضلعٍ راجفةٍ وما نوحُ حمائمه غير صرخةِ نادبٍ يبكي فراق أحبّته فإلى متى يبقَى ليستقبل حبيباً ثم يودّعه بعد حين ؟ وإلى متى يبقى ليرعى الكواكب فمِن طالع أُخرى الليالي وغارب ! ! لقد نقل الشاعر حديثَ الجبل فسحر الناس وأدهشهم حين قال :

وأرعَن طماحِ الذؤابة باذخٍ يطاول أعنان السماء بقارب
يسبّ مهب الريح عن كل وجهة ويزحم ليلاً شهيه بالمناكب
وقور على ظهر الفلاة كأنه طوالَ الليالي مُفكر في العواقب
يلوث عليه الغيم سود عمائم لها من وميض البرق حمر ذوائب
أصخت إليه وهو أخرسُ صامت فحدّثني ليل السرى بالعجائب
وقال ألاكم كنتُ ملجأ قاتل وموطن أوّاه تبتّل تائب
وكمْ مرّ بي من مُدلج ومؤوب وقَالَ بظلّي من مَطى وراكب
ولاطمَ من نكب الرياح معاطفي وزاحمَ من خضر البحار غواربي
فما كان إلا أن طوتْهم يد الردى وطارتْ بهم ريح النوى والنوائب
فما خفق أيكي غير رجفة أضلعٍ ولا نوح ورقى غير صرخة نادب

وما غيض السلوان دمعي وإنمـــا نزفت دموعي في فراق الصواحب
فحتّى متى أرعى الكواكب ساهرا فمن طالعٍ أخرى الليالي وغـارب
فرحمـاك يا مولاي دعوةَ ضارع يمدّ إلى نعماك راحةَ راغـب
فأسمعَني من وعظه كلّ عـبرة يُترجمها عنـه لسـان التجارب
فسلّى بما أبكى وسرّى بما شجا وكانَ على عهد السرى خير صاحب
وقلتُ وقد نكّبت عنه لطيّـة سلامٌ فإنا من مقيـم وذاهب!

تُعدّ هذه القصيدة ذروة اكتمالِ شعرِ الطبيعة في الأندلس ! وقد بلغ التشخيص فيها مبلغاً لا نجده إلا عند كبار الشعراء في الشرق والغرب ! ولو ذهَب جميعُ ما قال ابن خفاجة ، وبقيتْ وحدها لكانت معجزةَ إبداعهِ ودليلَ تفوّقه ! بل ربما ظننا أن جميع شعره من هذا الطراز ! وقد وُجد من يقول أن ابن خفاجة قد استلهم قول المجنون في جبل التوباد .

وأجهشتُ للتوباد حـين رأيتُـه وكبّر للرحمن حـين رآني
فقلتُ له قد كان حولَك جـيرة وعهـدي بذاك الصّرم منذ زمان
فقال مضوْا واستودعوني زمانهم ومن ذا الذي يبقى على الحدثـان

وهذا يعيد لأن قولَ المجنون حطرة عابرة ، لو وقفَ عندها ابن خفاجة ما بلغ هذا النفاذ ! أما قصيدة الجبـل فنسَق شعري متكامل ذو شعـاب وأفانين .

ولو كان المجنون – على سبيل الاحتمال – مُوحياً مُوجّها ، لكان لابن خفاجة فضـلٌ أثير أن يكونَ موضع هـذا الإيحاء ، وقد عبَرت القرون خلف المجنون وتوالى عشرات الشعراء في العربية شرقاً ومغرباً دون أن يبدع أحدهم في وصف الجبل ما أبدع ابن خفاجة ! ! فيأتي بهـذا البيـان .

هل لنا أن نقول في ختـام هذا البحث أن شعر الطبيعة بالأندلس قد خطا نحو التجديد خطوةً أولى مع ابن زيدون وخطوةً ثانية مع ابن خفاجة فأتحف الأدب العربي ببعض الطريف من الجديد ! !

بذرة الملاحم العربية في الأندلس

كنا إلى وقت قريب نقرأ ما رواه ابن عبد ربه في العقد الفريد وابن بسام في الذخيرة والمقري في النفح من الأراجيز التاريخية الطويلة فنمر بها مرّ الكرام ، ولا نجدها تستأهل وقفات جادة للبحث والتحليل ، حتى جد من الآراء العلمية حول هذه الأراجيز ، ما يجعلنا نقف عند ها فنطيل !

لقد استعر الخلاف بين علماء الأسبان وعلماء الفرنسين حول أصل الملاحم الشعرية التي ظهرت في فرنسا خلال القرن الثاني عشر ، وفي أسبانيا بعد ذلك بقليل جداً من الزمن ، وحاول كل فريق أن يجعل أمته ذات السبق الظافر في الابتكار ، وكان أكثر الباحثين يميلون إذ ذاك إلى جانب فرنسا ، إذ أن سبقها الزمني بمنزلة لامعة في الوضوح فلا محل للقول بأن أسبانيا قد تقدمتها في هذا الميدان ، وانتهت المسألة عند ذلك ، حتى ظهر الباحث الأسباني الهادف « خليان ريبير » فأثبت في أبحاثه الطويلة أن أدب الملاحم كان يملأ أسبانيا المسلمة ، وأن فريقاً من أدباء الأندلس في عهد الإسلام قد وضعوا أساس هذا النوع من الأدب المتنازع عليه ، فإليهم – وبالتالي إلى إسبانيا – يرجع فضل السبق في الابتكار .

وقد قام الدكتور حسين مؤنس بنقل آراء هذه البحاثة إلى العربية (١) ، مع التعقيب عليها تعقيباً وافياً شافياً بما يرضي نهم الذين لا يعرفون الإسبانية ، ويتشوقون في رغبة مستطلعة أن يلموا بأقوال هذا المستشرق الجليل ، وكان مما قاله الدكتور مؤنس :

« لاحظ ريبير أن المسلمين في الأندلس عرفوا الشعر القصصي وشعر الملاحم في زمن مبكر جداً ، فقد ذكرت المراجع مثلا أن تمام بن علقمة

(١) تراجع مجلة الثقافة السنة الثانية سنة ١٩٤٦ ففيها سلسلة بحوث الدكتور حسين مؤنس المشـــار إليها .

من كبار رجال البلاط الأموي في عهد عبد الرحمن الداخل ، وابنه هشـــام كتب ملحمة طويلة وصف فيها فتح المسلمين للأندلس وقدوم عبد الرحمن الداخل ، وتأسيس الإمارة الأموية في قرطبة كذلك أنشأ ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد قصيدة مماثلة لهذه في أعمال بعض الأمراء الآخرين ، ونحن وإن كنا لم نعثر على شيء من هذه الملاحم — لعله يريد على جميع هذه الملاحم لأن بعضها موجـــود فعلا — إلا أن تواتر الإشارة إليها في المراجع يدل على أن المسلمين عرفوا هذا النوع من الشعر ومارسوه » .

وقد فهم الأستاذ ريبيرا مدلول الملاحم على معنى واسع ، فلم يقصرها على النمط العربي الموزون ، ولكنه التمسها في الأساطير النثرية التي تتعلق بالفتح العربي للأندلس، وفي الأزجال الشعبية التي كانت تردد باللغة الدارجة بين مسلمي الأندلس إذ ذاك وجعل من الأراجيز المنظومة والأساطير التاريخية والأزجال الشعبية وحدة مرتبطة تقيم البناء الملحمي حين تعرض جوانب من البطولة والفروسية ، وتبرز عناصر المفاجأة والخوارق في المعارك الحربية ، وتتحدث عن الاحتيال والخديعة حين يمهدان للنصر السابق السريع ، وقد رجع الأستاذ فيما رجع إلى تاريخ ابن القوطية الشهير فنقل عنه كثيراً مما يتضمنه من غريب الخوارق عن الفتح الإسلامي إذ حفل كلام هذا المؤرخ المسلم العقيدة ، القوطي الأصل بما لا يكاد يوجد عند غيره من المسلمين ، فإذا كانت أكثر المراجع الإسلامية قد تحدثت عن معاملة الفاتحين لأسرة غيطشة ومروءة العرب وسماحتهم في استرضاء القلوب مما يتفق وروح البطل المترفع كما تصوره الملاحم فإن ابن القوطية يتفرد بغرائب تنحو هذا النحو كموقف عبد الرحمن بن معاوية من أرطباس ، وقصة أرزاق بن ختيل صاحب وادي الحجارة مع موسى بن موسى وأمثال هذه الأساطير الشعبية ! فإنها في رأي ريبير اشعر قصصي ملحمي — أياً كانت لغته — صدرت عن شعب أندلسي شديد التعلق بأبطاله ، ولعل من المستحسن أن يرجع القاريء إلى بحوث الدكتور حسين مؤنس في هذا الموضوع وقد تابعها مسلسلة بمجلة الثقافة سنة ١٩٤٦ في ثمانية أعداد حافلة بالجديد المفيد !

والذي يهمنا من ذلك كله هو بذرة الملاحم الشعرية الواضحة في التراث الأندلسي ، وكيف كان أدبنا العربي صاحب هذه البذرة التي انتقلت منه إلى غيره فأقامت بناء عالمياً جديداً في دنيا الأدب الدولي كما يجزم ريبيرا وتلاميذه الكثيرون !

يستكثر بعض الباحثين أن يكون في الأدب العربي ملحمة ما ، وأذهانهم تسبق بلا ريب حين تطن في أذانهم كلمة ملحمة إلى إلياذة هوميروس ! وكأنهم يقولون في قرارة نفوسهم إما أن تكون الملحمة كملاحم اليونان وإلا فلا ، وهم يشترطون فيها بناء على هذا التصور :
أن تشتمل على حوادث خارجة عن المألوف ، بحيث يكون أبطالها مردة أو أنصاف آلهة ، وقد يكونون آلهة أحياناً يتقاسمون المعركة ، وينصرون فريقاً على فريق وقد يكونون شخصيات خرافية لا وجود لها على الإطلاق ، فإذا تواضعت الملحمة فهي مزيج بين أبطال حقيقين وآخرين من دنيا الخيال ، وهذا التصور بعيد عن الفكر الإسلامي الذي لا يعترف بغير إله واحد ليس كمثله شيء .

وهذا الشرط الذي أوحته أساطير اليونان ، يقف حائلا دون الاعتراف بملاحم كثيرة ، فالكوميديا المقدسة ملحمة منظومة الشاعر الإيطالي الطائر الصيت دانتي تصف الجحيم وسكانه وما به من أهوال تجعل الولدان شيباً ، وتعرج على الأعراف فتحدد مكان التطهير والاستنابة بين الجحيم والفردوس ، وأبطالها أناس واقعيون يحفظ التاريخ أخبارهم ، ويضعهم دانتي موضعهم اللائق في اعتقاده ، ومنهم قائده الشاعر الروماني فرجيل ، وحبيبته الحسناء بياتريس الفلورنسية التي ألهمته أجمل أناشيد الصبابة بل أوحت له بهذا الأثر الفني الجميل ، والكوميديا بهذا الوضع تبتعد كثيراً عن ملحمة هومير !

وكذلك يقال في ملاحم (أولاندو الغاضب) للشاعر الإيطالي أريوستو ، والفردوس المفقود للشاعر الإنجليزي جون ملتن ، فالأولى

تصف المعارك التي دارت بين المسيحيين والوثنيين إذ تتحدث عن انتشار المسيحية وازدهارها ، وطابعها ديني كطابع دانتي في الكوميديا الإلهية ، والثانية ملحمة تصف نشأة العالم وتتحدث عن خروج آدم وحواء من الجنة مستقاةً مصادرها من الكتاب المقدس مع إضافات هامة تمخض عنها إحساس الشاعر الكبير ! فإذا جاز لنا أن نعد روائع دانتي وآريستو وملتن من الملاحم وهي كذلك فعلا باعتراف الجمهرة من الناقدين فقد ابتعدنا كثيراً عن شرط الخوارق المعجزة للآلهة وأنصاف الآلهـــة ، وأمكننا أن نطلق الملحمة على كل حادثة عظيمة تدور حول بطل عظيم أو عده أبطال يجمعهم خيال الشاعر في نطاق محدود ، ويتصرف بهم كما يشاء ! ولو جاز لنا أن نقصر الملحمة على المتعارف منها لدى الإغريق فلماذا لا نفعل ذلك بالأجناس الأدبيةالأخرى غير الملحمة ، فالخطبة مثلا عند الإغريق ، ليست كالخطبة عند العرب في وجه ما من الوجوه ، إذ أن الخطب المروّية عن اليونان قضائية سياسية تنتهي بأخذ الأصوات من السامعين ، وأصحاب هذه الأصوات من القضاة يصدرون أحكامها غير مسببة أو مشفوعة بحيثيات ما ، وإنما يتأثرون تأثراً وقتياً بما يسمعون فيصدرون أحكامهم ، وتكون كثرة الأصوات وقلتها هي عامل التبرئة والإدانة دون نظر إلى حجاج أو برهان ! على ذلك مضت الخطب اليونانية التي انتقلت إلينا من أشباه بركليس ، وديموستنيس ! ! وطبيعي أنها بذلك تختلف عن خطب الدنيا في المشرق والمغرب ! ونحن نعرف مدى اشتهار الخطابة لدى العرب في العهد الجاهلي وما يليه ! فلا مناسبة إطلاقاً بين قس وسحبان وأكثم بن صيفي ، وما تعورف من خطب اليونانيين ! وقد اعترف الكاتبون بخطب العرب دون أن يقيسوها بخطب اليونان ! فلماذا لا نعترف بملاحم العرب وندعي أنها تفترق عما تعورف من ملاحم هوميروس ! ! وكيف يضيق الأمر في عيوننا لدى الحديث عن الملاحم العربية بالذات ! !

إن من أخطر الأشياء أن نستند إلى أحكام عائمة لا تعتمد على برهان صحيح ، فمنذ قال الفيلسوف الفرنسي أرنست رينان إن العقل السامي عقل

جزئي لا يصدر عنه أثر كلي متشعب مستوعب ، منذ قال ذلك القول الجريء ونحن نرفض الاعتراف بملاحم العرب لأن الملحمة موضوع كلي لا يستطيعه عقل سامي ! ! وقد أثبتت الكشوف الحديثة بطريقة لا تقبل الشك فساد هذا الحكم المغرض ، وكان اكتشاف الملحمة السامية قبل الملاحم الإغريقية أول معول في هدم هذه الترهات ! ! ولن نبعد كثيراً عن موضوعنا حين نستطرد إلى ذلك فنقول :

من المسلم به تاريخياً أن سكان العراق وبابل وآشور وفينقية نزحوا أصلا من جزيرة العرب في موجات متدرجة حيث استوطنوا هذه الأقاليم فهم عرب ساميون ، وقد اكتشفت بعثات الآثار التي بدأت عملها سنة ١٨٤٣ بوساطة قنصل فرنسا بالموصل ! وما وليها من بعثات أخرى فرنسية وإنجليزية اكتشفت هذه البعثات مكتبة ملك آشور « بانيبال » وبها اثنا عشر لوحاً يتضمن ملحمة « جلجميش » الذائعة الصيت ! وهي ملحمة تتحدث عن بطل امتزجت فيه الألوهية بالإنسانية حتى غدا مرهوباً(١) مخيفاً يحارب العمالقة ويتوجه إلى جبال لبنان لينازل عملاقها الهائل (هومبابا) وتمضي الملحمة في جو أسطوري كجو هومير فتتحدث عن أعاصير الحب والحقد والوقيعة وتسرد الخوارق من الانتصارات على المردة والثور السماوي الذي بعثته الآلهة ليدمر المحصولات ويبيد الشجر ويبعث الحرائق ويقتل « جلجميش » ! والإفاضة في أدوار هذه الملحمة مما يتعذر في هذا النطاق ، ولكننا نشير إلى أنها ملحمة عربية سامية ! تبطل نظرية التفكير الجزئي التي هتف بها أرنست رينان وتلقفها من يرجفون بالعرب ولا يطيقون أن يروا لهم خيراً يذكر بحال ، وليت شعري ما يقول هؤلاء حين يسمعون أحكام النقاد تجزم بأن ملحمة جلجميش قد انتقلت مع حضارة بابل القديمة إلى آسيا الصغرى والجزر القريبة منها فعرفها اليونان ولعلها كانت مصدر إلهام لهوميروس لا سيما والتشابه واضح بين الملحمتين يتطلب من يخصه بالتحليل !

---

(١) هكذا كانوا يعتقدون في أوهامهم .

إن الملاحم تنشأ دائماً في عهود الطفولة العقلية لدى الأمم ، إذ تحاول الشعوب الفطرية في سذاجتها البدائية أن تحلّل ما تعجز عن تعليله من ظواهر الكون فتلجأ إلى الخرافة ، ثم تسلسل هذه الخرافات حتى تكون قصصاً غريبة تكون فيما بعد ملاحم بطولية ! ! ولقد كان للعرب في الجاهلية ملاحمهم دون نزاع لأن أمة تسكن الصحراء وتتحدث عن الغول والعنقاء ، ويصف شعراؤها منازلة الجن في أعماق الفلوات – كتأبط شرّاً وغيره – لا بد أن يكون لها ملاحم بطولية ، لا سيما والقارات القبلية متصلة لا تنقطع ، وأيام العرب الحربية لا تحصر ! ! وقد يسأل سائل لماذا لم نعثر على هذه الملاحم كما عثرنا على إلياذة هومير مثلا ، وتعليل ذلك فيما أراه شخصياً وأكاد أعتقد أنه على جانب من الصواب أن انفكاك الشعر اليوناني من القافية قد ساعد على ضم الأشعار بعضها إلى بعض حتى كوّنت جوانب كثيرة من الإلياذة ، وجاء هومير فوجد هـذا التراث الكبير أمامه فنسّقه وضم بعضه إلى بعض ، أما اعتماد الشعر الجاهلي على القافية والوزن فقد حال دون ضم هذه الأشعار إلى ملحمة واحدة ، فإذا كانت موقعة كموقعة داحس والغبراء أو ذي قار أو الذنائب فإن أكثر من شاعر قد قال في كل موقعة منها إذ قال ما شاء من بحره الخاص وقافيته الخاصة ، ومضى الزمان فنُسب كل قول إلى قائله ، دون أن تجمع أشعار المعركة في ملحمة خاصة إذ وقفت القافية والبحر معاً دون هذا الاندماج والالتحام ، ولا كذلك في الشـعر اليوناني لأن الخلاص من هذين القيدين قد سهل للمتفرق أن يجتمع ويلتئم وبخاصة إذا قام به عبقري جهير كهومير ! !

لنـا أذن أن نلتمس بذور الملحمة العربية فيما تفرق من شعر الوقائع في الجاهلية والإسلام فإذا ما امتد بنا الزمن إلى العصر الأندلسي فإننا نجد تعديلاً جديداً يطرأ على ما يعرف بشعر الوقائع وهو ما نلمسه في الأراجيز التاريخية التي أشار إليها البحاثة المنصف « ريبيرا » والتي من أجلها اضطررنا مجهدين أن نطوف طوفاناً سريعاً حول معنى الملحمة ، ومصدرها الأول في الشرق والغرب مما لا بد من الإلمام به في هذا السبيل ! !

لقــد ذكر العلامة « ريبيرا » أن شاعراً كبيراً هو تمام بن علقمة قد أنشد أرجوزة تاريخية أندلسية ، والمصادر الأندلسية لا تعطينا شيئاً ذا بال عن هذا الشاعر ولا عن أرجوزته الملحمية ، وإنها لتذكر أنه توفي سنة ٢٨٢ ه ، وهذا الموعد يوقعنا في تساؤل حائر ، لأن ابن المعتز الشاعر العباسي قد توفي سنة ٢٩٦ ه أي بعد ما يقرب من ثلاثة عشر عاماً من وفاة تمام ، وكنا نعرف أن ابن المعتز هو أول من نظم الأراجيز التاريخية في الأدب العربي ولكن لدينا الآن ما يوجب أن تكون أرجوزة تمام سابقة له ! لأن ابن المعتز نظم أرجوزته في سيرة الخليفة العباسي المعتضد ، وذكر فيها وفاته مما يشعر أنها قيلت بعد موت الخليفة سنة ٢٨٩ ، وإذن فقــد تأخرت أرجوزة ابن المعتز عن أرجوزة تمام لا محالة ، ولكن من يضمن لنا أن نجزم بانتقالها إلى الشرق ومحاكاة ابن المعتز لها ؟ يخيل إليّ أننا لا نستطيع الجزم بذلك عن يقين ، فقد يكون ابن المعتز ممن قرأوا أرجوزة تمام ، وقد تكون أرجوزته في المعتضد من قبيل توارد الخواطر ، يدل على ذلك أن ابن المعتز كان كثير النظم في الأراجيز ذات القافية المزدوجة في غير باب التاريخ ، وهو ما لم يعهد لأندلسي قبله فربما امتــد به إعجابه بالمعتضد وحسرته عليه بعد وفاته إلى أن يخصه بأرجوزة سهلة التعبير عن جميع مواقفه، حيث لا يتكلف لها تكلف قصائد الرثاء من احتفال بالقافية واهتمام بما برع فيه من غرائب التشبيهات ، ودقيق الأوصاف ! ولو أن أرجوزة تمام نقلت إلىالشرق واشتهرت اشتهاراً جعل ابن المعتز يحاكيها لتناقلتها كتب المشارقة كلون جديد ، ولكنها سكتت عنها نهائياً ، ولولا إشارات مقتضبة في كتب الأندلس ما ســمع بها العلامة الإسباني « ريبيرا » . . .

فإذا كان ابنالمعتز قد مرن على نظم الأراجيز ذات القافية المزدوجة في غير باب التاريخ كقوله مثلا يصف الرياض في منظومته ذم الصبوح :

ألا ترى البســـتان كيف نورا   ونشر المنثور زهـــراً أصــفرا
وضحك الورد إلى الشــقائق   واعتنق الورد اعتنــاق وامــق
في روضـــة كحلل العروس   وخـــرمّ كهامة الطاووس

وياسمين في ذري الأغصان منتظم كقطع العقيان
والسرْو مثل قضب الزبرجد قد استمد العيش من ترب ند
على رياض وثرى ثريّ وجدول كالمبرد المجلّي
والسوسن الأبيض منشور الحلل كقطن قد مسّه بعض البَلل
وحلق البهار بين الآس جمجمة كهامة الشماس
وجلنار كاحمرار الخد أو مثل أعراف ديوك الهند

فإن ذلك يسهل لنا القول إنه نظم أرجوزته في المعتضد بدءاً دون أن يتأثّر بشاعر لا يعلم عنه مشرقي – فيما نظن – شيئاً ! أما أرجوزته المعتضدية فسلسلة لم تثقل بمرهقات الصور والتشابيه ، وسننقل هنا افتتاحها ليكون تمهيداً لحديثنا الآتي عن أرجوزة ابن عبد ربه ، لأن لدينا بعض ما يقال بصدد الشاعرين الكبيرين ، قال ابن المعتز في مطلع أرجوزته :

باسم الإله الملك الرحمن ذي العز والقدرة والسلطان
الحمد لله على آلائه أحمده والحمد من نعمائه
أبدع خلقاً لم يكن فكانا وأظهر الحجة والبيانا
وجعل الخاتم للنبوة أحمد ذا الشفاعة المرجوة
الصادق المهذب المطهرا صلى عليه ربنا فأكثرا
مضى وأبقى لبني العباس ميراث ملك ثابت الأساس
برغم كل حاسد يبغيه يهدمه كأنه يبنيه
هذا كتاب سير الإمام مهذباً من جوهر الكلام
أعني أبا العباس خير الخلق للملك قول عالم بالحق
قام بأمر الملك لما ضاعا وكان نهباً للورى مشاعا

فأنت ترى هذا النظم شبيهاً بقول العلماء لا بإبداع الشعراء وهو إلى أن يلحق بمتون العلوم أقرب من أن ينتسب إلى جوهر الأدب اللباب ،

ونحن لا نظلم ابن المعتز بهذا الحكم فللشاعر تحليقاته السامقة في أجواء أخرى غير هذه الأرجوزة ، ولكننا نظلم ابن عبد ربه الشاعر الأندلسي ظلماً فادحاً حين نجري حكمنا على أرجوزة ابن المعتز إلى أرجوزته الملحمية البديعة وهذا ما وقع فيه كثير من الكتاب .

فالدكتور أحمد هيكل — على حبه لابن عبد ربه — ومقاومة آراء من يغمضون عن قيمته الشعرية ، قد حكم على أرجوزته التاريخية حكماً قاسياً حين قال في كتابه (الأدب الأندلسي (ص ٢٥٧) :

« وكما عرف ابن عبد ربه بالمحّصات عرف كذلك بأرجوزته في الخليفة عبد الرحمن الناصر ، تلك الأرجوزة التي مجد فيها الخليفة ووصف حروبه وغزواته ، والحق أن تلك الأرجوزة أشبه ما تكون بالمنظومات التاريخية ، فليس فيها من عناصر الشعر شيء ذو قيمة ومن الإنصاف للشاعر والشعر أن تعد في إنتاجه التاريخي لا في تراثه الفني ! » .

هذا حكم الدكتور هيكل ! ولكننا نقرأ أرجوزة ابن عبد ربه فنجدها رائدة في حقلها الملحمي ، لأنها لم تسلك مسلك ابن المعتز حين صبّ حقائق التاريخ على طريقة المتون ، بل كانت أناقته الشعريةتسايره مسايرة واضحة ، وطبيعي أننا لا نطالب منه في عمل مبتدأ كهذا أو كاد أن يكون مبتدأ — أن يطير مع الخيال في أجوائه فيحمل أفكاره إلى مطارح عالية في جو من التصوير والإيحاء لأن ذلك لا يتيسر في فنّ ناشيء يحبو في مدارج الطفولة ، ولكننا نجد عنده بوادر الجودة حين نراه لا يغفل الوصف الدقيق ، ولا يعدو التصوير المونق ، فالملحمة أولا في بطل واحد ذي معارك مختلفة ، وثانياً تميل إلى ناحية الشاعر أكثر من ناحية المؤرخ ، وهو ما تعذر على ابن المعتز مع تفوقه في دنيا الأدب بعامة ! فابن عبد ربه مثلا يصف ازدحام الفتن قبل تولية الناصر فلا ينص على ذلك في حكم تقريري كمتون العلماء ولكنه يذكر كيف ضاقت الأرض بساكنيها وتخبط الناس في عشواء مدلهمة ، وأخذتهم الصيحة حتى حرموا الرقاد ، وتفزعوا في أوقات الصلاة

وجلين أن يدهمهم داهم ! وكل ذلك شعر ينحو منحى العاطفة فيثيرها كما يريد إذ يقول :

هـذا على حـين طـغى النفاق واستفحل النّكّـاث والمُـرّاق
وضاقت الأرض عـلى سكّانها وأذكت الحرب لظى نيرانهـا
ونحـن في عشـواء مدلهمـة وظلمـة ما مثلهـا من ظلمـة
تأخذنا الصـيحة كل يوم فمـا تلذ مقـلة بنـوم
وقد نصـلي العيـد بالنواظر مخـافة من العـدو الثـائر
حتى أتانا الغوث من ضيـاء طبق بين الأرض والسـماء
خليفـة الله الذي اصطفـاه على جميع الخـلق واجتبـاه

وهو إذا تعرض لهزيمة الأعداء لم يقتضب اقتضاب ابن المعتز ، ولم يخل بالوصف إخْلال عبد الجبار زميله الملحمي — وسنعرض له — ولكنه شاعر متأن متمهـل يمر ببنانه على أوراق الورد فلا يتعجل ! وهو بعـدُ في معركة حامية تلهب بالنار وتعج بالدماء فالعلجان — قائد الإفرنجة — خائفان مذهوبان ، يفران إلى حديقة يظنانها باب النجاة فتغدو حديقة الموت ، يتحصنان بمعقل فيصبح معتقلا ، يستطعمان الماء فتأخذهما السيوف وتتساقط الصخور ، ويمضي سيف الله ليقيم مأدبة حافلة ضيوفها الغربان والنسور وكم ذبح بها من جزور :

تضـافر الكُفر مع الإلحـاد واجتمعوا من سـائر البـلاد
فاضطربوا في سـفح طودٍ عـال وصعقوا البغية القتـال
فبـادرت إليـهم المقـدمة سـامية في خيلهـا المسومة
وردهـا متّصل يـرد يرده بحر عظيم المـد
فانهزم العلجـان في عـلاج ولبسـوا ثوباً من العجـاج
كلاهمـا ينظـر حينـا خلفـه فهـو يرى في كل وجه حتفـه
والبيضُ في آثارهم والسُـمرُ والقتـل ماض فيهـم والأسـر

فلم يكن للنـــاس من بــــراح وجاءت الرؤوس في الرمـــاح
فصـــادفوا الجمهور لمـــا هزموا وعاينوا قوادهـــم تخـــرموا
فدخـــلوا حديقةً للمـــوت إذ طمعوا في حصنها بالفـــوت
فيالهـــا حديقةً ويالهـــا وافتْ بهم نفوسـهم آجالهـــا
تحصـنوا إذ عايَنوا الأهــوالا بمعقل كان لهـم عقـــالا
وصخرة كانت عليهم صَيْلَمـاً وانقلبوا منهـا إلى جهنمـــا
تساقطُوا يستطعمـــون المـــاءَ فأخرجت أرواحهم ظمـــاء
فكم لسيفِ اللهِ من جـــزور في مأدب الغربان والنســـور

لا جرمَ نجد في هذه الملحمة روح الشعر ! وإذا ألحقها ناقدٌ بالنظم ، فقد ظلم ، وإنا لنقرؤها فنرى بها من الوقفات الرائعة ما تجود به قريحة شاعر مليءٍ ، فهو يتحدث عن انهزام قائدٍ ! إفرنجي فيصف المعركة في دقة ثم يقف بخياله عند القائد المنهزم وقد قتل ونصب مصلوباً في مدينة مع نفرٍ من معاونيه إذ امتطى في صلبه مطيةً قائمة لا تبرح جامدة لا ترمح(١) ، يقف مباشراً للشمس والرياح يندب نفسه ويرثي بلواه ويحذر أصحابه من سوء مصيره إذْ ورد موارد الخزي ونصب للناس مثـال الفشل والتهور والخذلان ! كل ذلك يسوقه ابن عبد ربه فيقول في إبداع :

هو الذي قام مقام الضـيْغمِ وجال في غراثة بالصـيلم
برأس جالوت النفـــاق والحسدِ من جمع الخنزير فيه والأسـد
فهاكه من صـحبة في عـــدة مصلّبين عندنا بالســـدة
قد امتطى مطيـــة لا تبـــرح صائمة قائمـــة لا تـــرمح
مطيـــةٌ إن يعُرهـــا انكســار يطلبها النّجـار لا البيطـــار
كأنه من فوقهـــا الســـوار عينـــاه في كلتيهما مسمـــار

(١) وهي بعـد مطية من خشب إذا انكسرت عالجها النجار لا البيطار ! أرأيت أبدع من هـذا ! ! !

مباشر للشمس والريـــــاح ... على جواد غــير ذي جماح
يقـول للخـاطر بالطـريـق ... قول محب ناصـح شـفيق
هـذا مقـام خادم الشيطـان ... ومن عصى خليفـة الرحمن
فما رأينـا واعظـاً لا ينطـق ... أصدق منه في الذي لا يصـدق !

إن وصفاً بديعاً كهذا يظلمه الدكتور هيكل حين يرى أنه أشبه بالمنظومات التاريخية وهو إلى تراثه التاريخي أقرب منه إلى تراثه الفني ، ويسبقه أستاذنا الدكتور أحمد أمين إلي حكم قريب من حكمه العنيف حين يرى بالجزء الثالث من ظهر الإسلام ص ١١٩ أن الأرجوزة أشبه ما تكون بالتاريخ المنظوم ليس فيها خيال ولا افتخار ولا شي ء من ذلك ! ! ! ثم يقارن ابن عبد ربه بأبي طالب عبد الجبار فيرى ص ١٢١ أن أرجوزة أبي طالب أقرب إلى الملحمة من أرجوزة ابن عبد ربه ! وهذا ما أعجب له كثيراً . . .

لقد عاش أبو طالب عبد الجبار في عصريْ ملوك الطوائف والمرابطين واشتهر بالشعر حتى عرف كما يقول ابن بسام بمتنبي الغرب وهو وصف تنازعه معه الرمادي وابن هانيء وابن دراج فكل هؤلاء لدى مواطنيهم يشبهون أبا الطيب ! وقد نظم ملحمة تاريخية متأثراً بسابقة ابن عبد ربه دون نزاع حيث إن الأرجوزة مدونة بالعقد ، وهو من الشهرة بالأندلس والمشرق معاً بمكانة توجب على أبي طالب وأضرابه أن يردوا مناهله ! ومع أنها من ناحية الكم تقارب ملحمة ابن عبد ربه إلا أن هناك فرقاً أصيلا بين الملحمتين فصاحب العقد الفريد قد اختص الناصر بملحمته فلم يركض في غير ميدانه وبذلك اتسع المجال أمامه للوصف البارع والإجادة اللافتة ، ولكن عبد الجبار بدأ أرجوزته بالتحميد والتسبيح وتعرض إلى ما سـماه مقدمات من أدلة المعرفة والاستدلال على الصانع تعالى من الصنعة وهو ضرب لا يتصل إلى الشعر بسبب - بل هو بمتن الجوهرة أو بمتن الخريدة في علم التوحيد أشبه ، كأن يقول :

وقـل بمـا يقول أهـل الحـق ... من مثبتي صفات رب الخلـق
وأدوات الحس يا من يفحـص ... عن علمها ومن عليها يحـرص
السـمع والأبصـار ثم اللمس ... والشم والذوق فتلك خمـس

ثم انتقل إلى باب التفكر في الملكوت فتحدث عن الأجرام والأفلاك والعناصر الأربعة حيث أطال ، ثم تطرق إلى باب بدء الخليقة وذرء البرية فألمّ بحديث آدم وحواء وقابيل وهابيل فإذا قال ما عنده انتهى إلى الأنبياء والمرسلين ثم إلى الخلفاء الراشدين فخلفاء الدولة الأموية فما وليها من رجال الدولة العباسية حتى إذا ذكر ما شاء الله أن يذكر من أسماء الخلفاء والوزراء والأصهار والكتاب تعرض إلى الدولة الأموية بالأندلس وتركها إلى الحديث عن الفتنة الأولى بقرطبة ثم ملوك الطوائف بعد ذهاب دولة ابن عامر وأمراء الجماعة بقرطبة ثم دولة المرابطين إلى عهد علي بن يوسف بن تاشفين ! فيالله من جهد جاهد ذهب في غير طائل لم تتخلله ومْضة شاعرية أو لمحة أدبية بل انصب على القول انصباباً يذكرنا بألفيات ابن مالك وجلال الدين السيوطي وابن معطي ! ومع ذلك يقول أستاذنا الدكتور أحمد أمين رحمه الله إن أرجوزة أبي طالب أقرب إلى الملحمة من أرجوزة ابن عبد ربه ! يخيل إليّ أن الأستاذ رحمه الله حاول أن يقول العكس فسبق قلمه وإلا فهو من الفطنة والبصيرة والذوق بحيث لا يصدر عنه هذا الرأي في بساطة مستغربة ! مهما يكن من شيء فقد ذكر ابن بسام أرجوزة أبي طالب بالقسم الثانيَ من المجلد الأول كما ذكر ابن عبد ربه ملحمته بالعقد فليرجع إليهما من يريد الموازنة عن عيان ! على أن هناك أرجوزة ملحمية أُخرى للشاعر الأندلسي يحيى بن الحكم الملقب بالغزال وكان شاعراً مطبوعاً يتشبه بأبي نواس في افتنانه ونزعته إلى التجديد ، ويقوم بالسفارة السياسية بين ملوك العرب والروم ، وقد أشار المقري في النفح إلى هذه الأرجوزة وذكر شيئاً منها ! وإن وجود أربعة أراجيز تاريخية بالأندلس لينبيء عن مثيلات لا نعرف عنها شيئاً ، وهو مما يؤيد الأستاذ « ريبيرا » في شيوع هذا الضرب من الملاحم وانتشاره ثم في تأثيره فيما بعد في الأدبين الإسباني والفرنسي معاً .

وكان من المحتمل أن ينتشر هذا اللون في المشرق والمغرب معاً على أن تكون الأندلس رائدته الأولى دون شك ، ولكن غفوة التجديد فيما بعد زوال الأندلس وطغيان المحاكاة في عصور المماليك وما وليها من عهود الانحطاط

في الأدب العربي قد قضى على هذا الاحتمال ، حتى جاءت النهضة الحديثة وأحس الشعراء في أوائل القرن العشرين بسيطرة الاستعمار الغربي ومحاولته الجاهدة في إخماد الروح العربية والإسلامية معــاً ، وكان حاضر الدول العربية إذ ذاك من الاحتلال والسيطرة الأجنبية مما يدعو الشعراء إلى التغني بالأمجاد العربية الإسلامية القديمة كي يوقظــوا الهمم ، ويبثوا الحمية في النفوس ! فانطلق شعراء هــذه الحقبة يتغنون بأعلام الإســلام وأبطال العرب ، تحدث حافظ إبراهيم عن عمر في قصيدته الشهيرة :

حسب القوافي وحسبي حين ألقيها أني إلى ساحة الفاروق أهديهــا

وتحدث محمد عبد المطلب عن الإمام علي بن أبي طالب في علويته الرائعة :

أرى ابن الأرض أصغرها مقامــا فهل جعل النجــوم له مرامــا

زهاه رونق الخضـــراء لمـــا تلفت في مجرتهـــا وشامـــا

وتحدث عبد الحليم المصري عن أبي بكر الصديق في بكريته الذائعــة :

أفضي أبا بكر عليهم قوافيـــا وأمطــر لســاني حكمته ومعانيــا

وقل لرسول الله لا يخز ذلـــتي إذا لم أكن فيه بقولي باديـــا

وكانت هذه القصائد الحماسيّة وأمثالها تقال في حفلات عامة تنهض بها لجان محترمة تضم أفاضل المصريين وقد رأس بعضها شيخ شعراء مصر إسماعيل صبري ولعل من البديع أن نذكر أن الشاعر البدوي محمد عبد المطلب أنشد علويته في حفل دائري بالجامعة وكان يركب جملا ويرتدي عقالا بدوياً وملابس عربية ، ويقود زمام مطيته عربيان صميمان أحدهما عبد الستار الباسل عضو الشيوخ مما يصور حنين النفوس إلى أمجاد العرب ، وذكريات الإسلام !

أما شوقي ، فقد أدلى بدلوه في الدلاء ، ونظم أرجوزته المعروفة « دول العرب وملوك الإسلام » سنة ١٩١٩ ، وقد أجرى القول فيها على سنن ابن عبد ربه مما يشعر باحتذائه المتابع ! ! ولا أدري لماذا اكتفى شوقي في ملحمته التاريخية بالسرد التاريخي وحده ، وهو قدير على أن يبعث من روحه

الشاعرية ما يجعل أرجوزته جديرة باسمه ! ! لقد كان لشوقي من ثقافته الغربية في فرنسا ما يدعوه إلى أن يفهم من الملحمة غير ما فهمه ابن عبد ربه ! ولكنه يحتذي الشاعر الأندلسي غير عابيء بما تتمخض عنه الدراسات الأدبية من بحوث ناقدة تحدد صلة الشاعر بالتاريخ وترى في استلهام الحوادث شيئاً آخر غير السرد المتتابع ، والحكاية السريعة ! ! بل إن من الغريب أن تكون أرجوزة ابن عبد ربه أوفى في شاعرية من أرجوزة شوقي ! ونحن نذكر منها نموذجاً يعتبر من أحسنها وأوفاها إذ يتحدث شوقي عن وداع عبد الله بن الزبير لأمه قبل مصرعه ! ومع أن الموقف عاطفي مؤثر يقتضي من الشاعر أن يبعث حرارة ملتهبة في قوافيه إلا أن شوقي كان قصاراه أن يقول :

وضاق عبد الله عن عبد الملك	ورأيه الوضاح في الخطب الحلك
فجاءَ أُمّه ومَن كامّه	لعلها تحمل بعض همّه !
فقال ما ترين ؟ فالأمر لك	للموت أمضي أم لعبد الملك
قالت إذا كنت لحق ٍ ثُرْتَا	فلا تخالف ما إليه سرتا
أو كانت الدنيا قصارى همتك	فبئس أنت ، كم دم بذمّتك
الحقْ بأحرار مضوا قد أحسنوا	فالموت من ذل الحياة أحسن
ولا تقل هُنت بوهن ممن معي	فليس ذا فعل الشريف الألمعى
أنت إلى الحق دعوت صحبكا	فاقض كما قضوا عليه نحبكا
ولا تقل إن مَتَّ مثّلوا بي	وطاف أهل الشام بالمصلوب
هيهات ما للسلخ بالشاة ألم	ورب جذع فيه للحق علم

أما الشاعر الكبير الذي يمكن أن يذكر في هذا الموقف بالثناء والحمد فهو الأستاذأحمد محرم إذ نظم المواقع الإسلامية الأولىعلى عهد الرسول في إلياذة ضافية تشمل أربعة أجزاء ، وقد كافأه الله على نيّته فنهضت محافظة البحيرة بطبع الياذته والاحتفال بذكراه ، وهي إلياذة قوية تمخضت بذرة الملاحم الأندلسية عن دوحتها المورقة ! ولبعض الناقدين ملاحظات على طريقتها ! ولكنها مع ذلك إبداع ملحمي فريد في الأدب العربي ! وهو تطور طبيعي لخطوة ابن عبد ربه وأضرابه ، فهي مما يذكر في هذا الباب مشيراً إلى بعض ألوان التأثر بين السابقين واللاحقين !

لماذا ضعف تأثير الموشحات في الأدب العربي؟

ما أكثر ما كتب عن الموشحات ! وما أقل ما اهتدى فيها إلى رأي مصيب ؛ إن الذين يتحدثون عن الموشحات الأندلسية يعدونها وثبة في ميدان الانطلاق ، وخطوة في طريق التحرر ! ويأسفون أسفاً بالغاً لعدم ازدهارها فيما جد من عصور الأدب ! زاعمين أن تحجرها الجامد كان خسارة فادحة لتجارة عظيمة ، لو رزقت تاجراً مجتهداً ، لجادت بالربح الطائل والخير الوفير ! وعلينا الآن أن نكشف عن معدن الموشحات لنرى إن كان ذهباً نفيس القيمة أم أنه ذو طلاء مموه يخدع عن حقيقته الأبصار !

ولنا أن نسأل : أنشأت الموشحات استجابة لرغبة شعرية في الانطلاق من القيود والتحليق بالمعاني في أفق رحيب ! أم أنها نشأت لرغبة غنائية في مجتمع يحتفل بالشدو والترجيع ، وتضج به الأوتار والعيدان !

إن المعروف أن الأندلس صارت منذ وفد إليها زرياب من بغداد معهداً فنياً للغناء ، تعطى دروسه في قصور المترفين من الملوك والرؤساء ، وتحتشد طلابه وطالباته من أولى الحناجر الذهبية ، والمواهب الفنية من شبان وشابات ومن حرائر وإماء ! حتى كان زرياب يأخذ راتباً شهرياً يحسد على نفاسته ويُهدى له فوق راتبه في المواسم والأعياد من القصور والبساتين والخلع ما يعيش به عيش الأمراء المترفين ، وقد أخلص هذا الفنان الموهوب لفنه ، فزَادَ وتراً خامساً في أوتار العود ، واتخذ من قوادم النسور مضراباً مرهفاً ، ووضع تقاليد جديدة لمجالس الغناء بدءاً وخاتمة ، وتمرس في تلاميذه وتلميذاته فاختار الموهـوب المصقـول ونبه عليه الناس ، فجعل العلية من المترفين يتسابقون إلى اصطفاء هؤلاء ، وأخذت مجالس الغنـاء تصدح صباح مساء ، لا يتورع عن غشيانها بعض القضاة ، بل إن قاضي

الجماعة محمد بن أبي عيسى خرج لصلاة الجنازة مرة ، فوُجدت على كفه أبيات غزلية سمعها في مجلس الغناء ولم يكن معه ورق ، فسجلها على كفه حتى يحفظها أو ينسخها ، وكان الشعراء يدعون من أقاصي الأماكن ، ليسمعوا المغنين أشعارهم ، فيأخذوا منها ما يتفق والغناء ! ومن سار لأبياته ذكر في محافل الطرب والغناء تعاظم وافتخر وعد نفسه أصيلا في عالم الفن الرفيع ! وكان الذين يعبرون الطرق من المارة يحبسون خطواتهم حين تصل إلى أسماعهم أصوات الغناء من القصور وقد يتعلقون بالأبواب والنوافذ ليأتيهم الصوت من مكان قريب ، حدث أن ابن عبد ربه الفقيه الأديب الشاعر كان يمر ببعض القصور ، فوصل إلى سمعه من الغناء ما قيد خطوة فأخذ يسترق السمع في الظلام ماصقاً أذنه بالجدار ، ولكن صاحب المنزل يرى شبحه ، دون أن يعرفه فيصب عليه ذنوباً من الماء كي يحجم عن هذا الموقف الغريب ! ولو كان صاحب العقد لا يحتفل بالغنـــاء احتفالا يأخذ عليه أقطار السموات والأرض لتسلل إلى منزله خزيان خجلا ، ولكن حاجته الفنية إلى سماع الصوت تدفعه إلى أن ينظم من الشعر ما ينفس عن صدره ويقدمه إلى صاحب المنزل مخاطباً إياه :

يا من يضن بصوت الطائر الغـــرد ... ما كنت أحسب هذا الضن من أحد

لو أن أسماع أهل الأرض قاطبـــة ... أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد

فتبلغ الأبيـــات مبلغها ، ويخرج صاحب القصر معتذراً نادماً ، ويدعو الأديب الفنان فيغير ملابسه ويقضي الليل في طرب وسماع ! ولا يظن أحد أن التورع قد فُقد لدى الناس ، ففي كل بيئة يوجد الصالح والطالح ، ، والقضاة مظنة الصلاح في أكثرهم فإذا شذ بعضهم فهو استثناء ، نأسف له .

هذا الجو الغنائي الذي يتعشق الشدو والطرب مع إبداع زرياب ومن سار سيره ! حين جعل الألحان تختلف بدءاً ووسطاً وخاتمة في الطول والقصر والارتفاع والانخفاض ، قد أوحي للشعراء أن يبدعوا الموشحات فيشبعوا حاجة فنية لم تكن قائمة لدى مجالس الطرب ببغـــداد ! ولهذا كان الموشح

الأندلسي استجابة لنهضة موسيقية جديدة! ولم يكن انطلاقاً للمعاني والأحاسيس وتحرراً من قيود القوافي كما يحاول أن يصور ذلك كثير من الكتاب !

تلك قضية هامة ! تحتاج إلى بسط وتوضيح ، لأن جمود الموشح وتحجره اليابس على ممر العصور يدفعنا إلى أن نشخص بواعثه وأغراضه وندرك علله وأوصابه لنسأل أنفسنا عنه ، أكان يحمل عناصر البقاء في تكوينه ؟ أو أن نماءه المتوقع لدى بعض الباحثين لم يكن مما يتيسر ! إذ أن الموشح لم يكن منذ نشأته دعوة إلى التحرر والانطلاق بقدر ما كان ردة إلى القيود والأوهاق .

إن النظرة الساذجة إلى خلاص بعض الأبيات في الموشح من القافية قد سببت هذا الفهم المخطيء ، ولكن النظرة الفاحصة ترينا في جلاء أن الموشح قد خلص من قيد ليرتطم في قيود وأنه سار خطوة واحدة ثم ارتد سريعاً إلى الوراء خطوات ، فلم يتيسر له — والحالة هذه — بعض الانطلاق .

وقبل كل شيء يهمنا أن نقرر بسرعة عاجلة أن الثورة على القافية قد بدأت قبل ظهور الموشح وفي مكان غير مكانه ! فمنذ جاء العهد العباسي ، ومسلم بن الوليد وأبان اللاحقي وبشار وأبو العتاهية ينظمون الرجز في القافية المزدوجة كقول أبي العتاهية مثلا :

حسبك مما تبتغيه القوت ... ما أكثر القوت لمن يموت

إن الشباب حجة التصابي ... روائح الجنة في الشباب

إن الشباب والفراغ والجدة ... مفسدة للمرء أي مفسدة ! !

كما نظمت المربعات والمخمسات والمسمطات ! ! وهي كلها ثورة على القافية في الصميم ودعوة إلى الانطلاق الفني ! كي يجد الشاعر مجالا رحباً للتحليق ! وفي الأندلس نفسها كانت المزدوجات والمربعات والمخمسات ذائعة مشتهرة ! وقد نظم ابن زيدون من المخمسات أكثر من مرة ! وهو شاعر تقليدي يحتذى المشرق ! ولو قدر للشعراء أن يكثروا القول عن هذه الألوان الجديدة لاستطاعوا أن يثبتوا وجودها الفني ، فتألفها الأذواق

بكثرة الترداد ! ولكنهم كانوا يبدءون ثم يحجمون ، وكأني بهم يخافون الاتهام بالعجز عن امتلاك القافية والاقتدار عليها ، فهم — مع اتجاههم إلى الجديد — يرتدون ثانية إلى عمود الشعر وما أكثر عشاقه ومريديه .

هذا النوع من المربعات والمخمسات والمزدوجات كان دعوة للتحرر ونقطة تجديدية تنتظر غيرها ! فهل تشبه الموشحات في ذلك لوناً منه أم أنها أثقلت نفسها إثقالا بالقيود ! فكبت بأصحابها عن اللحاق ! ! !

يتحدث الدكتور أحمد أمين عن دور الموشحة ونجاحها فيقول (١) :

« على كل حال ابتكر الأندلسيون فن الموشحات والأزجال في أوربا ، وهذا يضاف إلى تأثير الأندلسيين في الغرب ، وقد دعاهم إلى ذلك ما أحسوا من ثقل القيود في الشعر الفصيح من أوزان ووحدة قافية وقيود إعراب فجاءت نوبة هاجوا فيها على هذه الأوضاع كما هاج أبو نواس على بكاء الأطلال ، وقد نجحت الموشحات والأزجال لأن الناس استجابوا إليها في حماسة إذ رأوها تعفيهم من القيود وتحررهم من التزام قافية واحدة وتسمح لهم باستعمال الكلمات العامية الظريفة وتحررهم من قيود الإعراب »

والمفهوم الصريح من هذا القول أن الموشحات — وقد قرنها الأستاذ بالزجل في جميع الأحكام — تحقق قيود الوزن والقافية ! وتدفع ناظمها إلى التحرر كي يفيض في معانيه كما يشاء ! ولو أن الأمر كما قال ! لرأينا فيما لدينا من الموشحات شرقية وغربية فيضاً من المعاني المبتكرة ، ونمطاً من الخيال الرائع المحلق ، ولكنك بكل أسف — تقرأ الموشح فلا تجد فيه ما بالقصيدة من عمق الفكرة ، وبراعة التصوير ! وانسياب العاطفة ! وأعمد إلى الدليل من أقرب طريق ، فأقول إن ابن سناء الملك قد جمع في كتابه « دار الطراز » عدداً كبيراً من هذه الموشحات ! فهل إذا قرأها القاريء متوالية أحس لها من الارتياح والنشوة ما يجده لدى كتب المختارات

---

١) ظهر الاسلام جـ ٣ ١٩٨ .

الشعرية من حيوية وتصوير وعمق وافتتان ! أو أنها تتوالى متشابهة متماثلة لا ترتفع إلى معنى رائع إلا في القليل النادر وتكاد تدفع قارئها إلى التثاؤب والسأم ! أما السر في هذه الضحولة السطحية ، والتشابه المماثل فإنه يكمن في طريقة نظمها وما ترزح تحته من الأغلال . . .

يقول ابن بسام في ترجمة أبي بكر عبادة بن ماء السماء ، (١) : «وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقتها ، ووضعوا حقيقتها ، غير مرموقة البرود ، ولا منظومة العقود فأقام عبادة هذا منآدها ، وقوم ميلها وسنادها ، فكأنها لم تسمع بالأندلس إلا منه ، ولا أخذت إلا عنه واشتهر بها اشتهاراً غلب على ذاته وذهب بكثير من حسناته .

وهي على أوزان كثر استعمال أهل الأندلس لها في الغزل والنسيب ، تشق على سماعها مصونات الجيوب بل القلوب ، وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقنا ، واخترع طريقها – فيما بلغني – محمد بن حمود القبري الضرير ، وكان يصنعها على أشطار الأشعار ، غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة ، يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركز ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها ولا أغصان ، وقيل إن ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد أول من سبق إلى هذا النوع من الموشحات عندنا ، ثم نشأ يوسف بن هرون الرمادي فكان أول من أكثر فيها من التضمين في المراكيز يضمن كل موقف يقف عليه في المركز خاصة فاستمر على ذلك شعراء عصرنا ثم نشأ عبادة هذا فأحدث التغيير ، وذلك أنه اعتمد مواضع الوقف في الأغصان فيضمنها كما اعتمد الرمادي مواضع الوقف في المركز » .

ويقول العلامة ابن خلدون في مقدمته بعد حديث عن الموشحات : « وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معافر القبري من شعراء

---

(١) الذخيرة لابن بسام ٢/١ الصفحة الأولى .

الأمير عبد الله بن محمد المرواني وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله بن عبد ربه صاحب كتاب العقد ، ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر ، وكسدت موشحاتهما فكان أول من برع في هذا الشأن عبادة القزاز شاعر المعتصم ابن صمادح صاحب المرية ، وقد ذكر الأعلم البطليوسي أنه سمع أبا بكر بن زهر يقول : « كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز » (١) .

ولا يهمنا من هذين النصين ما بهما من الاختلاف حول اسم المخترع الأول للموشحات ولا تحديد مكانة ابن عبد ربه في الموشح رائداً كان أم غير رائد ! ولا الاختلاف في أول البارعين أهو عبادة بن ماء السماء أو عبادة القزاز ، ولكن الذي يهمنا من ذلك هو أن لدينا نماذج من توشيحات عبادة بن ماء السماء وعبادة القزاز الأول باعتراف ابن بسام أول مُجدّدٍ مجيد ، والثاني باعتراف ابن خلدون أول مُجدد مجيد وكلاهما معاً يقدم بين يدينا آية سبقه ، ودليل جودته فيما بقي متداولا من توشيحاته !

فلننظر إلى وثيقتيْهما الباقيتين في مقدمة الموشحات الذائعة لنرى بعد ذلك أتحملان عناصر البقاء والنماء ؟ أتصلحان للريادة والتوجيه ؟ أيمكن أن نفهم منهما — ومما احتذاهما بعد ذلك — ما فهمه الدكتور أحمد أمين من الثورة على القيود في القصائد والعصف بالأغلال في القوافي ؟ أم أنهما ارتدا إلى الوراء كما نريد أن نقول ، قال عبادة بن ماء السماء المتوفي سنة ٤٢٢ :

من ولى في أمةٍ أمراً ولم يعدل   يُعْزَلِ إلا لحاظ الرشأ الأكحل

جرت في حكمك في قتلي يا مسرفُ

فأنصف فواجب أن ينصف المنصف

وارأف فإن هذا الشوق لا يرأف

عللِ قلبي بذاك البارد السلسل   ينجلي ما بفؤادي من جوىمشعل

إنما تبرُزُ كيْ توقد نار الفتن

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٨٤ ط مصطفى محمد .

صنماً مصوراً في كل شيء حســـــن
إن رمَى لم يخط من دونِ القلوب الجنن
كيف لي تخلّصي من سهمك المرسل فَصِلِ ، واستبقني حياً ولا تقتل
يا سنى التعس وأبهـــى من الكوكب
يا منى النفس ويا سؤلي ويا مطـــلبي
ها أنا حـــل بأعـــدائك ما حـــل بي
عذ لي من ألم الهجران في معـــزل والخلى في الحب لا يسأل عمن بلي
أنت قد صيرت بالحسن من الرشد غي
فاتئـــد في طرفي حبك ذنب عـــلى
فائئـــد وإن تشـــأ قتـــلي شيأ فتي
أجمل ووالني منك يد المفضل فهي لي من حسنات الزمن المقبـــل
ما اغتـــذى طرفي إلا بســـنى ناظريك
وكذا في الحب ما بي ليس يخفى عليك
وكذا أنشـــــد والقلب رهين لديك
يا على سللت جفنيك على مقتلي فابق لي قلبي وَجُدْ بالفضل يا موئلي

ولبيـــان الإرهاق والعسف من القيود والأغلال في هذا الموشح ، نمضي في إيضاح أصفاده الثقيلة فنرى أنه في اصطلاح القول موشح تام لا ناقص لأنه مكون من ستة أقفـــال ، وخمسة أبيات ، والموشح التام هو النموذ ج الكامل لديهم للبناء الفني الأنيق .

فإذا نظرنا إلى الأقفال نجد أنها في جميع الموشح تلتزم في الضرب قافية اللام فهي من هذه الناحية تتفق مع القصيدة الشعرية ولكنها تزيد عليها بقيدين ثقيلين فهي لا تقتصر على اللام في الضرب ، ولكنها توجبها في العروض أيضاً ، وهو قيد جديد لا نراه في القصيدة الشعرية ، إلا في المطلع

أحياناً والشاعر لا يتقيد به كثيراً إذ قد يصرع أولا يصرع دون التزام ! ثم يأتي قيد جديد آخر وهو تقفيه التفعيلة الأولى من شطري القفل ! ! وإذن ففي السطر الواحد (وهو القفل) أربعة قيود ! ! مع أنه في القصيدة التي تجري على عمود الشعر لا يزيد عن قيد القافية فحسب ! ! وقلْ لي بعد ذلك أيستطيع الشاعر الوشاح أن يعبر عن معانيه النفسية في الأقفال ! أم أن هذه المآذق المتلاحقة تجعله يبحث عن اللفظ المتفق مع النغم دون تقيد بالمعنى المختلج في النفس ! فأين الانطلاق المزعوم إذن ! !

هذا بالنظر إلى الأقفال ، أما الأغصان فالقافية نوعت في مقطوعاتها الخمس ! ولكنها لم تكد تشعر بحرية التنوع حتى اصطدمت بقيد أعتى وأثقل إذ أن كل شطرة من شطرات الغصن لا بد أن تبدأ بتفعيلة مقفاة ! جُرت فيِ ، فأنصفِ ، وأرأفِ كما في الغصن الأول ، وعلى سننه يسير مايليه ! وإذا كان الشطر من الغصن يبحث عن قافيتين أولاهما في أوله ، والثانية في آخره فأي حرية تلك التي تمتع بها ! ! وإذا أردنا أن نقيسه بالشطر من القصيدة ذات القافية الواحدة فهل نجد لديه ما لديها من السعة والانفساح ! ! هذا هو عبادة بن ماء السماء وتلك أول موشحة وصلت إلينا في قائمة الموشحات ! ! أما موشحة عبادة بن القزاز فتالية لها وهي هذه :

بأَبي ظبيُ حِمَـــى تكنفــه أســد غيــل
مَذ هَــبي رشـــف لمى قرقفــه ســـلسبيل
يســتبِـي قــلبي بمــا يعطفــه إذ يميــل

ذو اعتــدال يعزى إلى ذي نعمة ثابتْ
في ظــلال تحت حلي قطر ندى بابتْ

وفتـــور ذو غنـــج ذو مرشـــف أَلْمَـــس
العبـــير في أرج والحسن في ملبـــس
كم يشـير وجـــد شبح بالدنــف مــكتس

ذو اعتــلال لو عللا أنطق من ساكت

وغـــزال لو مقــلا ألحظ عن باهت

نيــر حـــدا الهـــوى أن يجــدوا حـــده

كوثر ســـــر الصدى أن يردوا ورده

انظــروا محمـــــدا واتئـــدوا عنـــده

في هـــلال لو يجتلي جل عن الناعت

وزلال لو بذلا يرتقي للقــانت

بدر تــمْ شـمس ضحـي غصـــن نفــا مسك شم

ما أتــمْ مــا أوضــــحا مــا أورقـــا مــا أنــم

لا جــرم مَن لمحــــا مُذ عشقــا قــد حــرم

والقاريء لا يحتاج أن ندله على التعسف المرهق في الأقفال والأغصان جميعاً مما نجزم معه جزماً أكيداً أن الوشّاح هنا ناظم في مجال ذهني صارم لا ينقــل فيه عن عاطفة ما ولكنه قريب من شعراء التواريخ الذين يجمعون الحروف والكلمات مطابقة للعام الذي يريدون ! وحسبهم أن يوفقوا إلى ذلك في أي عبارة تكون ! والذين يحكمون على الموشحة بأنها ميدان للتحرر ليسوا في رأيي بشعراء يعرفون مضايق القافية ومرهقات الوزن ! وإنمــا نظروا نظرة طائرة إلى الأغصان وحدها في الموشح فوجدوها متنوعة القوافي فوهموا أن ذلك مجال حرية شاسعة ، وجاءت أحكامهم تطابق ما يتوهمون ! !

قد تكون لدينا موشحات أقل رهقاً ، وأخف حملا من هاتين الموشحتين الزائدتين ، وأقرب ما نقع عليه من ذلك موشحة ابن سهل البديعة :

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى قلب صبٍّ حلّه عن مـــكنس

فهــو في حرٍّ وخفــق مثلمــــا لعبت ريحَ الصــبا بالقبس

وموشحة ابن الخطيب التي عارضها بها ومطلعها :

جادك الغيث إذا الغيث همـــــى يازمان الوصل بالأنـــــــدلس
لم يكـــن وصلك إلا حلمـــــاً في الكـــرى أوخلسـة المختلس

فهاتان الموشحتان بديعتان حقاً ! وذلك لأن قيودهما في الأقفـــال والأغصان أخف وأهون من قيود الموشحتين الأوليين ! ولذلك اتسع المجال فيهما للتعبير عن بعض المعـــاني الرائعة ، وتصوير الإحساسات البديعة ! ! ولكننا مع ذلك الاعتراف نرى قيودهما أثقل من قيود القصيدة التقليدية ذات القافية الواحدة ! ! وترى المجال لدى الشاعر أرحب سبيلا وأوسع أفقاً منه لدى ابن سهل وابن الخطيب حين لجأ إلى التوشيح ! ! ولي أن أتساءل بعد ذلك لماذا لم يظهر من القرن الخامس الهجـري إلى الآن وشّاح عظيم ، يحتل مكانته العالمية لنبوغه في الموشحة وحدها ! ولماذا نجد شاعراً كبيراً كشوقي يعشق الأندلس فيحاول أن يعارض موشحاتهم كعادته مع السابقين من الشعراء فلا يفعل ذلك على تمرسه بالنظم في عمره المديد غير مرة واحدة في موشحته عن الداخل ! يبذل في نظمها جهداً تلمسه وراء الشطور والكلمات وكأنه إذ من الله عليه بالانتهاء أقســم ألا يعود ! ! ! إن السبب الأصيل في جمود الموشحات هو أنها لا تحمـــل عناصر النماء بما يثقلها من أصفاد .

على أن عشاق الموشحات لا يفتأون يختلقون لهـــا الحسنات فإذا قال الأستاذ أحمد أمين إنها تســـاعد على الحرية والانطلاق — وقد عرفنا مبلغ ذلك من الصواب — وجدنا الدكتور الفاضل عبد العزيز الأهواني يسجل لهـــا فصلا جديدا حين يقول (١) :

« ونحن جميعاً نعرف الطابع الذي اتخذته القصيدة العربية ثم جمدت عليه خلال العصور التالية كما هي قصيدة تنظمها قافية واحدة ، خلافاً

(١) مجلة المجلة : عدد فبراير سنة ١٩٥٧ ص ٩٢ .

للشعر القديم عند اليونان والرومان وغيرهم فإنه لم يصطنع نظام القوافي ، وكانت هذه القافية الموحدة تكلف الشـاعر العربي كثيراً من المشقة وتجعل القصيدة وإن اكتسبت بذلك تنغيماً لا شك فيه ، تحمل غير قليل من السآمة والملل ، فكان التوشيح ثورة في هذا الجانب فلم يلتزم هذه القافية الموحدة ، وإنمـا نوع في القوافي فاشتملت الموشحة الواحدة على قواف عده تثير الشعور بالطرافة والتجدد ، وكانت القصيدة العربية زيادة على ذلك تتخذ البيت على قصره وحدة مستقلة قائمة بنفسها يكمل فيها المعنى ولم يتجاوز ذلك إلا في حالات يسيرة اعتبرت ضعفاً من الشاعر وكان نتيجة لهذا أن أصبحت القصيدة أبياتاً ينقصها التماسك ، وينقطع معها نفس الشاعر ، ونفس المستمع أحياناً كثيرة أما الموشحة فقد ثارت على هذا الوضع أيضاً ، فلم تكن وحدتها البيت ، وإنما كانت المقطوعة التي تشمل على جزأين : الغصن والقفل ، وربما بلغ مجموع الغصن والقفل أي المقطوعة ثمانية أضعاف البيت الواحد ، ومعنى هذا أن نفس الوشاح يجد له له مجالا أوسع ، ومعناه أن تكون الموشحة أطول امتداداً منها في القصيدة ونظرة بسيطة إلى ما نظمه شاعر مثل لسان الدين بن الخطيب من قصائد وموشحات يثبت قيمة هذا الفرق بين الفنين » .

فالدكتور الأهواني بعد أن جزم بأن القافية الواحدة في الشعر العربي تعوق وتسئم وتمـل، وبعد أن برأ الموشحة من كل ذلك أضاف لها فضلا جديداً حين أعلن أنها تلتزم الوحدة لأن البيت بها (وهو مكون من القفل والأغصان) يجعل نفس الوشاح أوسع وأطول ويتيح له مزيداً من البحث والتحليل والاطراد ، ولن يكون ذلك في القصيدة العربية التي كانت تنشد وحدة البيت لا وحدة القصيدة . وهذا الكلام يقال نظرياً فقط لا عملياً ، لأننا حين نقرأ أبيـات الموشحة نلمس بها غالباً مانلمسه في القصيدة من انفكاك في المعاني ، واجتزاء في القول ، ودليلنا الواضح أننا قد استشهدنا في هذا البحث بقصيدتين مشهورتين لوشاحين كبيرين هما عبادة بن ماء السماء وعبادة بن القزاز فليرجع الدكتور الأهواني إليهما وليُقدم ما يشاء

ويؤخر في الأقفال والأغصان ! فسيجد النهج لا يختلف عن منهج القصيدة الطويلة بحـال ، ليأت بأي موشحة وليقرأها سفلا وعلوا ، وتقديمـاً وتأخيراً ، فسيجد الوحدة التي يتحدث عنها لا تكاد تذكر ! أجل هناك موشحات قليلة متماسكة متلاصقة تنبيء بالوحدة الكلية ! ولكن مع ذلك أيضاً لدينا في الشعر العربي القديم والحديث قصائد كثيرة لا تعوزها الوحدة بحال ، فالفضل في ذلك إذن لا يرجع لموشحة أو قصيدة ، ولكنه يرجع إلى معدن الناظم ومنحاه ونظرته وعمقه في التحليل وفلسفته في الصياغة والتوليد ! ! وإذا كان الدكتور يرى أن البيت في الموشحة بجزئيه (القفل والغصن) يعطي في مدى قد يصل إلى ثمانية أبيات وحدة تامة لا تتاح لبيت واحد من القصيدة المقفاة ! فماذا يقول حين يرى في أكثر الموشحات شبه انفصام بين الاقفال والأغصان ، وهما بيت واحد في الاصطلاح ، ليعاود الدكتور الفاضل معي القراءة من جديد ، فقد ينتهي إلى تعديل يغير من حكمه السريع !

أما الباحث الفاضل الدكتور إحسان عباس فيرى للموشح الأندلسي مزية ثالثة قال عنها : « ومن ثم نرى أن الموشح هو أول ثورة حققها الشعر العربي في إيثار للإيقاع الخفيف الذي يقرب الشقة بين الشعر والنثر فأضعف من أجل ذلك العلاقات الإعرابية كثيراً ، وذلك أننا نقول حقاً إن الموشح معرب ، ولكن الإسكان بالوقف في التجزئات القصيرة ، واختيار الألفاظ التي لا تظهر حركات الإعراب في أواخرها يجعلان العلاقات الإعرابية ضعيفة ، ويحيلان الموشح إلى مستوى قريب من مستوى الكلام الدارج إذ أين هى العلاقات الإعرابية في قول الوشاح :

مـا أتـم مـا أوضحـا   مـا أورقا مـا أنـم
لا جـرم من لحـا   قد عشـقا قـد حـرم

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ص ٢٤٤ للدكتور إحسان عبـاس .

هذا كلام الدكتور إحسان وهو عجيب حقاً ! لأنه يفهم من العلاقات الإعرابية العلاقات الظاهرة فقط لا المستترة ولا المقدرة ، واستشهاده هنا مبتور لا يصح على الإطلاق فإين يرجع الضمير في قوله أتم وأوضح وأورق وأنمّ ؟ إنه يرجع إلى أول القفل وهو قوله :

بدرتم شمس الضحى غصن نقا مسك شم
ما أتم ما أوضحا ما أورقا ما أنم

وإذن فلا بد للدكتور أن يستشهد بأول القفل ، ليعود الكلام أمام القاريء إلى مذكور لا إلى غائب يبحث عنه فلا يجده ! فالعلاقات الإعرابية على أتمها لم يتطرق إليها وهن كما يتخيل الدكتور ! ! إذ أن الوشاح يريد أن يقول ما أتم البدر وما أوضح شمس الضحى وما أورق الغصن وما أنم المسك ! !

ولا أدري كيف يكون الإسكان بالوقف في التجزئات القصيرة واختيار الألفاظ التي لا تظهر حركات الإعراب في أواخرها مما يقرب الشقة بين الشعر والنثر ! أي نثر يقصد الدكتور إذا كان مراده النثر العربي مقالة ورسالة وخطابة وقصة فهو مما يتقيد بالحركات الإعرابية ولا يقبل التسكين كالشعر سواء بسواء ! إذا كان يقصد بالنثر (المحادثة باللغة العامية الساكنة الأواخر فهي ليست بنثر عربي) حتى نبحث عن صلتها بالموشح العربي ! ! ! ليقل إذن إن الموشح خطوة لمسايرة المحادثة العامية ! وليعد ذلك فضلا كبيراً له إن أراد . . .

وكلنا نعرف أن المعاني في الشعر الأندلسي بعامة — إلا ما ندر — قريبة الغور سهلة المتناول ، إذ لا نجد في رجاله من يغوصون على الأفكار كذوي القمم العالية من شعراء المشرق ، وإذا كنا نعجب بابن زيدون أو ابن خفاجة أو ابن دراج فكل هؤلاء هضبات متقاربة لا تناطح جبالاً شماً تدعى بأسماء المتنبي وأبي تمام وابن الرومي والمعري ولعل إهمال الفلسفة والبعد عن دراستها في مدى طويل من حياة الأندلس العربية قد ساعد على

ما نراه من قرب الأفكار وبداهة الصور ، وتقليد الصياغة ، وإن المستشرق الكبير الأستاذ أميلو غرسيه غومس يعبر عن ذلك في كتابه الشعر الأندلسي فيقـــول (١) :

« ولا بد أن ننبه من أول الأمر إلى أن الشعر الأندلسي عامة فيما خلا بضع شواذ فقير جداً من الناحية الذهنية التفكيرية ، ومن دلائل ذلك أن الناحية التي تأثروا بها من المتنبي كانت ناحية البراعة لا ناحية التفكير ، وعاشوا أعمارهم كلها مكبلين بقيود القوالب الشكلية الجامدة ، ومن ثم لم يستطيعوا أن يدخلوامن التغيير على الشعر إلا أشياء لا تمس المعاني ، مثلهم في ذلك مثل أترابهم من المشارقة فحاولوا أن يعطوا هذه المعاني صوراً جديدة عن طريق تقطيرها في أنابيق بلاغية ، وأوغلوا في ذلك حتى استخرجوا منها تلك الزخارف الشعرية الأربسكية التي تشبه أن تكون قصوراً حمراء لفظية ، فإذا كانت القصائد المنمقة المترفة المعقدة المثقلة على هذه الدرجة من البعد عن الترتيب الذهني بل من الإحساس الإنساني في أحيان كثيرة ، فمن الطبيعي أن تنقصها تلك المرونة السائغة التي نجدها في الشعر القديم ! ! »

وإذا كانت هذه الضحولة الغريبة تظهر بوضوح في الشعر الأندلسي فإنها في الموشحات الأندلسية أظهر وأوضح لأن دواعي السطحية بها أكثر وألزم فالطرب الأذني هدفها الأول ، والاستجابة إلى دواعي الغناء ، مما يمتع أذواق المترفين في القصور والعامة في ليالي الأعراس والأفراح إذا تتلمس هذا النغم المتتابع المتدارك لتتعالى صيحات الإعجاب والاستحسان حين تتفق المخارج الصوتية ! وتتوالى المتشابهات المقفاة ذات التسكين أو المد كما يسير الكلام ! وإذا كان المفهوم من كلام بن بسام السابق أن الموشحات قد كانت يسيرة المتناول مَبْدأً ثم تم تعسيرها على يد عبادة ثانياً ثم أسمحت بعض الشيء فيما تلا عهده من العصور فإننا لا نعرف شيئاً مما كان قبل عبادة حتى نحكم عليه بعيداً عن الفروض المحتملة ، والتخيلات الراجحة ، وما عرفناه بعد

(١) الشعر الأندلسي لأميلو غرسيه ص ٦ ترجمة د . حسين مؤنس .

ذلك يختلف تركيباً وتعقيداً بعضه الأول عن بعضه الأخير حتى وجدنا موشحات ابن سهل وابن الخطيب وابن زهر قريبة الانطلاق نسبياً إذا قيست بتعقيدات عبادة ومعاصريه ! ومع ما بها من الانطلاق النسبي فإن عشاق الأدب الأندلسي أنفسهم يحكمون عليها بالضحولة والسذاجة ، والدكتور جودت الركابي يقول مثلا عن موشحة ابن سهل (١) وهي بعد من النماذج الرائعة حقاً للموشحات ص ٣٠٤ من كتابه في الأدب الأندلسي :

« إنها تلعب فينـــا بألفاظها الغزلية وموسيقاها على أننا لا نجد فيها من المعاني ما يسترعى الانتباه وإنما هي قصيدة مرنحة تشعر بحلاوة قوافيها المتواترة ونغماتها العذبة ثم يجر هذا الحكم على جميع الموشحات فيقول في ص ٣٠٥ : « هذه المعاني التافهة يسترها طلاء خارجي مستمد من ضروب البيان والبديع ... وهي وإن عبرت عنها موسيقى ناجحة في الأغلب فإنها لم تحوها قوالب متينة من الألفاظ والعبارات ، فلغة الموشحات يغلب عليها الضعف والركاكة وهي في لينها وحريتها وائتلافها قادت اللغة الشعرية إلى الركاكة وأساءت من هذه الناحية إلى اللغة العربية فأصبح الشاعر الوشاح لا يجد حرجاً في التساهل اللغوي طالما يرضي الأذواق العامة كما ترضي الأغاني الشعبية هذه الأذواق » . هذا وقد حاول الدكتور بعد ذلك أن يجعل بعض الشعر الهجري المعاصر امتداداً للموشح وهذا خلط واعتساف لأن تجديد المهجريين إلى أعلى وانحدار الوشاحين إلى أسفل ، فكيف يلتقيان .

لقـــد عجز الموشح أن يحفظ عناصر بقائه لتقييده بالأغلال ، وهو بعد أندلسي أسباني يرضي أذواق المولّدين من العرب والإسبان ويساير الأغاني الشعبية هناك في التقفية والتلحين ، وكنا نظن ذلك من البداهة بحيث لا يحتاج إلى نص ، ولكن مذكرة مطبوعة في الأدب الأندلسي كانتْ تُدرس سنوات متلاحقة بكلية اللغة العربية تزعم أن ابن المعتز أول من

---

(١) مطلعها :

هل درى ظبي الحمى أن قـــد حمـــى   قلب صب حـــله عـــن مكنسي

اخترع الموشحات وهو زعم لا يستند إلى واقع من أدب أو تاريخ ، ولكن خطأ النساخين لديوان ابن المعتز قد جر إلى هذا الوهم البعيد، وجاء الأستاذ عبد الجواد رمضان ليرتضيه حقيقة معقولة يدافع عنها فيقول (١) عن موشحة ابن زهر المنسوبة لابن المعتز :

أيها الساقي إليك المشتكى   قد دعوناك وإن لم تسمع

« ورأيي الخاص الذي يوحيه روح الموشحة أنا لابن المعتز ، ولا ينضح بها إلا مثل خيال أمير السياسة والأدب ، وأكبر الظن أنه لم يقصد بها إلى ابتكار فن جديد، وإنما نظمها على طريقة المخمس الذي نظم منه العباسيون كثيراً ويساعد على هذا سلامة نظمها العروضي ، وعد هذا النوع في الموشحات من المرذول المحذول الذي هو بالمخمسات أشبه منه بالموشحات » .

وقد نسي الأستاذ أن لابن زهر من الموشحات ما يماثل هذه الموشحة طريقة وتقفية ، وأن نظام الموشحات لم يعرف بالأدب العباسي في زمن ابن المعتز ولو عُرِف لتناولته الكتب وخلدته المؤلفات ، وعارضه الشعراء ، ولو كان ابن المعتز وشاحاً لذكر مترجموه ذلك عنه . ولكتب هو بنفسه عن هذا اللون في مؤلفه عن البديع الذي جمع فيه ما هو أهون من الموشحات بكثير ، أما الخلاف بين المخمسات والموشحات فأوضح من أن يخفى على أستاذ جامعي فالمخمّسة تبتديء بأربعة شطور من قافية واحدة ثم تأتي الشطرة الخامسة مَن قافية أُخرى تلتزم في كل شطرة ختامية كقول ابن زيدون يتشوق إلى ولادة :

سقى الله أطلال الأحبّة بالحمى   وحاك عليها ثوب وشي منمنما
وأطلع فيها للأزاهر أنجما   فكم رفلت فيها الخرائد كدمى
إذ العيش غضّ والزمان غلام
أهيم بجبار يعز وأخضع   شذا المسك من أدرانه يتضوع
إذا جئت أشكوه الجوى ليس يسمع   فما أنا في شيء من الوصل أطمع
ولا أن يزور المقلتين نسام

(١) مذكرة عن الأدب الأندلسي ص ٩٨ للاستاذ عبد الجواد رمضان مطبعة الأزهر .

قضيبٌ من الريحان أثمر بالبــــدر   لواحظ عينيه ملئن من الســـحر
وديباج خديه حكى رونق الزهــر   وألفاظه في النطق كاللؤلؤ النـــثر
وربقتـــــه في الارتشـــــاف مــدام

هذا ضرب ، وموشحة ابن زهر ضرب آخر يلمس بالنظر المجــرد لو صفها المطبعي فضلا عن القراءة والإمعان !

وبعــد ، فقد قلت في مطالع هذا البحث ، ما أكثر ما كتب عن الموشحات وما أقل ما اهتدى فيها إلى رأي مصيب ، ولست أدري أأكون فيما كتبت من المتعسّفين أم من المهتدين .

تأثير الأزجال والموشحات في شعراء التروبادور

كان الفصل السابق خاصاً بتأثير الموشحات الأندلسية وحدها في الأدب العربي وحده أما هذا الفصل فيتحدث عن تأثير الأزجال والموشحات في شعراء التروبادور وهو تأثير واضح يُرى بالعين ويُلمس باليد على رغم مكابرة المكابرين .

والعلاقة بين الزجل والموشح ، وسبق أحدهما الآخر ، في النشأة الزمنية كانت مجال نقاش علمي لا تغلق وجوهه بل تسفر أدلته عن وجه الحق لمن يناقش الحقائق المجردة دون أن يتعبد بالنصوص ! لقد اشتهر بين الكاتبين أن الموشح قد تقدم الزجل بأكثر من قرن ! وعضدهم في ذلك ما ذكره العلامة ابن خلدون في قوله (١) :

« ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعراباً واستحدثوه فناً سموه الزجل » فهذا القول صريح في أسبقية الموشح ! ولكننا حين نقرأ الموشحات الأولى نجدها تستند إلى المركز العامي وهو المعبّر عنه اصطلاحاً بالخرجة ، وقد نص على ذلك ابن بسام حين قال في الذخيرة عن أول من نظم الموشحات : « وكان يضعها على أشطار الأشعار غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة ، يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركز ، ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها ولا أغصان » .

فالخرجة إذن عامية غير عربية يحتشد لها الوشاح ويبحث عنها أولا ، ليتم الموشحة على هديها فتتفق معه نغماً ومعنى ، يقول ابن سناء الملك(٢) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٤ .

(٢) دار الطراز ص ٣٢ تحقيق جودت الركابي .

والخرجة هي إبراز الموشح وملحه وسكره ، ومسكه وعنبره وهي العاقبة وينبغي أن تكون حميدة والخاتمة بل السابقة إن كانت الأخيرة . . . وقولي السابقة لأنها التي ينبغي أن يسبق الخاطر إليها ويعملها من ينظم الموشح في الأول ، وقبل أن يتقيـــد بوزن أو قافية وحين يكون مسبباً مسرحاً ، ومتبحبحاً منفســحاً ، فكيف جاء اللفظ والوزن خفيفاً على القلب أنيقاً على السمع ، مطبوعاً عند النفس ، حلواً عند الذوق تناوله وتنوله ، وعامله وعمله ، وبنى عليه الموشّح لأنه قد وجد الأساس وأمسك الذنب ، ونصب عليه الرأس » .

فكان الوشاح إذا أراد أن ينظم فكّر أولا في الخرجة العامية ، وجاء بها متفقة مع ما حكاه عنها ابن سناء من صفات ، ثم أخذ يدور في فلكها ليرسي قواعد النظم على أساسها ! وذلك شيء له دلالته الفنية في قضية السبق بين الموشح والزجل ، إذ أن اصطياد الخرجة موزونة منسجمة لا يتأتى للوشاح إلا إذا كانت هناك أغان متداولة شائعة تقذف بما يريد من خرجات ، وتفتح عليه باب القول ليتخذ منها الأساس كما يشاء ! ولن ينكر أحد وجود الأغنيات العامية لدى الشعوب ، فلكل مجتمع بدائي أو متحضر أهازيجه وأغانية ! وليست الأغنية الشعبية إلا زجلا منظوماً يتردد ويذيع فإذا استلهمها الوشاح فإنمـــا يقصد إلى شي ء سابق يحتذيه ! وهذا من البديهة بحيث لا ينكر ، وقد أوضحه الدكتور الفاضل عبد العزيز الأهواني حين قال (١) :

« ونص ابن بسام واضح الدلالة على صلة العامية والأعجمية باختيار الموشحة ، وبعمل الوشاح الأول ، وذلك سندنا فيما نميـــل إليه من تأثر الموشحة بالأغنية الشعبية لأننا نفهم مدلول المركز العامي على أنه جزء — لعله المطلع أو الختام أو اللازمة — من أغنية سابقة أعجب بها الوشاح ، ووضع

(١) الزجل في الأندلس ص ٥ للدكتور الأهوانى .

موشحته على وزنها ، واحتفظ بجزء منها في ختام موشحته ليستدل بها على تلحين الموشحة » .

أما رأي ابن خلدون في سبق الموشحة، فلعله يقصد به تأثير الموشحات في طريقة الأزجال ، بعد أن ازدهرت الموشحة العربية واضطر أصحاب الأغنيات الشعبية إلى محاكاتها في الطريقة أقفالا وأغصاناً ! فكأن الموشحات قد طبعت الأغنية بطابعها ، حتى اشتهرت بمحاذاتها وأطلق عليها الزجل تمييزاً لهـا عن الموشحة ذات اللفظ الفصيح ! ! وإلا فكيف نجزم أن الوشاح يعتمد على خرجة عامية موزونة يحتذيها ! ثم لا نجزم بأن هذه الخرجات كانت ذائعة المتناول ، وإلا فمن أين استمدها ، ثم أليست هى الأغنية الشعبية ، وهي بعد زجل منظوم في أبسط الأشكال ! هذا رأي قد اعتقدناه واطمأننا إليه ! ثم رأينا الباحث المفضال الدكتور إحسان عباس يبسطه ويجلوه مدعماً مؤيداً في كتابه(١) :

« فالزجل بمعناه العـام نشأ أولا تقليداً لأغاني السكان الأصليين وبخاصة حين اختلط الفريقان في المدن واشتركوا في إقامة الأعراس والحفلات ، واحتاجوا إلى الأغاني الشعبية التي يرددونها في تلك الحفلات وفي مواسم العصير وأيام القطاف ، ثم الخطوة التالية وهي محاولة للتقريب بين الشعر المنظوم باللغـة الفصحى وبين تلك الأغاني الشعبية التي أصبح النساء والصبيان وطبقات أهل الحرف والعمال يرددونها باللغة الدارجة العربية دون أن يصفوها تماماً من الألفاظ الأعجمية التي اقتبسوها من جيرانهم ومخالطيهم ودرجت على ألسنتهم فأصبحت جزءاً من لغتهم » .

فمحاولة التقريب بين الشعر المنظوم بالفصحى والأغاني الشعبية هي ابتكار الموشح في مبدئه والحرص على الخرجةعامية أو أعجميةهو ما عناه الدكتور عباس حين قال : « دون أن يصفوها تماماً من الألفاظ الأعجمية

(١) تاريخ الأندلس – عصر الطوائف والمرابطين للدكتور إحسان عباس ص ٢٢٢ .

التي اقتبسوها من جيرانهم ومخالطيهم » . وقد نستغرب ذلك حين نجد لغة ما نحفظه من الموشحات فخمة عالية لا تميل إلى الركاكة مما يقربها إلى اللغة العامية الدارجة ! ولكن الموشحات الأولى التي ابتدأها مقدم بن معاني أو محمد بن محمود القبري لم تكن ذات لغة فخمة رصينة كما عرفناها بعد لدى عبادة ، وابن القزاز والأعمى التطيلي وابن سهل ! بل كانت سهلة يسيرة تحكي الطور البدائي للاتباع والمحاكاة ثم تـوالـى الزمن فارتفع بها إلى مستوى الأسلوب الرصين لدى كبار الشعراء ! ونخلص من هذا كله بما تقتضيه طبائع الأشياء من الحكم بوجود الأغنية الشعبية أولا أو الزجل الغنائي في أبسط حدوده ثم وجود الموشحة العربية ذات اللفظ السلس السهل ثم ارتقاء أسلوبها فيما بعد حتى توازي فخامة الشعر الرصين مع جنوح بعض النظامين إلى اختيار العامية عزوفاً عن الفصحى ، واطراد النظم بالأسلوبين فصاحة وعامية ً حتى اشتهر الأسلوب الفصيح بالموشح والعامي بالزجل ! وقد أعقبت فترة ما غلب فيها الموشح العربي دون أن يفقد الزجل وجوده ، ولكن مكانه تأخر فقط ، ثم أتيح له أن يتزايد ويزيد ، حتى يكتسح الموشح ! فظن بعض الناس أنه انبثق عنه وتفجر من ينبوعه ، والأمر على عكس ذلك كما أوضحناه .

وقد أكثر الكاتبون عن الموشحات والأزجال من ذكر النماذج المختلفة للموشحة المختومة بالخرجة عامية أو أعجمية ! وليس هنا مجال الاستشهاد لأمر ذائع ميسور ، ففي دار الطراز لابن سناء ما لو شئنا أن نقتبس منه لاتسع النطاق ، ولكننا نحيل إليه وإلى أمثاله ! بعد أن أوضحنا الصلة التامة بين الموشح والزجل لننتقل بعد ذلك إلى أثرهما في شعراء التروبادور .

من المعلوم أن الجدال في الحقائق الأدبية أكثر اتساعاً وأبعد تفريعاً منه في الحقائق العلمية إذ أن الذوق من ناحية والافتراض من ناحية ثانية يجدان مجالهما في الدراسة الفنية على نحو أوسع منه في الدراسة العلمية ذات الحقائق المضبوطة ، والحدود القائمة ، وقد اتسع الجدال وتشعبت المذاهب بين

المستشرقين من فرنسيين وأسبان وألمان حول صلة الموشحات والأزجال بشعراء التروبادور من مؤيد لهذه الصلة ومعترف بها اعترافاً يقوم على النصوص الملموسة ، والوقائع المشاهدة ، ومن منكر يؤوّل الصريح من القصائد ، ويماري في العيان من الحقائق ثم يستسلم إلى فروض بعيدة إن وجدت لها مكاناً محتملا في التخريج والاستنباط ، فإن صمود النصوص المحفوظة لدى المؤيدين مما يهز فروضه المحتملة وتأويلاته المتعسفة ! ومن المؤسف أن من يتعرض للفصل في هذا الموضوع من المستشرقين اللاحقين يذكر الجوانب المختلفة من الرأي ثم يحجم غالباً عن ذكر النتيجة الواضحة فيترك الباب مفتوحاً لاحتمالات واهية لا تَثْبت لهبّة نسيم .

لقد بحث الأستاذ خليان ريبير ما بحث حتى اهتدى إلى الصلة الواضحة بين شعر التروبادور والموشحات ! وجد هذه الصلة في أكثر من جهة ، وجدها في الشكل الخارجي وفي المضمون الداخلي وفي الثابت من وقائع التاريخ للأشخاص ! وإن جهة واحدة من هذه الثلاث لتكفي في إثبات التاثير ، فكيف بها مجتمعات !

وشعراء التروبادور هم الذين كانوا يحيون في قصور الأمراء وأبهاء الملوك ليتغنوا بالحب والمروءة على نمط خاشع ذليل يعترف فيه العاشق بهيامه وتفانيه ويرسل عبارات الشوق والإجلال لحبيبته الحسناء فهي سِرٌ حياته ومالكة قلبه ! ومصدرُ الأنس والبهجة في الوجود ، نظرة عاطفة منها تحي ميتاً يدب البلى في أوصاله ، وأخرى غاضبة تميت أقوى الأقوياء من الفرسان ! ثم أخذوا يطوفون بأنحاء أوربا خلال القرون الأخيرة من العصر الوسيط فينشدون الناس منظوماتهم الغنائية التي جلبوا بعضها من الأندلس ونظموا البعض الآخر على غرارها ، ويقول كثير من الباحثين إن كلمة تروبادور مركبة من كلمتين أولاهما كلمة تروب ومعناها الأسباني فرقة، يراد بها فرقة غنائية وثانيتهما كلمة دور وهي عربية واضحة وإذن فالتروبادور هم فرقة من الشعراء يدورون في البلاد ينشدون أشعارهم

الغنائية على وقع القيثار ! ! هذا الغناء الشجي الضارع من ناحية الشكل قد اتخذ مظهر الموشحات والأزجال فمتوسط المقطوعات في أشعارهم سبع وهو العدد الغالب في الموشحة والزجل ! ولكل مقطوعة ما لكل موشحة من الأقفال والأغصان والقوافي على نحو لم يعهد من قبل في الشعر اللاتيني ! وقد تخلوا مقطوعة من المطلع أو المركز كما تخلوا بعض الموشحات أيضـــاً ! !

ونظام الخرجة في أشعار التروبادور كنظامة في الموشح والزجل ، وله عندهم من الأهمية والاحتفاء ماله في الموشحة سواء بسواء ، ثم إن مجموع الغصن مع القفل يسمى بيتاً عند التروبادور وهو كذلك في الموشحات والأزجال .

هذا من ناحية الشكل أما التشابه في المضمون فإن أخيلة الشعر العربي ومعانيه التي احتضنتها الموشحات والأزجال قد انتقلت هي الأخرى في غزل التروبادور فالرقيب والعاذل والواشي ونشأة الحب من أول نظرة، والتهالك على استرضاء الحبيب وحلاوة الوصل ولذاته وقسوة الهجـــر وفظاعته ! وصلف الحبيبة وكبرياؤها وقسوة فؤادها وتثاقلها المترفع وإباؤها الشموخ ، وحيل الرقباء وملامة العاذلين ، وذهول العاشق وشروده وإقباله على الحديث عن حبيبه . . . كل ذلك قد وجه شبيهه في شعر هؤلاء ! ! وهي عوا طف لم تكن ذائعة في غزل اللاتين ، ولن يقول قائل إن الاحساس بالحب عاطفة مشتركة ! فالحب متعدد الألوان والأفانين ، وظهوره لدى التروبادور في لون الأزجال والموشحات يوحي بتأثره الصريح ! هـــذا بالإضافة إلى قصائد العرب الأخرى غير الموشحات كمقطوعات جماعة الحب العذري بالمشرق وقد كانت مشتهرة متعارفة لدى أدباء الأندلس !

وكالكتب الخاصـــة بالصبابة العربيـــة من مثـــل الزهرة والحدائق وطوق الحمامة ! هذه الأزجال والموشحاتوتلك القصائد العذرية ! مع الكتب العاطفية المشار إليها قد ألهمت شعراء التروبادور اتجاههم النفسي ،

وجعلت للمرأة في نفوسهم من الرفعة والإجلال ما نطقت به أشعارهم الذائعة فجاءت ناطقة بالاحتذاء والتشرب !

وذيوع ديوان ابن قزمان مع شهرته الفائقة لدى الباحثين قد جعله عندهم موضع المقارنة ودليل الاقتفاء ! والحق أن الصلة قريبة بين ديوان ابن قزمان وشعراء التروبادور من ناحية الشكل أما من ناحية الموضوع فقد تبدو الصلة بعيدة في بعض وجوهها لأن ابن قزمان لم يكن من أرباب التصون والشرف في غزله بل كان متهتكاً مسفّاً يميل إلى الخلاعة واللهو ويدعو إلى الاستهتار والإسفاف ! وقد كان ابن عصره دون شك إذ أن قرطبة لعهده قد أخلدت إلى الراحة نسبياً بعد أن كفيت شر الفرنجة وسيطر المرابطون على البلاد فأسكنوا الثوائر وبعثوا كثيراً من الاطمئنان وإذ ذاك تفرغت بعض(١) القصور للغناء والطرب وماجت الليالي الحالمة بروائع الأوانس من سبايا القشتاليات والجليقيات والإيطاليات والبربريات وكل منهن فاتنة صداحة ذات لهو وأنس ! بل إن العامة في الطرقات كانوا يتسمعون إلى صدى الغناء في القصور منبعثاً من أشجى الحلوق ، وأرخم العيدان ثم يرددونه مصفقين طربين ! ويتحول الليل إلى نهار ذي جلبة وضجيج ! وكان ابن قزمان وليد هذه البيئة وهو صاحب خمر ولهو وعبث ، فلم ينضح زجله بما نضح به الشعر العذري من عفاف وحرمان ! ! واقتصر تأثيره على الشكل وحده !

وقد ذكر الأستاذ جورج كولان في بعض أبحاثه ما يستبعد معه تأثير ابن قزمان في شعر التروبادور لهذا السبب بالذات ! ولكنه اعترف بالتأثير الأندلسي وعزاه إلى غيره كالأخطل بن نمارة وكتاب طوق الحمامة لابن حزم وموشحات ابن زهر وابن سهل وقصائد ابن زيدون ! (٢) والأخطل

(١) نقول بعض القصور لنؤكد أن الصلاح والمجون معاً يجدان أنصارهما في كل عصر ونرد على من يجعل الفساد وحده طابعاً عاماً لأنه يخالف حقائق الأشياء ويغفل مقررات الاجتماع ومنطق التاريخ .

(٢) تراجع مقالات الدكتور حسين مؤنس بمجلة الثقافة سنة ١٩٤٦ ففيها إفاضة وإشباع وإقناع .

بن نمــــارة هذا من رواد الزجل الأندلسي وقد ضاع فنه فلم يبق لنا منه شي ء ، ولكن حديث ابن قزمان نفسه عنه في مقدمة ديوانه قد حفظ للرائد الكبير سبقه إذ يقول عنه :

« ولم أر أسلسَ طبعاً وأخصب ربعاً ومن حجُّو إليه وطافوا به سبعاً أحق بالرياسة في ذلك والإمارة من الشيخ أخطل بن نمارة فإنه نهج الطريق ، وطرق فأحسن التطريق ، وجاء بالمعنى المضيء والغرض الشريف في طبع سيال ومعان ، لا يصحبه به جهل الجهال ، يتصرف بأقاسمه وقوافيه ، تصرف البازي بخوافيــه » .

وعبارة ابن قزمان واضحة في تقديره على اختلال في صياغتها تلتمس أعذاره من تحريف أو سقط ! وإذا كان الرجل بهذه المنزلة فلا يستبعد أن يكون بين هؤلاء المؤثرين فترن أزجاله وتستفيض قوافيه ويلمح مكانه من قريب .

أما الواقع التاريخي للأشخاص فينطق بهذا التأثير نطقاً جهيراً لا يشوبه التباس ، إذ أن جيوم التاسع دوق أكيتانيا أقدم من نعرف من شعراء التروبادور ، وهو ذو صلة تامة بالثقافة العربية ، وقد اشترك في الحروب الصليبية فرحل إلى المشرق سنة ١١٠١ وأقام بالشام حقبه وهناك ألف في العربية وتعلم منها شيئاً ذا بال لأن المستشرق الشهير ليفي بروفنسال روى عنه(١) ملخصاً لقصيدة تتحدث عن سيدتين قابلهما في بعض رحلاته وحيته كلتاهما بأدب جم ودار بينهما وبينه حوار عابر ، وفي القصيدة بيتان صعب فهمهما على النقاد وقد اهتدى إليهابروفنسال وعرف أن مصدر هذه الصعوبة هو عربية ألفاظهما مما يدل على أن الذوق على علم بالعربية وأن السيدتين كانتا تعرفانها فخاطبهما الدوق بمــا يعرفان ! هذا وقد سافر إلى إسبانيا

---

(١) الإسلام في الغرب والأندلس ، ليفي بروفنسال ص ٢٩٦ .
ترجمة الدكتور السيد سالم والأستاذ صلاح حلمي ط أولى .

أكثر من مرة وفي سنة ١١٢٠ ذهب إلى أرجوان ! هذه الصلات التاريخية بين رائد شعراء التروبادور وبين الشرق في الشام وأسبانيا في الغرب ثم هذه الصلة الأدبية في نظمه بعض الأبيات العربية تؤكد تأثره بموشحات الأندلس وأزجالها فإذا نظم بعد ذلك على طريقة الموشحات في الأغصان والأقفال والتقفية وتفنن في الهـــيام بالحب على نمط قريب من مشارب ذوي العفة والشرف أفلا يدل ذلك على تأثير الأزجال والموشحات تأثيراً لا يجد شبهة تغيم في عين منصف أمين .

تلك حقيقة يؤكدها مع « جوليان ريبير » كل من نحا نحوه في تأييد الصلة القوية بين الزجل العربي وشعراءالتروبادور أمثال « نيكل » و« تاجرين » و« روبير بريفو » من كبار المستشرقين ويعلن الأستاذ مننדث بيدال اعتقاده الجازم بأن الزجل الأندلسي قد انتشر بأوروبا بقدر السرعة التي انتشر بها في الشرق ، بدليل ما نظمه جيوم التاسع ولكن معارضيه يواجهونه « بأن الدوق وبعض زملائه قد استخدموا تراكيب عروضية تتألف من ثلاثة أبيات مع جزء رابع تتردد قافيته في جميع الأبيات لكنهم يهملون استعمال المركز وهو عنصر ثابت في الزجل الأندلسي » . هذا ما قالوه وقد ذكره بروفنسال في كتابه السالف ص ٢٩٧ ثم شفعه بقوله ص ٢٨٨ :

« وانعدام البيت من جزأين قافيتهما متحدة في الشعر البروفنسي لا يعد في نظر مننדث بيدال دليلا قاطعاً لتأييد نظرية المنكرين للتأثير العربي ، وتبريراً لهذا الوضع عمد العالم الإسباني إلى تدليل قد لا يفضي إلى الإقناع الكامل ، فهو يرى أن هذا البيت قد سقط من الشعر البروفنسي خلافاً للزجل الأندلسي لأن هذا الشعر لم تكن تصحبه الموسيقى لدى إنشاده ، وإنمـــا كان من شعر البلاط ، وينشده تروبادور يحمل آله موسيقية دون أن يردد البيت أحد من الحاضرين وكانوا يقتصرون على عدد قليل من الناس هم السيد والسيدة وبعض الأقارب والأتباع » .

ونحن نعلم أن الموشح كالزجل في الأدب الأندلسي لم يأخذ طابعاً خاصاً لا يحيد عنه حتى نبعث عن علة سقوط المراكز في أواسط المقطوعات !

فكل وشاح أو زجال كان يجتهد في ابتكاره وتكراراً وحذفاًوتقفية ووزناً ! ! والأمر في الزجل أسمح وأيسر ! فمن الجائز أن تكون هناك أزجال وموشحات لم نرها لا ترى الالتزام الصارم بالمركز في الوسط أو المطلع بل تحتفي به في الآخر فقط ! ونسير إلى أبعد من هذا فنقول ألا يجوز لجيوم أن يحيد قيد أنملة عن نماذج الموشحات والأزجال ، وهل إذا خالفها في شيء ووافقها في أشياء لا يكون متأثراً بها ، ثم لماذا تكون مخالفته النادرة دليلا على عدم التأثر عند هؤلاء ثم لا تكون موافقاته الكثيرة ذات ترجيح وتدليل إن لم تكن ذات جزم وإيقان .

وقد وقف الأستاذ جانروى موقفاً وسطاً بين المعارضة والتأييد ، فهو يسلم باحتمال التأثير فقط ولكنه لا يقطع به إذ ربما كان التركيب الزجلي في رأيه مقتبساً من الشعر اللاتيني في العصر الوسيط ، والرد عليه من أبسط الأشياء وأهونها لأن الذين يرون تأثير الشعر اللاتيني مفترضين ، قد عجزوا عجزاً تاماً أن يثبتوا مثالا واحداً للغناء اللاتيني في الصور الست المختلفة للدور يشترك مع الزجل العربي في نظام ، حتى يقال إن التأثير قد جاء من الأصل اللاتيني ! وإذا كان الزجل قد ظهر قبل شعر أول شاعر لاتيني معروف بقرنين من الزمان فلا شك أن الأغنية اللاتينية الحديثة مشتقة من الأغنية العربية الأندلسية لا أن يكون العكس هو الصحيح (١) .

على أن مما يوقف النظر في هذا الموضوع صراع الباحثين حول شعر التروبادور إذ بدا به تعقيب منحرف عن الحق ، فبعض مؤرخي الألمان ينكرون قيام أي صلة ما بين شعرائهم المنشدين وبين زملائهم من الأسبانيين والفرنسيين ويرون أن شعرهم الغنائي وليد الأغنية الألمانية الشعبية ! وهم في ذلك يتفقون مع منطقهم الذائع في تفصيل مواهبهم وارتقاء مثلهم عن الناس حتى الآريين الذين هم بعضهم ، إذ أن درجات الآرية تتفاوت صعوداً وهبوطاً وفق درجات الشعوب ! أما المؤرخون الفرنسيون فقد

---

(١) الإسلام في إسبانيا ص ١٢٠ للدكتور لطفي عبد البديع .

سخروا من الألمان في ذلك لا ليرجعوا الحق إلى نصابه بل ليزعموا أن شعر التروبادور نشأ أول ما نشأ في شمال فرنسا لا في جنوبها وكأنهم بذلك يريدون أن يقطعوا كل صلة تمت إلى الشعراء العرب بالأندلس ! ولكن الحق لا يعدم أنصاره بين أولئك وهؤلاء فقد أنصف مؤرخوا الطليان العرب وأقروا أن جذور أشعارهم نبتت في أرض الأندلس ، ولهم كتب خاصة بتفصيل هذا الموضوع وقد استشهد الأستاذ محمد مفيد الشوباشي في كتابه العرب والحضارة الأوروبية بعالمين كبيرين غير من أشرنا إليهم قبل ذلك تحدثا بإخلاص عن هذه الحقيقة فذكر قول (بريفو) في أول صفحة من كتابه « الشعراء التروبادور »(١) « نشأ لون جديد من الأدب في جنوب فرنسا خلال القرون الوسطى بينما كانت ملاحم الإغريق الوثنية في ذلك الوقت هي التي تستثير مشاعر الناس ، وهذا اللون الجديد أجنبي كذلك عن فرنسا وقد جلبه إليها شعراء التروبادور الذين أغنوا به اللغة الفرنسية المحلية ، وأحدث في المجتمع الفرنسي الإقطاعي أثراً بليغاً بما عبر عنه من عواطف طاهرة سامية ، وذلك بعد أن أنف ذلك المجتمع من بربريته متأثراً بالتيار الحضاري المهذب الذي هب عليه من الأندلس العربية بعد أن تهيأ لتذوق الشعر المهذب » .

كما نقل الأستاذ الشوباسي عن « بيرديه » في كتاب « القصة في سبعة قرون » قوله : « نشر العرب في الأندلس خلال القرن العاشر الميلادي حضارة جديدة وابتدعوا شعراً غنائياً إنسانياً حمله شعراء التروبادور إلى الشمال ، وتدل المراجع التاريخية على أن القصور الأندلسية بعد أن احتلها الإسبان ، كانت تزخر بشعراء العرب الذين وقعوا في الأسر ، بينما كانت الحرب لا تزال دائرة بين الإسبان والمسلمين ، ومن السخف أن يتجنب مؤرخو الأدب الفرنسي هذه الوقائع الثابتة بالأدلة المسجلة » .

---

(١) العرب والحضارة الأوربية ص ١٠٢ للأستاذ محمد مفيد الشوباشي .

ومن الإطناب الزائد أن نفيض في أمثال هذه النقول المنصفة إذ تحتشد بها المؤلفات الأخيرة شرقية وعربية ولكننا نكتفي بما تقدم لنذكر أثر العرب في خلق روح غزلي جديد يغمر أوربا ويهب على أقطارها مضمخاً بعبير الإخلاص والوفاء والشوق والتضحية بعد أن كانت آدابها السالفة لا تستلهم في ذلك غير الأدب الإغريقي وحده وهو في أكثره متجه إلى الحب الفاجر وانصراف الزوجة إلى العشيق دون الزوج وملاحم اليونان تضج بشهوة الجســد واتقاد الرغبة واغتصاب الحسان وإزهاق الأرواح في استهتار وما أبعــد ذلك كله عن شعر الحنين والضراعة والعفة الذي بعثه الأندلسون ثم تأرجت به أوروبا حين حملته نسمات التروبادور . . .

أجل كانت أوروبا لا تعرف في أشعارها غير آلهة الملاحم الإغريقية ووحوش الجبال الأسطورية وخرافات الغابات المليئة بالأشباح والغيلان والبحار المزدحمة بالجن والمردة ثم انقلب المسرح فجأة على يد الأندلس فكانت كتابة ابن حزم وأشعار ابن زيدون وأغاريد بني عذرة لحوناً جديدة توقظ الأرواح الغافلة وتتجه إلى تحليل المشاعر الإنسانية ، وتشريح النوازع العاطفية ، وتجعل قلوب العاشقين أقطاراً فسيحة تمتليء بالشوق والأسى والشجن ، وتمور بها عواطف الحرمان والقنوط والحيرة ! مما مهد لأدب جديد يتصل بالنفس الإنسانية ، ويرى به القاريء هواتف صدره وهمسات جوانحه ونبض عروقه ! وتلك كانت وما زالت رسالة الأدب الحي في لبابه الصميم !

ومما يدهش حقاً في مجال المقارنة اقتفاء شعراء التروبادور آثار الأندلس شبراً بشبر ! حتى فيما يستغرب فيه الاقتفاء ويستبعد فقد اتجه الزجل الصوفي على يد « الشتشري » من الموضوعات الدنيوية إلى الآفاق العلوية فانطلق يمجد الخالق الأعظم ، كما سبقت موشحات ابن عربي الصوفي الذائع الصيت الى هذا الضرب من الهيام الروحي ! فظهرت آثار ذلك كله في شعر التروبادور إذ أصدر الأديب المسيحي رامون لول وكان يعرف

العربية معرفة جيدة مناجاته الإلهية في رسائل المحب والمحبوب ! بل إن تقليد التروبادور للأندلس لم يقف عند المجال الأدبي وحده إذ تعداه إلى أسلوب الحياة ! فيذكر المؤرخون مثلا عن ابن قزمان أنه في خريف حياته تنسك وتزهد ولزم المسجد فارغاً للصلاة والتسبيح والتوبة والخشوع ، وهم يذكرون نظير ذلك عن زعيم التروبادور جيوم التاسع حيث تصنع التوبة والزهد إلى الدير ضارعاً تائباً ! وكم لهما من أشباه في خواتم أمره .

ولا نحب أن نختم هذا الباب دون أن نمتع القاريء العربي ببعض ما نفحنا به شعراء التروبادور حين حاكوا الحب العذري فذابوا ضراعة ولهفة وحنيناً وانطلقت شواردهم السائرة تذكر بابن داود وعروة وجميل وكثير وقيس وابن حزم ! ! ننقل ذلك عن ترجمات الباحث العربي الدكتور حسين مؤنس فهو من أعرف كتاب العرب باللغة الإسبانية ومن أقدرهم على استشغافها وتعريبها مقدرة تسدى إلى الحقائق الأدبية جزيل النفع ، وتمدها بالجيد النفيس ! وها هي ذي بعض المترجمات :

« إن ما تبعثه الحبيبة من الغبطة في النفوس ليشفي العليل ، وإذا غضبت على أحد فغضبها كفيل أن يقتل أوفر الناس صحة وشباباً ، وجمالها يسلب أعقل العقلاء لبّه ، ويفقد أجمل الناس جماله ، ويستطيع أن يحيل أوفر المهذبين شريراً ذميماً ويجعل من الشرير إنساناً كريماً » .

« وعندما يأخذ نهار الربيع في الطول ، أجد في نفسي لغناء الطير وقعاً جميلا فإذا انقطع عني هذا الغناء ، تحسست في أعماق نفسي آثار حب بعيد . فتجدني إذ ذاك غريقاً في الفكر ، حزيناً خافض الرأس ، إذ ذاك لا أجد لغناء الطير لذة ولا للزهد فتنة » .

« ليس بعجيب أن يكون غنائي أجمل من غناء أي إنسان غيري إذ أنا أشد الناس خضوعاً للحب وانقياداً لأمره فإن قلبي وجسمي وفهمي وحسّي وجاهي وقوتي كلها رهين بأمره » .

الأندلس معبر القصة العربية إلى أوروبا

يحلو لبعض الكاتبين أن يعتركوا في غير معترك ، إذ يلوكون الأحاديث المعادة حول مكانة القصة في الأدب العربي القديم ما بين معترف ومنكر ، وكان الظن أن امتداد الزمن مع هذه المناقشات يصل بها إلى رأي حاسم ، ولكن شهوة الجدل تجعل منها معركة دائمة ، والحق سافر وضيء ، فنحن نعرف بداهة أن حب القصةيكاد يكون غريزة في النفس البشرية ، ففي كل مجتمع بدائي أو متقدم يتقابل الناس فيحكون ويروون ، وأخبار العرب القدامى تروى كثيراً مما كانوا يسمرون به من أقاصيص فيها المثل والخرافة والقصة ، حتى عرف بينهم قصاصون تروى عنهم هذه الأنواع ، وامتلأت بها الكتب القديمة ، فإذا كانت القصة في معناها الساذج أمراً فطرياً يختلط بالنفس وتهوى إليه الأفئدة ، ففيم النقاش في غير مجال ؟

وقد تعرضنا في موضوع الملاحم إلى ما يقال عن قصور الذهن السامي عن التفكير الكلي فما يقدر أن ينتج ملحمة أو قصة ، وعقبنا عليه هناك بما نملك من براهين ، ونريد الآن أن نتعرض إلى ما يقال من أن السبب في ضعف القصة العربية عند قوم وفقدانها نهائياً عند قوم آخرين هو الصحراء المجدبة التي عاش فيها أجدادنا العرب ، حيث لا تنوع في المشاهد ولا افتتان في المناظر ، بل رمال ممتدة ، ورياح هائجة ، وشمس محرقة فلا غابات تشق الفضاء بأشجارها الفارعة ، ولا كهوف تتحدث عن شعوب كانت تأوى إليها ، ولا قمم يكسوها الثلج بل كثبان وتلال وجبال موحشة جرداء مما يقصر بالخيال عن التحليق ، وهذا إغراق واهم لأن الصحراء قد ملأت على العربي حياته بحيواناتها ورحلاتها ومعاركها وإشراق محياها في الصباح وتألق نجومها في الليل وقد ألهمته في دنيا الشعر عرائس فاتنة ، ولدينا

من قصص العرب في الجاهلية وصدر الإسلام مجلدات ذات أجزاء . . وهي وثائق مادية تجابه ما يفترض المفترضون من خيالات ! !

وسبيلنا الآن أن نتحدث عن دور القصة العربية في إنماء هذا الفن بالأدب الأوربي ، حيث وفدت إليه من جهات مختلفة ، أكبر جهة منها الأندلس العربية المسلمة وقد كان من بين تأثيرها الملموس أنها في نطاق القصة غيرت كثيراً من طابع الملحمة في ذكر الخوارق والتحليق مع الخيال وجذبت الرواية الأوروبية إلى نطاق واقعي يتحدث فيه القاص عن المجتمع الراهن بشخصياته العادية فمضت تعالج المألوف المشهود وكانت روعتها أن تسرد على الناس ما يشاهدون ويلمسون في إطار فني محكم ، وصار البطل إنساناً عادياً يتألم وييأس ويأمل ويفرح ويحزن . وليس ربا من الأرباب يحطم منطق الحياة ليأتي بالمعجزات . تم ذلك كله على يد لون من ألوان القصة العربية ، وهو المقامة ، فإذا أضفنا إليه أثر الألوان الأخرى في نهضة هذا الفن ، حفظ الباحثون للعرب مكانهم الأدبي في مضمار حي يُخيّل إلى الناس أنهم عالة فيه على غيرهم ، والحقيقة التي يشهد بها التاريخ أنهم أمدوا القصة الأوربية بمقومات رائعة ثم أتيح لهم أن يغفوا إغفاءة طويلة تقدمت أثناءها الرواية الأوربية تقدماً واثباً ، حتى استيقظوا من سباتهم ففتحوا عيونهم على نمط جديد من الإبداع ، فانطلقوا في عصرنا الحديث يحاكونه ويستلهمونه ولا يدرون أنهم شاركوا في بنائه حين كان لبنات متواضعة لا ترتفع قليلا عن مستوى الأرض ، ونحن لا ننكر الحق على أصحابه حين نعترف الآن لهذا الفن بالنضوج والاكتمال في أوربا ، ولكننا نطالب مع ذلك أن ينظر إلى أثرنا البارز في نشأته ، وهو أثر تنطق به الحقائق دون افتعال ! ! !

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه أثر العرب في الحضارة الأوروبية(١) . « والذي نعتقده على أية حال أن العقل يأبي كل الإباء أن

---

(١) أثر العرب في الحضارة الأوربية ص ٦١ ط أولى للعقاد .

قيام الأدب العربي في الأندلس يذهب من صفحة التاريخ الأوربي بغير أثر مباشر على الأذواق والأفكار والموضوعات والدواعي النفسية والأساليب اللغوية التي تستمد منها الآداب . . . وقد اقترنت بموضوعات الأدب العربي أسماء طائفة من عباقرة الشعر في أوربا بأسرها خلال القرن الرابع عشر وما بعده، وثبتت الصلة بينهم وبين الثقافة العربية على وجه لا يقبل التشكيك أولا يسمح بالإنكار ونخص منهم بالذكر بوكاشيوو دانتي وبترراك الإيطاليين وشوسر الإنجليزي وسرفانتيز الإسباني وإليهم يرجع الأثر البارز في تجديد الآداب القديمة بتلك البـــلاد » .

وسنتبع الآن خطوات هذا الأثر المباشر في مضمار القصة لنرى كيف اشتد جسمها الواهن بدم فائر منحه حرارة الفناء ونشاط الشباب .

كانت مجموعة (أدب العلماء) أول كتاب يضم بين دفتيه قصصاً عربية ذات طابع إسلامي ، وقد ألّفه يهودي تنصر سنة ١١٠٦ وشهد تعميده الفونسو الأول ملك أرغوان وقد جمع ثلاثين أقصوصة عربية أو شرقية جاءت عن طريق الترجمة العربية فترجمها إلى اللاتينية، وقد اعترف صراحة بأصلها العربي ، لأنه يعلم عن يقين انجذاب القراء في الأمم اللاتينية إلى نوع جديد من الفن يتشوقون إليه ، ويعرفون ما لأصحابه من التفوق الفكري والنضوج الحضاري ، والجو العربي الإسلامي — مع أن المؤلف راهب نصراني كان يهودياً من قبل — يملأ مجموعة أدب العلماء ، وهي بعد تتجه وجهة المواعظ والحكم ففيها ذكر للقمان الحكيم وقصص عن تاجرين أحدهما مصري والآخر بغـــدادي يذهبان إلى الحج في مكة ، وقصة عن الوفاء والشرف بطلها أسباني مسلم يتوجه إلى بيت الله الحرام ! وما جاء في المجموعة عن سقراط وأرسطوليس مما عرفه الكاتب عن أدب اليونان ولكنه مما ترجمته العربية لفلاسفة الإغريق في كتبها الذائعة وقد ترجم الكتاب — كما يقول الدكتور لطفي عبد البديع في كتابه الإسلام في إسبانياص ١٢٨ — إلى اللغـــات الأوربية ونظم شعراً بالفرنسية في القرنين الثاني عشر والثالث

عشر مرتين (كما نظم كتاب كليلة ودمنة في العربية من قبل) والمؤلفون القصصيون في أوربا عالة عليه فيما أوردوا من قصص حاكوه في بعضها واقتبسوا منه في البعض الآخر ، مثل دون خوان ما نويل وألا ربتز ستادي هيتا وبوكاشيو وشوسر وغيرهم والطريف أن هذا المؤلف الذي يجمع كتابه القصصي من ثقافة العرب يسمي نفسه (خادم المسيح) ويقول إن قصص الكتاب توقف على ما في العقيدة الكاثوليكية من كمال مع اعترافه بالأصول العربية في مقدمة الكتاب اعترافاً لا تنقصه الأدلة ومن يقرأ قصة فرسان مصر وبغداد يجد نفسه في كتاب ألف ليلة وليلة مما يدل على وجود أجزاء منه بالأندلس إذ ذاك ! ! وقد اشتهرت في الأدب الغربي قصة أبي القاسم ونيكلوت وقد ألفها الشاعر الفرنسي « أولدأنينف » في القرن الثاني عشر من الميلاد وهي تشبه إلى حد كبير قصة روميو وجولييت لشكسبير حتى جزم كثير من النقاد برجوع الشاعر الانجليزي الكبير إلى الرواية الفرنسية ، والقصة الغرامية عربية منقولة عن الأندلس، فأبو القاسم بطل القصة كان أحد حكام قرطبة في القرن الحادي عشر ، وسياق القصة في تركيبها الأدبي نثراً يروي الوقائع وشعراً ينفس عن عواطف البطل مما يذكر أيضاً بألف ليلة وليلة وكان المظنون أن هذا الكتاب تسرب إلى أوربا من الشرق أثناء الحروب الصليبية بل جزم بعض الذين تحدثوا عن بوكاشيو بذلك جزماً لم يترك معه احتمالا لغيره — ولكن امتلاء الأدب الإسباني بمتشابهات حوادثه يدل دلالة قاطعة أن أجزاء كبيرة منه رحلت إلى الأندلس العربية قبل أن تفد مع العائدين من الغزوات الصليبية بأمد كبير ! ! وإلى هذه الأجزاء الأندلسية وحدها يرجع كل ما جاء في مدونة ألفونسو الحكيم مقتبساً من ألف ليلة وليلة مما كان ملهما للكاتب الإسباني لبادي فيجا المسرحي الشهير وقد عقب على ذلك الأستاذ الدكتور أحمد لطفي عبد البديع بقوله ص ١٣٦ من كتابه السابق (١) .

---

(١) الإسلام في أسبانيا ص ١٣٦ .

«ومما يدل على أن الكتاب كان شائعاً بين الناس في آخرة العهود الإسلامية بإسبانيا أن بعض قصصه قد رواها الموريسكيون باللغة الأعجمية التي كانوا يكتبون بها كقصة قصر الذهب وما إليها ، هذا إلى أن الباحثين تعقبوا طائفة من موضوعات قصص شهر زاد فوجدوا لها صدى في قصص أسبانية ومن ذلك المعجزة الثالثة والعشرون لبرينو وفيها يقذف المدين في البحـــر أمْوَالاً تصلُ إلى الدائن ، وقصة ملك اليمن وأبنائه الثلاثة التي تنسب فيها البطولة إلى من ليس بطلا تُشبه قصة الوعل ذي القدم البيضاء وقصة الغيور العجوز عند سرفانتيز ، لهـــا أصل في قصة القاضي وابنه التـــاجر» .

وقد أفاض الدكتور في نحو ذلك من ص ١٣٥ – ١٣٨ من كتابه المشـــار إليه .

هذا بعض أثر ألف ليلة وليلة في الأدب الأوربي ، أما أثر المقامات فلا بد أن نقف عنده متمهلين !

كان أسلوب المقامة المسجوع ورسفه في أغلال الصنعة البديعية مما باعد بينها وبين كثير من الأدباء ، حتى خفي عليهم مغزاها الاجتماعي ووصفها الإبداعي لعصر مضطرب متناقض من عصور التاريخ ! فوجدنا من أعلام الكاتبين من يصمها بما لا تستحق – فهي في رأي الأستاذ سلامة موسى وفي رأي الدكتور أحمد أمين ، أدب مكر واحتيال يصطنع بطله جميع المهن والحرف ليسلب أموال الناس ، هو مرَة قراد يسير بقرده ليجمع الناس في حلقات فيضحكهم ويأخذ من أكياسهم ، وهو مرة واعظ محترف يلج المساجد لتدمع عينه ويرتل آيات الذكر ورقائق الوعظ وسير الصحابة ويتحدث عن مشاهد القيامة وأهوال الجحيم لتعطف عليه القلوب فيرجع مليء الوطاب بالدوانق والدراهم ، وهو مرة ثالثة ينحط إلى دركات وبيئة فيسرق أكفان الموتى ويُجمّل خادمه ليوقع في حبه المتهورين ويتخذ الفصاحة وسيلة هذا الكسب الذميم ! ! والحُكمُ على المقامات من همذانية

وحريرية بالانحطاط الخلقي والإسفاف النفسي خروج بالحق عن طريقه القويم ، لأن من البداهة أن مؤلف الرواية حين يجعل أبطاله من نمط شاذ لا يصور نفسه في شيء ولكنه يرسم إحدى الصور لوقائع مجتمعة ، وألوان مصره وهواجس معاصريه ، فالغرض الحقيقي من نظم المقامات هو تصوير جانب من جوانب الحياة الاجتماعية في القرن الرابع وما يليه ولذلك تعرض البديع وتابعوه لوصفِ ما يرون من مثالب تقع عليها العيون ، ورسم ما يتفنن فيه المشعوذون والدجالون من أنواع المكيدة وضروب الاحتيال كما يكشفون ألاعيب الماكرين من ذوي الصلاح الكاذب والنفاق المسموم مما لانزال نراه في عصرنا الراهن ، وإذا كان تصوير المجتمع من أهم خصائص الأدب الواقعي في عصور الحضارة والتقدم فإن المقامات قد انتحت هذا المنحى فعرضت صوراً صادقة لما كانت تموج به الدنيا من خديعةٍ واحتيال !! صحيح أن البطل الواحد كأبي زيد السروجي عند الحريري مثلا لا يمكنه أن يتقمص جميع الشخصيات في كل المقامات ، فهو تارة واعظ وتارة مهرج وتارة أستاذ مدرسة ، وطوراً طبيبُ مرضى ، مما يتعذر فنيّاً قبولُه ، وهو نقد وجه إلى الحريري والهمذاني ، ولكن الناقدين يغفلون شيئاً هاماً هو أن أبا زيد ليس مؤلفاً وإنما هو ممثّل فقط ، والممثل يأخذ عن المؤلف ويلبس لكل حالة لبوسها بإتقان فهو في مسرحيّةٍ طبيب وفي أخرى مدرّس وفي ثالثة محام ! أما كاتبُ القصة فله من سعة أفقه ما يستطيع به تصوير الأشخاص المتناقضة كما يشاء ! وهل يُعاب على شكسبير مثلا أنه وصف جميع الناس في مسرحياته أو يحسب له ذلك في مجال التفوق والأبداع ! !

وإذا كانت هذه المقامات الرائعة قد وجدت من يزدريها من كتاب العرب وأدبائهم فإنها وجدت فيلسوفاً فرنسياً ذائع الصيت كأرنست رينان يقول عنها في إعجاب ، نقلا عن ترجمة الأستاذ الكبير صديق شيبوب بالبصير ٦١/١٢/٢ (١) .

« يجب علينا أن نتأمل كيف قاد الحريري شحّاذه في خمسين موقفاً مختلفاً بقوة اختراع عجيبة ودقة تأمل في الأخلاق والعادات لنعلم المهارة

(١) جريدة البصير الاسكندرية ٢ / ١٢ / ٦١ ص الحياة الأدبية .

والغرابة التي تنطوي عليها فكرة المقامات ، أرادوا أن يضعوا للقرن التاسع عشر مهزلة بشرية (يشير رينان إلى مجموعة بلزاك المسماة بهذا الاسم) فلم يعرفوا كيف يجلونها في قالب مقبول في حين حقّق الحريري هذه الفكرة للمجتمع الإسلامي في القرن الثاني عشر ، أما بلزاك فقد نقصته شخصية أبي زيد التي لا تكاد تلمسها حتّى تفلت ، والتي تمثل في تهكم أدواراً مختلفة فلا يتبين في الحارث بن همام من خلال هذا كله إلا زي ممثل هزلي عجيب » .

انتقلت هذه المقامات إلى الأندلس واحتفى بها أدباؤها شرحاً ونقداً وتعليقاً ، ومنهم من أنشأ على غرارها مقامات مشهورة كمقامة أبي حفص عمر بن الشهيد ومقامة أبي محمد بن مالك القرطبي ومقامة عبد الرحمن بن فتوح ومقامة ابن المعلم وكلها مذكورة في ذخيرة ابن بسام ، كما وضع الدكتور إحسان عباس بالجزء الثاني من كتابه عن الأدب الأندلسي في صفحات ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ فهرساً طويلا بمن عثر عليه أو سمع به من كتّاب المقامات بالأندلس ، هذا الفهرس الطويل ذو الصفحات الأربع يطلعنا على مدى اهتمام الأدباء بمعارضة المقامات ، واحتفالهم بها احتفال المقدّر العارف ! أما من شرحوا مقامات الحريري بالذات من شيوخ الأدب بالأندلس فكثيرون نذكر منهم عقيل بن عطية المتوفي سنة ١٢١١ م وأبا العباس أحمد الشريشي المتوفي سنة ١٢٢٢ م ثم ترجمت أيضاً إلى اللغات العبرية واللاتينية مما دعا علماً ، الأدب المقارن إلى القول بتأثيرها في إيجاد قصص الشّطّار المعروفة بالأدب الإسباني ، فاتجه الكتاب الروائيون بإيحائها إلى التحدث عن أحوال المجتمع وظروف الأغمار من الناس ، وأخذوا يفتحون عيونهم على ما يشاهدونه من خوالج الفرد العادي وكفاحه في محيطه واحتياله على اقتناص رزقه ثم أبدعوا روائعهم في هذا الاتجاه الواقعي متناسين هذه الأحلام الهادئة التي كانوا يملأون بها قصصهم الخيالية قبل ذلك متخدّرين بأناشيد الرعاة ، وتم لهؤلاء الأسبان من وراء ذلك كله قيادة الأدب الأوربي إلى عالم الواقع الملموس .

وقد اهتم الأستاذ الدكتور محمد غنيمي هلال بهذا التأثير الواقعي في كتابه (الأدب المقارن) فضرب كثيراً من الأمثلة الناطقة باقتباس (قصص الشطار من أدب المقامات ، ونص على أن أول قصة من هذا الضرب القصصي في الأدب الإسباني كان عنوانها « حياة لاسوريو» ومحنته وقد نشرت أول مرة سنة ١٥٥٤ ، وفيها وصف لطفل بائس كان ابناً لطحان فقير ، سجن والده لجريمة صغيرة كانت منه ومات في السجن دون عائل يرعاه ، فبدأ حياته شحاذاً يتسول ، وقد اهتدى في حرفته الحقيرة بأعمى متمرس كان يسن له طريق الشحاذة ، ثم يختلفان بعد حين لشراهة الأعمى وطمعه في ابتزاز صاحبه فيتركه ليعمل خادماً لدى قسٍ محترف يعيش على أموال الصدقات ، ويشاهد غرائب عجيبة من بخله وجشعه وأثرته ثم يتركه هو الثاني إلى خدمة نبيل يتشدّق بعراقة منبته وهو فقير لا يكاد يجد ما يأكل فيضطر إلى أن يتسول لحسابه ويعطيه من كسبه الشحيح ! والسيد النبيل يتعجرف عليه ويأبي أن يجلس معه على مائدة واحدة لأنه سُوقةٌ وهو نبيل ! ثم ينطلق إلى خدمة غيره فيرى من فضائح الشرف وهتك العفاف في أوساط دينية وملكية ما ينغص له الحياة » . هذه عناصر أول قصة تمثل أدب الشّطار ، وصلتها بالمقامة لا تحتاج إلى تبيين // هذا وقد أفاض الدكتور هلال في الحديث أيضاً عن قصص الفروسية في الأدب الأسباني وجعل الأدب العربي ملهمها الأول ، ووضح الصلات القوية بين أقاصيص كريتيان تروا ، وسان بدروا وجارثي أوردونيس في صفحات ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١(١) من الطبعة الثالثة وبين أقاصيص الفروسية والحب العذري لدى العرب ، ولم ينس المقامات في مطافه حيث عقد مقارنة هامة بين المقامة البشرية ذات القصيدة المشهورة للبديع :

أفاطم لو شـــــهدت ببطن خبت وقد لاقى الهـــزبر أخاك بشــرا
إذنْ لشهدت ليثـاً أم ليثـــــا هـــزبرا أغلب لاقٍ هزبـــرا

(١) الأدب المقارن ط ٣ للدكتور محمد غنيمي هلال من ٢٠٨ إلى ٢١٢ .

وبين قصة لانسيلو « الفارس ذو العربة » إذ يلاقي البطل محناً متوالية في تخليص حبيبته من السجن ، فيعبر على جسر حاد كنصل السيف فوق نهر مروع هائل يُسمى نهر الشيطان ولا يستمع تحذير إخوانه ثم ينازل أسدَيْن رهيبين في معركةٍ ساخنة ينتقل منها إلى مصارعة العملاق العنيف « ميليا جان » كل ذلك ليحوز رضا معبودته الحسناء ؛ وبطل البديع بشر بن عوانة من هذا الطراز فهو يقوم بمغامراته الجنونية ليفوز بحبيبته التي تحتجب عنه في قصر أبيها ويصارع الآساد والحيّات مما يوحي بالتقارب الداني بين الاتجاهين ! ! !

ومؤرخو الأدب يذكرون أنّ أول قصة ظهرتْ في أوروبا تمثّل الاتجاه الواقعي بعد أن كافحتْ في سبيل الظهور آماداً طويلة هي قصة (باملا) للكاتب الإنجليزي (رتشردسن سنة ١٧٤٠) وكان ظهورها وليد المصادفة إذ طُلب من المؤلف أن يكتب سلسلةً من الرسائل التعليمية بتثقيف الطبقة الوسطى ممنْ لم يُصيبوا حظاً من التعليم فخطر له أن يبدعها في نهج قصصي ليكون أشوق وأجذب فأحدثت دَوياً رَناناً لم يكن يتوقعه المؤلف وهي في مضمونها تعالج مسائل العفاف والشرف والتوبة والندم وقد جذبت الأنظار أثناء تأليفها حتى كان القراء الذين يتابعون القصة مسلسلة في أبواب يلاحقون الكاتب ليخفف من وطأة حكمه على (كلاديسا) إحدى بطلات القصة ! واعتبرت بذلك أول قصة واقعية تتحدث عن مجتمع مشاهد متطور وأشخاص يرون ويسمعون ، وجاز لبعض النقاد أن يبالغ فيضع (رتشردسن) في مصاف هُوميروس وشكسبير ! ! ولك أن تسأل عن بذور هذا الأدب الواقعي فتجده في المقامات المترجمة الى اللاتينية ثم في قصص الشطار الإسبانية المتفرعة عنها ثم فيما يلي ذلك من الروائع حتى تصل أخيراً إلى كبار القصاصين العالميين من أمثال هيجو ودي مُوباسان وتشيكوف وعشرات من نظرائهم .

لقــد تحدثنا عن ألف ليلة وليلة وعن المقامات ، ولا بد أن نختم القول بكلمة عن كليلة ودمنة وأثره العميق في أدب القرون الوسطى وما تلاها إلى

اليوم ، وكتاب كليلة ودمنة هنديٌّ نُقِل إلى العرب عن طريق فارس! ولكن الأصل الهندي كالصورة الفارسية مفقودان لم يعثر عليهما باحث في تراث الهند والفرس ، حتى تُرجم إلى الفارسية من العربية نفسها ، ولك أن تضحك لهذه المفارقة حين يحتاج أدبٌ من الآداب إلى ما أعاره أدباً آخر فيعود إليه ثانية بعد تحوير وتعديل لم يكونا لديه ! وأقول بعد تحوير وتعديل لأن ابن المقفع حين نقل الكتاب إلى العربية تصرف فيه ببعض الزيادة على سبيل الجزم وببعض النقص على سبيل الاحتمال ، يدل على ذلك ما حكاه البيروني وقد قرأ الأصل الهندي وشاهد تصرف ابن المقفع فهم بترجمة جديدة للكتاب لا ندري أصرفته عنها شواغله الكثيرة أم أنه أبدعها ثم غرقت في خضم الضياع !

يقول أبو الريحان البيروني في تحقيق ما للهند من مقولة :

« ولهم — للهند — فنونٌ من العلم أخر كثيرة وكتبٌ لا تكاد تحصى ولكني لم أحط بها علماً وبودي إن كنت أتمكن من ترجمة (ينج نترا) وهو المعروف عندنا بكتاب كليلة ودمنة فإنه ترددبين الفارسية والهندية ثم بين العربية والفارسية على ألسنة قوم لا يُؤمن تعييرهم إياه ، كعبد الله بن المقفع في زيادته (باب برزويه) فيه قاصداً تشكيك ضعيفي العقائد في الدين وكسرهم للدعوة إلى مذهب ألمانية » .

وقد تزيّد البيروني على ابن المقفع فاشتط في حكمه عليه بالظن لا باليقين ومهما كان من شيء فالنسخة العربية المقفعية هي التي سلمت من الضياع ، وبقيت أصلا لهذا النوع من القصص ، وقد سافرت إلى الأندلس فيما سافر من كنوز اللغة العربية ، وقد ثبت أنها تُرجمت بيقين إلى اللغة القشتالية سنة ١٢٦١ بناء على أمر الملك القشتالي ألفونسو الحكيم وبذلك تكون إسبانيا أسبق الأمم الأوربية إلى قراءته والاستفادة منه .

فإذا ظهرت بعد ذلك قصص (الفابليو) وانتشرت في فرنسا انتشاراً جعلها على كل لسان ، وكان بينها ما أخذ نصًّا من كليلة ودمنة فذلك

دليل على تأثير الكتاب في الأدب الفرنسي ! وإلا فماذا يقال في قصة تُذكر بحوادثها وأشخاصها مطابقةً لقصةٍ سابقة في كتاب ذائع معروف ، لقد دافع بعض النقاد مثل « جوزيف بيديه » بأن التشابه بين القصص الخرافي لدى الشعوب لا يدلّ على نقل وتأثر ، لأن الشعوب الفطرية تتلاقى في تخيلاتها وتصاويرها تلاقياً عفوياً من قبيل توارد الخواطر فقط ! وهذا مسلم إذا كان التشابه في الإطار العام أو الرّوح المسيطر ، أما أن يكون في الأجزاء الدقيقة والتفاصيل الخاصة فهذا ما يتعذر قبوله ! قد تُخترع قصة عن مكر الثعلب في أكثر من أدب ، دون أن يتأثر لاحق بسابق إذ أن الفكرة العامة عن الثعلب هي الخديعة والاحتيال ، وإنها لتكوّن إطاراً لكل ما يمكن أن يندرج فيه من عناصر المكر وأساليب الدهاء ، أما أنْ تكون القصة عن الثعلب مطابقةً في جميع خطواتهـا لقصةٍ سابقة فإن مما تنكره طبائع الأشياء أن تكون الموافقة إذ ذاك عفْوية اعتباطية بل لك أن تحكم بالتأثر مهما انقطعتْ وسائله التاريخية عن عيْنيك ، فالتّماثُل المطابق هنا فوقَ النصوص الجازمة بالتأثر ! بل إذا فُرض أن هذه النصوص التاريخية قد وُجِدت فعلا ولم يؤجد معها مثالُ التأثر فهي مدعاةُ شك وارتياب ، أما إذا عُكس الأمر كمسألتنا هذه فوُجد النص وعزّت الوسيلة ، فلنا أن نحكم بالتأثر إلى أن تتمخّض الأيام عن نصٍ تاريخي يشفعُ في تأكيد الصلة فقط ، ولكن اختفاءه لا يوهنها بحال .

لقــد كان فيما روي من أقاصيص (الفابليو قصة) اللص الذي حاول أن يتسلق ضوء القمر ، وملخصها أن « سارقاً اعتلَى بيتَ ثري من الأثرياء في ليلة مقمرة فشعر به صاحب المنزل ، فطلب من امرأته بصوتٍ خفيضٍ أن تسألَه في إلحاحٍ كيف جمع ثروته ؟ فتسأله ؟ ويُجيبها بعد تمنّع أنه جمع ثروته من السرقة وأنه كان يتلُو رقيةً سحرية فيحمله ضوءُ القمر إلى داخل المنزل ليجمع ما يريد، ثم يتلو الرقية ثانية فيرفعه ضوء القمر ليخرج سالماً ، وهذه الرقية هي كلمة « سول » ينطقها سبع مرات وإذ ذاك ينخدع اللص بما سمع وينطق بالرقية ثم يسلم نفسه إلى الضوءِ ليقع فتنقطع

أوصاله وتُكسر ساقه اليمنى وزراعه ويدركه صاحب المنزل فيقول له اللص : قد سمعت نصيحتك لسوء حظي وعملت بها وهأنذا أحتضر(١) .

هذه الأقصوصة مأخوذة من كليلة ودمنة في باب برزويه وليس بينها وبين قصة الكتاب العربي غير اختلاف في كلمة واحدة وهي كلمة الرقيا! أما جميع الجزئيات والتفصيلات فواحدة ! ومعنى ذلك أن تأثير كليلة ودمنة مبدئياً في قصص الفابليو أمر لاشك فيه !

أما انتشار نصائح كليلة ودمنة في الأوساط المسيحية فأنبهُ من أن يشار إليه فقد صار المثل المحتذى في كتب الحكم والأمثال وحاكاه (دون خوان مانويل) و (أرثبرست دي هيتا) حتى جاء (لافونتين) فأحسن استقلاله بصورة واضحة ، بل إن الشك في خرافات « أيسوب » قد وصل ببعض الباحثين إلى القول بأنها دخيلة على اليونان، إذ نسبها إلى أيسوب بعض المزورين دون أن يكون له جهد في تأليفها وهي هندية في صميمها تنحو منحى كلية ودمنة وتتأثر به وتقتفيه .

يقول الأستاذ عمر الدسوقي في كتابه دراسات أدبية(٢) بعد حديث عن الحكاية الهندية : « وقد انتقلت هذه الحكايات من الهند إلى فارس ثم إلى الشام فاليونان حيث ترجمها بلانودس وهو قسيس يوناني في القرن الرابع عشر ونسبها إلى (أيسوب) ومن هذا الطريق دخل في الآداب الأروبية كثير من الحكايات الهندية القصيرة ، ولا سيما الحكايات التي يتكلم فيها بعض الحيوان ، وهي التي تعرف في عالم القصة بالأمثال تحت العنوان المزور (حكايات أيسوب) والذي يقرأ هذه الحكايات وهو عالم بالقرى الهندية وحياة الهنود ، يدرك تمام الإدراك أن هذه الحكايات نبتت في بلاد الهند ، وليست من عمل أيسوب اليوناني ، وأصدق مثل على هـــذا

---

(١) الأدب المقارن للدكتور هلال ص ٦٦ ط ٣ .

(٢) دراسات أدبية لعمر الدسوقي ص ٥ ط أولى .

حكاية الحمار في جلد أسد لأن بُوذا حين يحكي الحكاية يصوّر فيها قرى الهنـــد وحياتها تصويراً زاهياً لا يدع مجالا للشك فيها ، ونطق الحيوان والطير في هذه الحكايات نشأ عن العقيدة التي دعا إليها بوذا وهي أن الإنسان إذا مات رجع ثانية إلى الحياة في صورة أخرى ، فإن كان ما عمله في حياته السابقة شراً رجع في صورة حية أو وحش ، وإن كان ما عمله خيراً رجع إلى الحياة في درجةٍ أعلى من درجته التي مات عليها ، وكل هذه الحيوات حياة واحدة ، ورجلٌ صالح مثل بوذا يستطيع أن يتذكر ما مر به من حيواته المتقدمة والقصص الهندية ما هي إلا الخمسمائة والخمسون مولداً التي مرّ بها بوذا » .

لعلنا قد أطلنا الاستشهاد ، ولا بأس به في بيان رأيٍ جديد يقبل المناقشة متى أتيحت أسبابها ، وإذا كانت قصص الخرافة لا تندرج في القصة بمعناها الفني فإنها لون من ألوان القصة ، ولها كتابها الفنيّون من ذوي الملكات الروائية وأنصارها المستنبطون من أساتذة الحكم والأخلاق ! وتأثير كليلة ودمنة في هذا المجال أوضح من أن يذكر ! على أن الأندلس كانت معبرة إلى الآداب الأوروبية جمعاء فليذكُرْ لهـا ذلك مدعمـاً بالإســناد .

حي بن يقظان بين الشرق والغرب

لم تأخذ قصة حيِّ بن يقظان نصيبها التام من التحليل والتوضيح ، فهي أثر فذّ خالد يشير إلى عبقرية نادرة ونبوغ ناضج ، ولهـا صلات متشعبة بأكثر من ناحية من نواحي البحث العلمي ، فرجال التربية يروْن فيها مثالا لما تحدثه التربية الفطرية السليمة من آثار ، ويستدلون بها على أثر الطبيعة في تنمية الحواس وشحذ الإدراك ، والذين يتحدثون عن نشأة الحياة على الأرض يرجعون إليها في ملء الفجوات التي تتسع أمامهم حين يفترضون أشياء معقولة يظنونها قد استقامتْ على نحو من الأنحاء ، ثم يضطربون في إيصال الحلقات لتسيير السلسلة الكونية منتظمة كما يعقل أن تسير ، وعلماء الفلسفة يروْنها الدليل على قدرة العقل وقوته ، واستطاعة الإنسان المتأمل أن يرتقي عن عالمه المحسوس الضيق إلى العالم الأوسع الفسيح ! فيصل إلى الخالق بتفكيره ، ويرى آثار الله دالة على وجوده كاشفةً عن حقيقته ، أما رجال الأدب فلهم أن يقولوا كلمتهم في هذا الإبداع المطرد في تدفق وحيوية ، وهذا النّظر المصوّب إلى الأعماق الدفينة تارة والصاعد إلى الآفاق الرحيبة تارة أخرى نافذاً ناقداً ومحللا معللا ! كل ذلك مما تتسع له هذه القصة العجيبة ، إذا تجرّد للحديث عنها أفذاذ جهابذة ! وهي الآن مظلومةمهضومة مع أثرها البعيد واتجاهها الفريد !

كنت أقرأ كتاب « لحظات الإلهـام في تاريخ العلوم » للكاتب الكبير « مريون فلورنس لاتسنغ » فوجدته يتحدث في الفصول الأولى عن الإنسان الأول وكيف اهتدى إلى ما يصلح حياته بالتجربة والملاحظة . . فأحسست أني أقرأ لابن طُفيل لا لمريون فلورنس مع قرب عهده بالنسبة للمفكر الأندلسي البديع ! أحسستُ ذلك في أكثر من صحيفةٌ وفي أكثر من فصل ، بل إن عبارات ابن طفيل كانت تتراقصُ أمام عينيَّ ، وكأنهما المصدر الأول

لمريون ! فهو مثلا يتحدث عن الاهتداء إلى النار ، فيرى أن البرق كان يُصيب الغابات الجافة فيضرم بها اللهيب ، وربما كان فيمن رأوا هذا المشهد رجلٌ جريء فأخذ يحتفظ بجزء من النار ويتعهّدها بالوقود كي لا تنطفيء ، وكانت كل قبيلة تقيم حراساً من أشدائها يتناوبون الحراسة فيمدونها بالحطب والألياف كيلا تخمد ، ثم مضت مئات من السنين حتى اهتدى الإنسان إلى معرفة الحصول عليها دون أن يسهر على حياتها إما بسنّة قطعة خشب محدّدة على لوحةٍ صلبة من البلاط وإما بدقّ حجرين من الصوان ، هذا بعضُ ما قاله مريون فلورنس وهو مقتَبس لا محالة من هذه الفروضِ المحتملة التي افترضها المفكرون في حياة الإنسان الأول ، فأخذوا يتخيلون ثم يكتبون ، لأن حياةَ الإنسان الأول لم تصلْ إلينا بوجهٍ من الوجوه في أثر من الآثار ، ويوم أن استطاع هذا الآدمي العجيب أن يكتب ويترك من الآثار والعاديات ما يدل عليه لم يكن هو الإنسان الأول عن يقين ، بل كان الإنسان المتطور السائر في ركب الوجود على هدى من التجربة والملاحظة ومعاناة من التعثّر والتخبط فإذا لجأ مؤرخو الإنسان الأول إلى الافتراض فإن في طليعتهم صاحب حي بن يقظان ، وهو في ذلك بالنسبة إلى مراجعة العربية مبتديء مجدد لم يرجع إلى سابق متداول كان بين قرنائه ومعاصريه .

لقد وقفت على خلاصةِ حديثِ مريون فلورنس عن اكتشاف النار ولكَ أن تسمع ما قاله ابنُ طفيل العالم المفكر المتخيل حين تحدث عن حي الوحيد المتفرد في الجزيرة فقال .

« واتفَق في بعض الأحيان أن انقدحَتْ نارٌ في أجمة قلحْ ، على سبيل المحاكة فلما بصر بها حيّ رأي منظراً لم يعتده من قبل، فوقف يتعجّب منها ملياً وما يزال يدنو منها شيئاً فشيئاً فرأى ما للنار من الضوء الثاقب والفعل الغالب حتى لا تعلق بشيء إلا أتت عليه وأحالته إلى نفسها فحمله العجب بها وبما ركب الله في طباعه من الجرأة والقوة، على أن يمد يده فلم يستطع القبض عليها ، فاهتدى إلى أن يأخذَ قبساً لم تستولِ النار على جميعه

فأخذ بطرفه السليم ، والنار في طرفه الآخر فتأتى له بذلك حمله إلى موضعه الذي كان يأوي إليه ، وكان قد خلا في احجر استحسنه للسكنى قبل ذلك، ثم مازال يمد تلك النار بالحشيش والحطب الجزل ، ويتعهدها ليلا ونهاراً استحساناً لها وتعجباً منها وكان يزيد أنسه بها ليلا لأنها كانت تقدم له مقام الشمس في الضياء والدفء ، فعظم بها ولوعه واعتقد أنها أفضل الأشياء التي لديه ، وكان يراها دائماً تتحرك إلى جهة فوق ، وتطلب العلو فغلب على ظنه أنها من جملة الجواهر السماوية التي يشاهدها ، وكان يختبر قوتها في جميع الأشياء ، بأن يلقيها فيها ، فيراها مستولية عليها ، إما بسرعة أو ببطء ، بحسب قوة استعداد الجسم الذي كان يلقيه للاحتراق أو ضعفه ، وكان من جملة ما ألقي فيها على سبيل الاختبار لقوتها شيء من أصناف الحيوانات البحرية – كان قد ألقاه البحر إلى ساحله – فلما أنضجت ذلك الحيوان وسطع قتارُهُ تحركتْ شهوته إليه فأكل منه شيئاً فاستطابه فاعتاد بذلك أكل اللحم فصرف الحيلة في صيد البر والبحر حتى مهر في ذلك » .

هذا التخيلُ المعقول لحياة الإنسان في بدء الخليقة ! قد ساعد ابن طفيل على إيجاده ، بل إنه رسم الطريق لكل تخيل يجري مجراه ويسير نحوه ! حتى اكتملت قصة الحياة كما تصورها الفنانون من مُبدعي التاريخ البشري ، وأصبح الحديث في ذلك قريباً من قول ابن طفيل أو على نحو يتجه إليه سريعاً إن حاد عنه قليلا، ولصاحب حيّ بصر متأمل حين يسير بالأشياء في طريقها المعقول فيتصوّر ما كان كأنه يراه حين يكون، والقاريء لا يملك إلا تصديقه بل إنه يحس في أطواء نفسه حين يستمع إليه أنه يصغي إلى قصة يعرفها ويتخيلها ولكنه لظروف ما لم ينطق بها إذ هيأت الأقدار لها كاتباً بصيراً يتولى صياغتها الدقيقة ، فيحيط بأقطارها الفساح ، وفي الناس من تهجس أعماقه بمثل ما هجست به أعماق ابن طفيل حين تخيل الحياة الأولى للإنسان الأول فقال :

« وفي خلال هذه المدة المذكورة تفنّن في وجوه حيله واكتسى بجلود الحيوانات التي كان يشرحها واغتذى بها، واتخذ الخيوط من الأشعار ولحاء

القصب والخبازي والقنب وكل نبات ذي خيط واستأنس جوارح الطير ليستعين بها في الصيد ، واتخذ الدواجن ليستعين ببيضها وفراخها واتخذ من صياصي البقر الوحشية شبه الأسنة وركّبها في القصب القوي وفي عصر الزان وغيرها ، واستعان في ذلك بالزّان وحروف الحجارة حتى صارت شبه الرماح ، واتخذ ترسه من جلود مضاعفة ، كلّ ذلك لما رأى من فقده السلاح الطبيعي ولما رأى أن يده تقي له بكل ما فاته من ذلك ، وكان لا يقاومه شيء من الحيوانات على اختلاف أنواعها إلا أنها كانت تفر عنه فتعجزه هرباً ففكر في وجه الحيلة في ذلك فلم يجد شيئاً أنجح له من أن يتألف بعض الحيوانات الشديدة العدو ويحسن إليها بإعداد الغذاء الذي يصلح لها حتى يتأتى له الركوب عليها ، ومطاردة سائر الأصناف بها ، وكان بتلك الجزيرة خيل برية ، وحمر وحشية فاتخذ منها ما يصلح له وراضها . حتى كمل له بها غرضه وعمل عليها من الشرك والجلود أمثال الشكائم والسروج ، فتأتى له بذلك ما أمله من طرد الحيوانات التي صعبت عليه الحيلة في أخذها ، وإنما تفنن في هذه الأمور كلها في وقت اشتغاله بالتشريح وشهوته في وقوفه على خصائص الحيوان ، وبماذا تختلف » .

هذا نحو من أنحاء ابن طفيل في القصة ! ملأ به ثغرات كثيرة كانت فجواتها البارزة تعترض مؤرخي الحياة البشرية ، وأثره فيمن تلاه من رجال هذه المباحث أوضح من أن يشار إليه ، وما بسبيلنا أن نفصل ذلك ، ولكننا نرصد مجالات التفوق في قصة حيّ بن يقظان ، وتصوير التاريخ الأول للبشرية أحد هذه المجالات ! !

أما المجال الثاني فدورها الهام في التربية إذ كانت الطريقة السائدة إذ ذاك في حقل التربية والتعليم شرقاً وغرباً ترجع إلى التلقين والاستظهار ، فالطالب يملأ ذهنه بالمعارف ووظيفة الأستاذ أن يقف على مدى التحصيل لديه ، وإذا شاء أن يجعل تلميذه في رأيه مثقفاً مستنيراً أرهقه بحفظ القواعد العلمية والنظريات العقلية ثم أخذ ينصت إليه وهو يتلوها عن ظهر قلب ،

ولكن ابن طفيل قد حارب هذه الطريقة حين جعل حيّ بن يقظان يتخذ من الطبيعة أستاذاً يلهمه أدق الأسرار ، وحين أرهف حواسه وملكاته وشحذها شحذاً قوياً لتتفهم ما يحيط بها من ألغاز الكائنات ! فجعل يوقظ فيه روح الملاحظة الدقيقة والإدراك الفطري ، ويكثر تجاربه الشخصية ليخطيء أولا ويصيب ثانياً فيتجنب أسباب الخطأ عن يقين واستبصار ، ثم يفسح له مجال التأمل البصير ليوازن بينه وبين نفسه فلا يخطط طريقاً لا يوصله إلى نفع قريب ، وابن طفيل يعرف لا محالة ما يعرفه علماء التربية من أن الطفل يولد مزوداً بقوى فطرية وغرائز لا بد من توجيهها اتجاهاً صالحاً ولا بد من استغلالها في تنمية العقل وتكوين الخلق ، وهو متعطش دائماً إلى معرفة الحياة الجديدة التي تحيط به وإدراك ما استتر وراء ظواهرها البارزة من خواف مدهشة ، ولا بد من إرواء عطشه ونقع غليله كي يطمئن به مقامه في الحياة فيسير على أرض صلبة لا تزعزها عواصف الشكوك ! وسبيله إلى ذلك قوة الملاحظة ودوام التأمل ، وتعهد التجربة ، نرى ذلك كله في تصرف حيّ بن يقظان حين يبصر الأشياء لأول مرة ، ويقارن ما يراه من المخلوقات بنفسه فيرى وجوه اتفاق واختلاف فيتساءل عما يرى ويصور ابن طفيل شجونه وخواطره حين يقول عنه ص ٧٣ (١) دار المعارف :

« وكان في ذلك كله ينظر إلى جميع الحيوانات فيراها كاسية بالأوبار والأشعار وأنواع الريش وكان يرى ما لها من سرعة العدو وقوة البطش وما لها من الأسلحة المعدة لمدافعة من ينازعها مثل القرون والأنياب والحوافر ثم يرجع إلى نفسه فيرى ما به من العرى وعدم السلاح وضعف العدْو ، وقلة البطش عند ما كانت تتنازعه الوحوش أكل الثمرات وتستبد بها دونه وتغلبه عليها فلا يستطيع المدافعة عن نفسه . ولا الفرار عن شيء منها وكان يرى أترابه من أولاد الظباء قد نبتت لها قرون بعد أن لم تكن ، وصارت قوية بعد ضعفها في العدو ، ولم ير لنفسه شيئاً من ذلك كله ، فكان يفكر

(١) اعتمدنا على النص الذي حققه الدكتور أحمد أمين ونشرته دار المعارف في سلسلة ذخائر العرب ط أولى .

في ذلك ولا يدري ما سببه ، وكان ينظُر إلى ذوي العاهات والخلق الناقص فلا يجد لنفسه شبيهاً فيهم ، وكان أيضاً ينظر إلى مخارج الفضول من سائر الحيوانات فيراها مستورة دونه ، فلما طال همه في ذلك كله وهو قد قارب سبعة أعوام ويئس من أن يكمل له ذلك ، وما قد أضر به من نقصه ، اتخذ من أوراق الشجر العريضة شيئاً جعل بعضه خلفه ، وبعضه قدامه وعمل من الخوص والحلفاء شبه حزام على وسطه وعلق به تلك الأوراق ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى ذوى الورق وجف وتساقط عنه فما زال يتخذ غيره ، ويخصف بعضه ببعض طاقات متضاعفة وربما كان ذلك أطول لبقائه إلا أنه كان على كل حال قصير المدة ، واتخذ من أغصان الشجر عصياً سوّى أطرافها وعدل متنها، وكان يهش بها على الوحوش المنازعة له فيحمل على الضعيف منها ، ويقاوم القوي منها ، فنبل بذلك قدره عند نفسه بعض نباله ، ورأى أن ليده فضلا كثيراً على أيديها إذ أمكن له بها ستر عورته، واتخاذ العصي التي يدافع بها عن حوزته ممّا استغنى به عما أراده من الذنب والســلاح الطبيعي» .

كلام نفيس جيد نخشى أن نطيل اقتباسه فننقل أكثر ما قال ابن طفيل ، وهو يطرد في هذا المنحى اطراداً موفقاً إذ يجعل الملاحظة والتجربة ديدنه ، فيصيب بهما قدراً كبيراً من النجاح ! كما أنه قبل كل شي ء يميل بالتربية إلى الطبيعة فهو أستاذ (روسّو) في ذلك ! وليس معنى هذا أن الكاتب الفرنسي قد أخذ عنه رأيه التربوي ! ولكنه قد سبقه بعدة قرون في تلقي أسرار التربية عن فم الطبيعة نفسها ، وقد نشأ جان جاك روسو مفتوناً بمباهج الكون ومجاليه ثم بحث في أعماقه مدققاً في استكناه الطبائع والغرائز والميول فرأى أن الطريقة المثلى للتربية هي مسايرة هذه الطبائع السليمة إذ تتجه دائماً إلى استكناه الكون ومعرفة البواعث وتعدّي الظواهر إلى الخفايا وإن غلا في ذلك مغالاة دفعته إلى المناداة بالتربية السلبية على أساس أن يترك الأشياء للطفل يعالجها وتعالجه دون إرشاد معلم، وهو تصور بعيد عن الحقيقة لأن الطفل مهما كان قويّ الملاحظة في حاجةٍ إلى من ينظم له طريق البحث ، ويمهد

إليه أسباب النظر ويهيج فيه شعور الاستنتاج ! ولن نتخذ حي بن يقظان دليلا على صحة اتجاه روسو ، لأنّ بطل الفيلسوف الأندلسي قد عاني من المصاعب الشدائد ما كان يهون لديه ، لوْ وَجَدَ المعلم الناصح والمربي البصير ! وإذا كان قد عرف الطريق بعد مجهود شاق تصرمتْ به السنون والأعوام ، فما أجدرنا أن نجنب أطفالنا هذا التعثّر ، وظروفهم غير ظروف حيّ دون نزاع ! ثم إن ابن يقظان من وراء ذلك كله حاد البصيرة ، خارق الذكاء ، ولن يكون جميع الأطفال من هذا الطراز ! على أن القول بالجزاء الطبيعي الذي نادَى به رُسّو واعتنقه (هربرت سبنسر) ودافع عنه مدافعة صارمة أيّدها بتفكيره الدقيق وميزانه المنطقي قد وُجِد بصورة واضحة عند ابن طفيل ، فحيٌّ كان يخطيء فكان يلقي جزاء الخطأ من جنسه ، يمدّ مثلاً يده إلى النار حين يراها أول مرة ليختبر جوهرها فيدركه الجزاء الصارم باللذع والإحراق ! وفي ذلك ما يؤكد أن القصة في حاجةٍ إلى دراسة تربوية تبين منهج مفكر كبير من مفكري الأسلام في التربية والتعليم ، وتوضّح مدى استفادة معاصريه وتأثر من تلاهم بآرائه ثم نُقارن ما تمخضتْ عنه الأبحاث الجديدة في التربية ببعض ما اهتدى إليه ! وهو مبحث بكر يتطلب من يهتم به من الباحثين . . .

وقبل أن نتحدث عن مغزى القصة الفلسفي كما عناه ابن طفيل وعن أثرها القوي فيما تلاها من المؤلفات وهو ما أردناه بكتابة هذا البحث ، نوجز المقال عن أسلوبها الأدبي فنرى أنها من حيث كونها قصة يصدق عليها قول الأستاذ غرسيه غومس (١) .

« إن الخيط الذي ينتظم حلقات القصة يبدوا واضحاً غليظاً في أولها وآخرها ويدق في الوسط حتى يكاد يخْفي ، وإن بداية القصة ونهايتها أشبه بقوسين ضخمين يضمان بينهما حشداً رائعاً من الآراء الفلسفية » . وهو حكم نميل إليه ، لأن الطابع القصصي كان واضحاً في البدء حين

(١) مقدمة الترجمة الفرنسية للأستاذ ليون جوتييه ص ٩ .

تحدث الكاتب عن الجزيرة ومجيء التابوت إليها ، ورسم المسرح بمياهه وأشجاره وحيواناته ، ، ثم انساق بعد ذلك في أبحاثه الفلسفية عن الروح والكون وواجب الوجود والوصول إلى الخالق عن طريق الاستشفاف والتأمل وأفاض في ذلك إفاضة العالم الأديب ، لا القصاص الفنان حتى إذا انتهى حيّ من مأربه العقليّ اتصل بأبسال وهنا نرى خيوط قصة تأخذ مجراها الوصفي وتنتهي بأدوارها وأشخاصها ومسرحها انتهاء القصص الفنية ! فكأن الخيط الفني قد انقطع في الوسط وظهرواضحاً في الطرفين كما يقول الأستاذ غرسيه غومس، وإن كان الأستاذ ليون جوتييه مترجم القصة إلى الفرنسية لا يرى ذلك ويخالف الأستاذ غومس حيث يقول في نقده : « إن ذلك يوحي بضعف القصة بينما العنصر القصصي في الواقع متعادل متناسق في أجزاء القصة كلها ، وهو يختلط بالعنصر الفلسفي من أول الكتاب إلى آخره وقد عرف ابن طفيل أن يستبقي من الأسطورة ما يصلح وما يسوغ ، ويطرح منها ما لا ينفع فأضفى عليها روحاً جديدة ومكنها من حشد جميع آرائه وأفكاره(١) » .

وقد عرضنا رأي الأستاذ ليون جوتييه دون أن نراه ، إذ أن مما يسرنا أن نسجل هذه الشهادات السارة لفيلسوفنا الكبير ، ولئن كان السياق القصصي غير مطرد فإن الأسلوب الأدبي — بعيداً عن موازين القصة — قد جاء آية في البراعة والإبداع إذ أحكم المؤلف تصوير المواقف إحكاماً رائعاً ! وفي بعض عباراته نبض مؤثر حي تهتز له المشاعر كما تهتز لقصاص فنان، فهو مثلا يتحدث عن حيّ حين تموت مرضعته الظبية ، وينظر فيجدها لأول عهده بالموت جثة هامدةدون أن يعرف حقيقة ما طرأ عليها ! فيأتي من الأعمال ما يدل على حيرتهوارتباكه ، وهو موقف عاصف مؤثر أجاد تصويره ابن طفيل حين قال ص ٧٤ ط — المعارف :

« وما زال الهزال والضعف يستولي عليهاويتوالى — على الظبية المرضعة — إلى أن أدركها الموت فسكنت حركاتها بالجملة وتعطلت جميع أفعالها ،

(١) مقدمة الترجمة الفرنسية ص ١١ .

فلما رآها الصبي على تلك الحالة جزع جزعاً شديداً ، وكادت نفسه تفيض أسفاً عليها فكان يناديها بالصوت الذي كانت عادتها أن تجيبه عند سماعه ويصيح بأشد ما يقـــدر عليه فلا يرى لها عند ذلك حركة ولا تغيراً فكان ينظر إلى أذنيها وإلى عينيها فلا يرى بهما آفة ظاهرة ، وكذلك كان ينظر إلى جميع أعضائها فلا يرى بشيء منها آفة ، فكان يطمع أن يعثر على موضع الآفة فيزيلها عنها فترجع إلى ما كانت عليه ، فلم يتأت له شيء من ذلك ولا استطاعه وكان الذي أرشده إلى ذلك الرأي ما كان قد اعتبره في نفسه قبل ذلك ، لأنه كان يرى أنه إذا أغمض عينيه أو حجبهما بشيء لا يبصر شيئاً حتى يزول ذلك العائق ، وكان كذلك يرى أنه إذا أدخل إصبعيه في أذنيه وسدهما لا يسمع شيئاً ، حتى يزول ذلك العارض وإذا أمسك أنفه بيده لا يشم من الروائح شيئاً حتى يفتح أنفه ، فاعتقد من أجل ذلك أن جميع ما لها من الإدراكات والأفعال قد تكون لهـــا عوائق تعوقها فإذا أزيلت تلك العوائق عادت الأفعال » .

لهذا الموقف في قوته وتصويره أمثال في القصة ! وحين قرأته تذكرت مشهد طفل كان ينادي أباه الميت دون أن يعلم شيئاً عن حقيقته ! وكنت أشاهده وقلبي يتقطع من الألم ولا أستطيع أن أفعل شيئاً ! وجاء من أبعدوه عن الجثة وهو لا يفهم سر الإبعاد ! لقد أعاد ابن طفيل لإحساسي هذا المشهد بما كتب فطفرت من عيني الدموع !

ولعلنـــا بعد ما تقدم عن القصة وأفانينها التاريخية والتربوية والأدبية نستطيع أن نستمع إلى ما قيل عنها في مجال التأثر والتأثير لنصل إلى رأي توضحه البراهين وتدعمه الأسانيد .

لقـــد ظهر ابن طفيل في القرن الثاني عشر للميلاد ، وهو من جبابرة المفكرين في العصور الوسطى كما وصفه بذلك أكثر الباحثين وقد وصل إلى إلى الحجابة فالوزارة في بلاط صاحب المغرب الأمير يوسف بن عبد المؤمن ، وكان بين الأمير والوزير من الصداقة ما مهد له الطريق للراحة والاطمئنان فاستطاع أن يؤدّي دوره الثقافي عالماً وفلكياً وطبيباً ورياضياً . وفيلسوفاً

وأديباً ، وكان من الثقة بنفسه بحيث واجه أفكار الأفذاذ من سابقيه ومعاصريه فناقش آراء بطليموس والفارابي وابن سينا وابن رشد وابن باجه والغزالي ، مناقشةً ذات حُجج وإقتناع ، وكانت قصة حي بن يقطان بعض آثاره الباقية التي قال عنها الدكتور « سارطون » بحق إنها من أجمل الكتب المبتكرة في موضوعها التي ظهرت في العصور الوسطى جميعها !

وكان طبيعياً أن يتجادل الكاتبون حولها ، فظهرت مجموعة من البحوث تزن أفكارها وتحدد مدى ابتكارها وتجديدها كما تدل على تأثيرها فيما تبعها من القصص المماثلة ! وقد تكاثر البحث في ذلك حتى كاد أن يبعد عن موضوعه ، إذا كان مجال الافتراض لدى بعض الباحثين طلقاً فسيحاً تعذرت معه الضوابط الفاصلة وسنناقش من هذه البحوث ما نراه جديراً بالنقاش لنصل إلى الحقيقة التي نريد . لقد كان ابن طفيل معجباً بابن سينا وقد قرأ قصته عن حي بن يقظان فأوحتْ إليه أن يكتب قصة حيّ كما يتخيلها هو لا كما أرادها الشيخ الرئيس، فابن سيناء قد جاء في قصته برفقة يتحدثون ويتناقشون، ليسوا أشخاصاً من لحم ودم ولكنهم يرمزون إلى أشياء معنوية تجريدية ، فحي بن يقظان رمز إلى العقل المجرب ، الذي حنكته السنون ، وعركته الأحداث ، ورفقته رموز إلى الشهوات والغرائز والغضب ، وسائر الملكات الإنسانيّة وميدان الجدل بينهما ما يحدث عادة بين غرائز الإنسان وشهواته وعقله ، والقصد منها كما يقول الأستاذ أحمد أمين في كتابه حي بن يقظان (١) :

« تبين قوة العقل وتميزها على ما لدى الإنسان من غرائز وملكات ، وهدايتها ونجاتها إذا استمعت قوله ثم بيان علاقة هذا العقل الأرضي بالعقول السماوية العليا ثم علاقتها جميعاً بالعقل وهو العلة الفاعلة أو بعبارة أُخرى هو الله واجب الوجود » . قرأ ابن طفيل رسالة ابن سيناء عن حي بن يقظان

---

(١) حي بن يقظان تحقيق الدكتور أحمد أمين ط دار المعارف ص ٢١ .

فأوحت إليه فكرة أخرى لا تستهدف ما عناه الشيخ الرئيس ولكنه شاء أن يبين كيف يستطيع الإنسان أن يرتقي بنفسه وبتفكيره من عالم الحسّ إلى عالم العقل . بحيث يستطيع أن يصل إلى معرفة الله وهو بذلك متأثر بفكرة المعتزلة عن العقل فهو دليل الجزاء من ثواب وعقاب ! وإذا استطاع الإنسان أن يصل إلى الله بنفسه كما وصل حي بتأملاته فقد بلغ مشارف الكمال !

رأى ابن طفيل أن حياً تولد من غير أب وأم في إحدى جزر الهند تحت خط الاستواء وتلك الجزيرة وأعدل بقاع الأرض وأصلحها للتولد والاختصار والامتزاج وقد خاف ألا يصادف هذا التوالد الطبيعي مقنعاً عند بعض الناس فأجاز رأياً آخر هو أن حياً ولد لأب وأم من البشر إذ كانت أمّه أختَ ملك جبار وقد عضلها ومنعها من الزواج إذ لا يوجد كفؤٌ لها من بني الإنسان ، ولكنها تزوجتْ سراً بيقظان أحد وزرائه وحين جاءها الوضع حذرت من أخيها ، فأخذت حياً وليدها ووضعتْه في صندوقٍ وألقتْه في اليم دامعةً باكية ، راجيةً أن تلحظه السماءُ بعنايتها فسار الصندوق حتى وصل إلى الجزيرة ونشأ حيّ هناك ، يقول ابن طفيل في رواية ذلك(١) :

« ثم قذفتْ به في اليم فصادفَ ذلك جري الماء بقوة المد ، فاحتمله من ليلته إلى ساحل الجزيرة ، وكان المدّ يصل في ذلك الوقت إلى موضع لا يصل إليه إلا بعد عام فأدخله الماء بقوة إلى أجمةٍ ملتفة الشجر عذبة التربة مستورة عن الرياح والمطر محجوبة عن الشمس ، تزوّر عنها إذا طلعت وتميل إذا غربت ، ثم أخذ الماء في النقص ، والجزر عن التابوت الذي فيه الطفل ، وبقي التابوت في ذلك الموضع وعلت الرمال بهبوب الرياح ، وتراكمت بعد ذلك حتى سدت باب الأجمة على التابوت ، وردمت مدخل الماء إلى تلك الأجمة فكان المدلا ينتهي إليها ، وكانت مسامير التابوت قد قلقت وألواحه قد اضطربت عند رمي الماء إياه في تلك الأجمة ، فلما اشتد

---

(١) ص ٦٨ : ط دار المعارف .

الجوع بذلك الطفل بكى واستغاث ، وعالج الحركة فوقع صوته في أذن ظبية فقدت طَلاهَا ، خرج من كناسه فحمله العُقاب فلما سمعتِ الصوت ظنّته ولدها فتتبعت الصوت وهي تتخيل طلاها حتى وصلت إلى التابوت ففحصت عنه بأظلافها وهو ينوء ويئن من داخله حتى طار عن التابوت لوح من أعلاه ، فخفت الظبية وحنت عليه وأروتْه لبناً سائغاً وما زالت تتعهده وتربيه وتدفع عنه الأذى » .

هذه السطور المحدودة التي جاءت بين صفحات القصة الطويلة كانت مدعاة لتقول كثير فقد قرأ الأستاذ غرسيه غوميه بضعةَ أسطر في خرافة تروى عن الإسكندر ذي القرنين ، فرأى بين الخرافة ، وهذه الأسطر من قصةِ حيّ ما يدل على أن ابن طفيل قد استغل أسطورة ذي القرنين وبنىَ عليها قصته ، ثم جاء (بلتاز جراسان) بعد ابن طفيل بعدة قرون فنقل عنه فكرته التي رسمها بوضوح وكان الاحتذاء واضحاً سافراً ينادي على نفسه! ولكن الأستاذ غرسيه وبعض من شايعهمن المستشرقين لا يميلون إلى الجزم بذلك بل يرون أسطورة الإسكندر أساس القصتين وأنها كانت مصدر ابن طفيل وجراسان معاً! والأمر أوضح من أن يختلف عليه اختلاف الشكل الغامض من الآراء! وسنبسطه بسطاً سافراً يلمسه القاريء بالنظر السريع بعد أن تبدد ماحاكوه حول قصة حي من شبهات واهية لا ترتكز على أساس متين .

لقدجعل ابن طفيل بطل قصته — أولا — طفلاً يُرمى في تابوت ينقله البحر إلى جزيرة نائية ثم جعل مرضعته — ثانياً — ظبية رقيقة تعطف عليه وتختاره بديلا من طلاها الفقيد ، ثم مضى به — ثالثاً — حتى بلغ أتم مرحلة من النضوج الفكري تولّى فيها تعليم نفسه بنفسه عن طريق التأمل والاستبصار حتى وصل إلى فكرة الإنسان المتوحد — بوحي من تفكيره الدقيق ، فما في هذه الثلاثة من الغريب على ابن طفيل حتى يستند إلى أسطورة وثنية لا تصلح لإلهـــامعبقري بديع .

أما أنه قد رمى بالطفل إلى البحر مع التابوت خوفاً من ملك جبار ! فجائز جداً أن تكون قصة موسى عليه السلام كما حكاها القرآن الكريم قد

هدتْه إلى ذلك الإنقاذ الغريب ، وابن طفيل الفيلسوف المسلم قد قرأ القرآن وأدرك أسراره وَلأَنْ يتأثر به أقرب إلى العقل من أن يتأثر بخرافةٍ وثنية لم يثبت وجودها لعهده على وجه قاطع صريح ! فلو تأثر خيال ابن طفيل في هذا الموضع بشيء لتأثر بقول الله، ولا يقدح في ابتكاره أن يهتـــدي بنص كريم .

هذا عن الشبهة الأولى . . أما عن الشبهة الثانية التي لمحها الأستاذ غومس في إرضاع الظبية لحيّ حتى استوى ومرن ! فليست أسطورة الإسكندر صاحبة التفكير في ذلك ، إذ أن أساطير العــرب القديمة تذكرُ نحواً قريباً منه حين تجعل بعض الحيوانات تعطف على الصغار فترضعها الأثداء . . . وكتاب الحيوان للجاحظ ذائع مشتهر ، ولا بد أن عالـماً طبيباً يهتمّ بالتشريح كابن طفيل قد قرأه ودرس طبائع الحيوان وخصائصه كما صورها الجاحظ وفي بعض قصص الجاحظ وطرائفه ما يدل على رضـــاعة الأطفال من الحيوان ! فقد قال ما نصه :

« وزعم علماء البصريين أن طاعوناً جارفاً جاء على أهل دار فلم يشك أهل تلك المحلة أنه لم يبق فيها صغير ولا كبير ، وقد كان فيها صبيّ يرتضع ويحبُو ولا يقوم على رجليه فعمد من بقي من المطعونينَ من أهل تلك المحلة إلى باب تلك الدار فسده ، فلما كان بعد ذلك بأشهر تحول فيها ورثة القوم ففتح الباب ، فلما أفضى إلى عرصة الدار إذا هو بصبي يلعب مع أجراء كلبته ، وقد كانت لأهل الدار ، فراعه ذلك فلم يلبث أن أقبلت كلبة كانت لأهل الدار فلما رآها الصبي حبا إليها فمكنته من أطبائها فمصها ، فظنوا أن الصّبي لما بقي في الدار وصار منسياً واشتد جوعه ورأى أجراءها تستقي من أطبائها حبا إليها فعطفت عليه فلما سقته مرة أدامت ذلك له وأدام هو الطلب . فسبحان من دبّر هذا وألهمه وسوّاه ودلّ عليه (١) » .

---

(١) الحيوان للجاحظ ج ١ ط الساسي .

وبديهي أنيّ لا أذكر هذه القصة لأجزم بوقوعها ، فقول الجاحظ وزعم علما البصريين مما يضعف تحققها ، ولكني أقول إنها كانت معروفة لابن طفيل فيما قرأ من كتب الجاحظ فإذا جعل حيـاً في قصته يفيء إلى ظبية ترضعه وترئمه فذلك مما أوحاه إليه أمثال هذه الأقاصيص ! وخياله الرائع جدير أن يتفتق تلقائياً عن اتجاهٍ معقول يرتضيه! على أن اختيار الظبية بالذات ذو مدلول ذوْقي وعلمي لا يبعد عن ذهنٍ راقٍ كذهن ابن طفيل . . . وما تعمدنا الاستشهاد بقصة الجاحظ إلا لنبطل رأي من يقول باستلهام خرافة غربيّة لم تكن ذائعة في عصر الموحدين ! ! أما وصول حيّ بنفسه إلى ماهدتْ إليه التعاليم السماوية من قدرة الخالق الأعظم وإبداعه فهو الهدف الأساسي الذي قام في نفس الفيلسوف قبل أن يُنشيء القصة وعلى أساسه اختار البطل وهيأ المسرح وكتب تاريخ الحياة ، أفيكون قد استوحاه أيضاً من أسطورة الإسكندر وهي لا تشير إلى مغزى فلسفي على الإطلاق ! !؟ ربما كان القول بتأثير ابن باجة في نفس ابن طفيل بفكرة الإنسان المتوحد مما يلتفت إليه في تكوين بنائه الفلسفي ! ولكن القول بتأثير أسطورة الإسكندر وهم متآكل لا يثبت إلى تحقيق ! !

لقد طال الحديث عن هذه الأسطورة وكأني بالقاريء قد اشتاق إلى الوقوف على مضمونها ليلمس بيديه مكان الشطط في الاستنتاج والغلو في التقدير ! وهي تقص علينا أن الاسكندر وصل في فتوحاته المظفرة إلى جزيرة تسمى (أرين) فرأى بها تمثالاً ضخماً كتبت عليه سطور كثيرة فسأل عن ترجمتها فعرف أن صاحب هذا التمثال كان ابناً لبنت ملك فألقت به في البحر لسبب ما فرحل به التيار إلى جزيرة بعيدة لا يسكنها إنسانٌ فربتْه ظبيةٌ عطفت عليه فنما بالجزيرة وترعرع وأخذ يتفكر ويتأمل دونَ أن يصل إلى شيء ؛ ! ! حتى وصل إلى الجزيرة أبوهُ باحثاً عنه ، فتعارفا واصطحبا دون أن يعرف أحدهما الآخر ثم تركا مكانهما إلى الجزيرة المعمورة . وهذا بعينه قريب مما حكاه ابن طفيل ولكن مكان الشطط في الاستنتاج والغلو في التقدير يكمن في ناحية هامة لا يجوز إغفالها هي أن هذه الأسطورة لم تُعرفْ إلا في مخطوط

كُتب بحروف لاتينية أرغونية يرجع إلى القـــرن السادس عشر (حي بن يقظان ط – دار المعارف ص (١٣) ومعروف أن ابن طفيل قد كتب قصته في القرن الثاني عشر الميلادي فكل ما يجيء بعد ذلك من الأساطير المشابهة لا بد أن يكون مستلهماً من قصة حيّ بن يقظان ! ولا يمكن أن يكون العكس صحيحاً إلا بدليل يقيني تطمئن إليه النفس ! وهذا ما لم يأت به القائلون بتأثير هذه الأسطورة إلى الآن ! وادعاء قدم الأساطير الشعبية مما يستأنس به عند قيام أدلة متضافرة ولكنه لا ينهض وحده دليلاً يُجابه أدلة منطقية ذات زمان وتاريخ . على أن هذه الأسطورة جعلت في رأي بعض النقاد أصلا لقصة ألفها الكاتب الإسباني بلناسارجَراتيان ١٦٠١ – ١٦٥٨ .

وهي في ثلاثة أجزاء يتشابه الجزء الأول منها تشابهاً قريباً بقصة حيّ إذ أن بطل القصةينجو من الغرق فتدفعهُ الأمواج إلى جزيرة نائية فيصادف فتى مثل حيّ بن يقظان كان يحيا في الجزيرة على نحو مماثلٍ لحياته لا يعرف خالقه ولا يفهم عن الحياة شيئاً فيصادفه ويفهمه طريقة الكلام كما فعل أبسال بحيّ تماماً ! ! ثم يتوجهان معاً إلى إسبانيا ويبدأ صاحبه بتحذيره من الناس ويدعوه إلى التعقل والتصون فيستجيب إلى غرائزه مخالفاً إياه ثم ينزلق في علاقة أثيمة مع بعض الساقطات ، فيحاول أن ينقذه ثانية بإرشاده وتوجيهه ولكنه يخفق . . وتمضي القصة على هذا النحو متأثرةبقصة حيّ تأثراً لا شبهة فيه ولكن الأستاذ غرسيةغومس لايقطع به ويظن أسطورة الإسكندر مصدر ابن طفيل وجراثيان معاً ، وقد وافقه على ذلك بعض الكاتبين من المستشرقين ولكن الدكتور البحاثه محمد غنيمي هلال يبسط جوهر الخلاف في كتاب « الأدب المقارن » ثم يرى أن تأثر جراثيان بابن طفيل لا بالأسطورة واضح ويعلل ذلك ص ٢٤١ ط ثالثة . « بأن شبه قصة (جراثيان بلنار سار) بقصة حي لا ينحصر في القالب القصصي العام ولكن يبدو كذلك واضحاً في الطابع الرمزي فهذه الميزة هي جوهر ابن طفيل وليس في قصة الصنم المعبود شيء منها على أنه ليس لدينا دليل قاطع على سبق أسطورة الإسكندر لقصة ابن طفيل تاريخياً » .

ثم يتحدث الدكتور محمد غنيمي هلال عن تأثير قصة حي في أوربا وأثرها البارز في الاتجاه إلى قيم جديدة ، وأفكار هامة فيقول(١) :

«وحين عرفت قصة حيّ بن يقظان في أوربا لقيتْ حظاً رائعاً لدى فلاسفتها وخصوصاً في القرن الثامن عشر ثم التاسع عشر ، ذلك أن القرن الثامن عشر الأوروبي كان يعتقد مقدرة الإنسان الفطري على الاهتداء للفضائل ، وإلى الأسس السامية التي تفضل الشرائع الإنسانية ، وقد راجتْ هذه الدعوة نفسها لدى الرومنتيكيين في القرن التاسع عشر ، ورأى هؤلاء وأولئك في قصة حي بن يقظان ما يشد أزر دعوتهم ، إذ اهتدى حي فيها إلى ما يتجاوز الشريعة ، ومن الواضح أن رأي هؤلاء في تأويلهم لقصة ابن طفيل لا سند له من حقيقة القصة نفسها ، ولكنه كان جوهر دعوتهم وإذن فقد كان تأثير قصة ابن طفيل في الآداب الأوروبية تأثيراً كبيراً متنوع الدلالة» .

هذا كلام الدكتور محمد غنيمي هلال وقد وقفت كثيراً عند قوله ومن الواضح أنه رأي هؤلاء في تأويلهم لقصة ابن طفيل لا سند له من حقيقة القصة نفسها ، ولو كان الأمر كما يقول لما تمسك بها هؤلاء دليلا على ما يهدفون إليه ! وإذا كانت دعوتهم – باعتراف الدكتور الفاضل – تذهب إلى الاعتقاد في مقدرة الإنسان الفطري على الاهتداء إلى الفضائل وإلى الأسس السامية التي تفضل الشرائع الإنسانية ! ! إذا كانت دعوتهم كذلك فإنّ حيّ بن يقظان كما عرضه ابن طفيل تطبيق صريح لهذه الدعوة ومثال قوي الدلالة على إمكانها حيث اهتدى إلى الفضائل الإنسانية بتفكيره التأملي وإحساسه الفطري ثم ارتقى إلى ما فوقها في عالم الغيب . واهتداؤه إلى هذه الفضائل وحدها هو المقصود عند هؤلاء وهو واضح لا شبهة فيه ! !

---

(١) الأدب المقارن ط ثالثة للدكتور هلال ص ٢٤١ .

طوق الحمامة يسبق إلى تشريح الحب

تظل كتابة المستشرق الهولندي الأستاذ ريتهارت دوزي جيدة مستقيمة ، حتى يلم بميزة بارزة للإسلام فينحرف !

لقد ذهب في الجزء الثالث من كتابه عن تاريخ المسلمين في إسبانيا إلى أن ابن حزم قد عرف الحب العذري العفيف وتذوقه لأنه من أصل مسيحي في زعمه ، ولأن عرق المسيحية العفيف قد نبض فيه رغم إسلامه فجعله ينحو منحى العفّة شاذّاً بذلك عن بقية المسلمين ! ! وجاء من المستشرقين من أيده وسانده ، ومنهم الأستاذ ماسينيون وهو من أعمق الدارسين للحب الإسلامي صوفيا وعذرياً ، فماذا نقول في ذلك ؟ ! ! لو كانتْ مسألة العفة في الإسلام من الأمور المتشابهة التي تلتبس فيها الآراء وتحتاج إلى مجهر دقيق يبرز ما استتر من النصوص والأحداث لعذرنا دُوزي وماسينيون فيما ذهبا إليه من التفسير ! ولو كان المستشرقان الكبيران ممن لم يتعمقوا هذه النصوص الصريحة ولم يتبينوا الوقائع المشاهدة لقلنا عنهما لقد فقدا الدليل وأعوزهما البرهان ، ولكن الحب العذري في الإسلام برجاله وأحداثه وأشعاره أوضح من أن يدل عليه وأشهر من أن يجعله مبتديء ناشيء يتلقى الدراسة الأولى في الثقافة الإسلامية ! بل إن كتاب طوق الحمامة الذي جعلهما يصدران هذا الحكم الجائر ليضم فصلين طويلين عن قبح المعصية وفضل العفة في الإسلام ، وبهما من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ما يكفي لإيضاح رأي الإسلام في التمسك بالفضيلة والشرف والعفاف ! فلو أن الأستاذ دوزي – على سبيل الجدل – لم يقرأ شيئاً عن تعاليم الإسلام وقرأ هذين الفصلين وحدهما لكان جديراً أن يبطل رأيه فيما ادعاه ! فما ظنك بما سينون وأبحاثه عن التصوف الإسلامي والحب الإلهي ذائعة مستفيضة ! ! أنفترض بعد ذلك كله أنهما حكما على كتاب ابن حزم دون

أن يقرآه ! وأن الأستاذ ماسينيون تكلم عن الحب الإلهي في الإسلام دون أن يعرف عن أصحابه شيئاً ! ذلك أهون بكثير من أن نصمهما بسواه .

لئن كان الحب العذري نبع في الجاهلية لدى المرقش الأكبر وأضرابه ، ممن هدتهم الفطرة العربية إلى الطهارة النبيلة ، والشرف الأثير فإن ما ولى ذلك من دعوة الإسلام المتكررة إلى العفاف والصون ومحاسبة النفس ورقابة السماء ، قد أكدت هذه المعاني وجعلت لها أناساً وقبائل وبيوتاً تنسب إليها ، وتشتهر بها ، وإذا كان الإسلام قد دعا إلى الجهاد بقوة ، فإن الجهاد الأكبر جهاد النفس ومصارعة الأهواء كما يقول الرسول الكريم ، وبهذه التعاليم المثالية أصبح العفاف مبدءاً إسلامياً قوي الدعائم وصارت الطهارة والمروءة والترفع من سمات هذا الدين العفيف ، وتحدث التاريخ لدينا عن جماعة من العشاق تتأجج أشواقهم في صدورهم ثم لا يهمّون بشيء دعايةً للشرف وامتثالا لقواعد الإسلام ، كان عبد الرحمن بن عمار المعروف بالقس عابداً متنسكاً وقد أوقعه حظه في سلامه المغنية فبادلته حباً بحب حتى اشتهرت به فقيل عنها سلامة القس ، فقالت له أنا أحبك فقال لهـا وأنا والله كذلك ! قالت فما يمنعك فوالله إن الموضع لخال ، فقال في إشفاق لقد تذكرت قول الله عز وجل : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلا المتقين » وأنا أكره أن تنقلب خلتنا عداوة يوم الحساب .

وبرّح للوجد بعروة ابن حزام فقادته أشواقه إلى منزل صاحبته ، ونزل ضيفاً على زوجها بالشام ، فأكرمه وأحسن وفادته ثم خرَج وتركه مع عفراء يتحدثان فلما خلوا تشاكيا وطالت الشكوى وهو يبكي أحر بكاء ثم أتته بشراب وسألته أن يشربه فقال والله ما دخل جوفي حرام قط ، ولا ارتكبته منذ كنت ، ولو استحللت حراماً لكنت قد استحللته منك فأنتِ حظّي من الدنيـا ! ولعـل من البدائة أن نشير إلى حديث رسول الله : سبعة يظلهم الله وفيهم : ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها فقال إني أخاف الله .

وقد كنا على أن نفيض في أمثال عبد الرحمن القس ، وعروة بن حزام وقيس وعروة بن أذينة وتوبة بن الحمير وجميل بن معمر وكثير عزة وسواهم من ذوي الحب العفيف ، ولكن كتب الأدب تزدحم بذلك مفرقاً في الأغاني ومتصلا في كتاب ذمّ الهوى للإمام ابن الجوزي بحيث أصبح الحب العذري في الإسلام موضوعاً كبيراً له أبطاله ووقائعه وأشعاره ، ولن يجرؤ أحد على القول بتأثر العذريينَ في دولة بني أُمية بالحب الأفلاطوني ! ! إذ لم تكن إذ ذاك صلة ما بين العرب واليونان ! ! فالحب العذري مرتكز لا محالة على مباديء الإسلام .

والحق أن اتجاه طوق الحمامة الفريد ! إلى تحليل الحب والسموّ به على نحو طريف لم يعهد قبله في الأدب الأوربي قد دفع دوزي إلى رأيه ، ليجعل ابن جزم متأثراً بالمسيحية لا بالإسلام فيما يصدر عنه من قيم وآراء ، ولكن ذلك شيء والحق شيء آخر ، يقول الأستاذ زكي مبارك في النثر الفني(١) :

« لقد طبع كتاب طوق الحمامة في ليدن سنة ١٩١٤ بعناية المأسوف عليه الأستاذ بتروف وقد أحدث ذلك الكتاب رجة عنيفة في أوربا ، وتناولته المجلات الأدبية بالنقد والتحليل وكان موجب تلك الضجة أنه لم يثبت أن كتاباً ألف في فن الحب قبل ذلك الكتاب لا في اللغات القديمة ، ولا في اللغات الحديثة لأن أوربا في القرن العاشر الميلادي كانت معارفُها قليلة جداً في الشئون الوجدانية ، فكان من المستظرف حقاً أن يكشف الباحثون أنه كان في ذلك العصر كاتب عربي يتناول حديث الحب والعشق والهيام في تفصيل شائق جذاب هو آية الآيات في فهم أسرار الأهواء والشهوات والقلوب » .

لم تكن للمرأة الأوروبية في عصر ابن حزم إلى قرن بعده منزلة رفيعة تدعو إلى التسابق في استرضائها ، فالمجتمع الأوربي إذ ذاك لا يراها إحدى

---

(١) النثر الفني ج ٢ ص ١٦٦ لزكي مبارك .

عناصره المؤثرة ولا يجد في محاسنها الخالية ما يلهم أحاسيس كتّابه ويذكي مشاعر شعرائه فيقدمون لها تراتيل الولاء والحب في نغم ضارع لهيف ! ! نعم قد تحدث الأدب اليوناني قديماً عن الحب وأشاد به أفلاطون ، وبرزت قصص الإغريق مضمخة بعبير المرأة أحياناً . . . ولكن صدى الإغريق قد انقطع عن أوربا في العصور الوسطى حتى هبت نسمات العرب من الشرق تحمل أنباء الفروسية العربية ومن تقاليدها احترام المرأة وتمجيد الحب الطاهر ، والارتفاع بالغرائز إلى أوج الشرف والفضيلة والعفاف ، ثم انتقل التأثير الأندلسي من كتابة ابن حزم العاطفية فوجه العيون إلى طراز جديد من العواطف ، ودعا الكتاب إلى ممارسة فن جديد من الكتابة ، وكان أندريه لوشابلان ، » في منتصف القرن الثاني عشر للميلاد أول من كتب في ذلك ، فأصدر كتابه « فن الحب العف » وقد تعرض له الناقد الفاضل الدكتور محمد غنيمي هلال بالتحليل فقال عنه في كتابه الأدب المقارن (١) .

« وفيه يذكر إدراكاً للحب لم يكن لأدب الأوربي به عهد حتى ذلك القرن ، وفيه ترتفع المرأة إلى مكانه لم تحظ بها من قبل في أوربا ويخضع الفارس لها كما يخضع للسيد صاحب الإقطاع ، فالفارس يضحي في سبيل حبها ، ويبكي في يسر حين يهدده الخطر في حبه ويعد ضعفه أمامها نبلا وسمواً لا استكانة فيه ولا شرر يسببه » » إلى أن يقول الدكتور الفاضل ص ٢٠٨ :

« والقرائن التاريخية تحمل على الاعتقاد أن هذا الإدراك للحب على نحو فريد في الآداب الأوروبية إنما ظهر في تلك الفترة بتأثير حب الفروسية العربي بعد أن أشرب أهله روح الإسلام فعبروا في شعرهم العربي عن عاطفتهم العفة الخالصة ، ومن القواعد التي يذكرها شابلان في كتابه السابق أن المحب لا يهيم بسوى محبوبة واحدة ، وأن المحب يظهر عليه بهت الخشوع أمام حبيبته ويضطرب قلبه بمحضرها ولا يقصر في أي مطلب تريده

(١) الأدب المقارن : ص ٢٠٥ ط ٣ للدكتور هلال .

منه حبيبته ولو تحمل في ذلك المشاق وخيالها دائماً نصب عينيه إن غابت عنه ، وعليه أن يكتم حبه لأن إذاعة الحب سبب من أسباب القضاء عليه ، ثم عليه أن يكون كريماً غير بخيل إذ الكرم صفة جوهرية لعاطفة الحب الصادق ، وهذه كلها كما نعلم يفيضُ بها الشعر العربي وينص عليها كل من تعرضوا لدراسة هذه العاطفة من القدماء ومنهم محمد بن داوود وابنُ حـــزم » .

وإذا كان لطوق الحمامة وما نحا نحوه من كتب العرب ، هذا التأثير النفاذ فيما اتصل به من الآداب ، فإن الحديث عنه هنا محتوم مفروض .

* * * * * *

لم يكن ابن حزم بِدْعاً بين الفقهاء في مقاساة الحب ، ولا بين الكتاب في الحديث عنه ، والتأليف فيه ، فنحن نعلم عن كثير من الفقهاء والمحدثين ضروباً من الحب العذري الصادق ، وقد يكون هذا مستغرباً لدى من يظنون التفقه في الدين والتنسك في العبادة مما يمنع خفوق القلب بالهـــوى ، والتهاب الجوانح بالشوق ! وهذا خطأ واضح ، لأن العواطف الإنسانية لا تكبت بدراسة الفقه والتفسير والحديث ! ولكن هذه الدراسة فقط مما يساعد على إعلاء الغرائز وسمو العواطف ، فالفقيه العاشق أقرب إلى التصون غالباً من الأديب العاشق لأن له من فقهه الديني وإحساسه بمكانته في المجتمـــع ما يسمو به عن الريبة والظن ، هذا إلى ما يغرسه الإسلام لدى الصادقين من رجاله من طموح إلى الكمال وارتفاع عن النزوات ، فإذا وقع أحدهم في غمرة الحب فإن له من مبادئه ما يهديه إلى التصون والكرامة والعفاف وقد يجد العاشق المتحلل منفذاً غير كريم إلى ارتوائه فتهدأ عاطفته ، ويسلو وجده ، أما الفقيه المتنسك فلن يعترف ما يغضب الله فيظل عفيفاً طاهراً على وجده المضطرم وإحساسه المشبوب ! وقد تلج به الأشجان حتى تصل به إلى الوله السقيم ! وهذا ما كان لذوي الصبابة من الفقهاء .

لا عجب إذن أن يكثر الحب العذري في تاريخ الفقهاء ، وهم قوم ذو تصون وعفاف بل إن العجب ألا يكون مع ما يحملون من قلوب خفاقة وعواطف رقيقة ، ووجدان مشبوب ، أننا نجد جماعة من الفقهاء في الصدر الأول من الإسلام يشتهرون بالصبابة ويترنمون بالشعر حتى اشتهروا بالخفة والظرافة ، وضرب بهم المثل في ذلك فقيل : « أظرف من فقيه » هذا عروة ابن أذينة الفقيه المحدث وشيخ مالك بن أنس يقول :

إن التي زعمت فؤادك ملها ... خلقت هواك كما خلقت هوى لها

بيضاء باكرها النعيم فصاغها ... بلباقة فأدقها وأجلها

منعت تحيتها فقلت لصاحبي ... ما كان أكثرها لنا وأقلها

فدنا وقال لعلها معذورة ... في بعض رقبتها فقلت لعلها

ويقول في قصيد مؤثر :

إذا وجدتُ أوار الحب في كبدي ... عمدتُ نحو سقاء الماء أبْترد

هبني بردت ببرد الماء ظاهره ... فمن لنار على الأحشاء تتقد ؟

وهذا عبيدُ الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد الذين انتهى إليهم بالمدينة على عهد عمر بن عبد العزيز وكان أمير المؤمنين يقول فيه لمجلسُ ابن عبد الله أحب إلى من الدنيا وما فيها ! هذا عبيد الله يقول :

كتمت الهوى حتى أضر بك الكتْمُ ... ولامَك أقوام ولومهمُ ظلمُ

وزادك إغراء بها طول بخلها ... عليك وأبلى لحم أعظمك الهم

ألا مَنِ لنفس لا تموت فينقضي ... شقاها ولا تحيا حياة لها طعم

تجنبتَ هجران الحبيب تأثماً ... ألا إن هجران الحبيب هو الإثم

فذُقْ هجرها قد كنت تزعم أنه ... رشاد ألا يا ربما كذب الزعم

وهذا عبد الرحمن القس ! وأبياته أشهر من أن تذكر ، وهذا سِواهُ وسواه في فجر الإسلام وهم كثير !

على أن أشهر من كتب من الفقهاء قائماً بذاته في الحب هو محمد بن داوود الظاهري صاحب الزهرة وابن حزم صاحب الطوق وقد احتذاهما بعد ذلك مؤلفون ! والثابت المجزوم به أن ابن حزم قد قرأ كتاب الزهرة وتأثر به فقد أشار إليه في الطوق ! وكان الزهرة من الذيوع في الأندلس بحيث عارضه أبو عمر أحمد بن فرج الجمياني بكتاب سماهُ الحدائق – ضاع ولم يصل – ألفه للحكم المستنصر بالله وقال عنه ابن دحية في المطرب (١) :

« وعارض به كتاب الزهرة لأبي بكر بن محمد بن داود بن علي الأصبهاني إلا أن أبا بكر إنّما ذكر مائة باب في كل باب بيت ، وأبو عمر أورد مائتي باب في كل باب بيت ، ليس منها باب تكرر اسمه لأبي بكر ولم يورد فيه لغير أندلسي شيئاً » . هذا إلى كتابات إخوان الصفا في رسائلهم عن العشق وأبي بكر السراج صاحب مصارع العشاق والخرائطي صاحب اعتلال القلوب وكلهم قد سبق ابن حزم ؛ ولكن الرائد الأول هو محمد بن داود ، وتلاقى كتاب الزهرة مع كتاب الطوق في أكثر من وجه يلفتنا إلى الحديث عنه في مجالي المقارنة والتأثير !

كانت ظروف ابن داوود غير ظروف ابن حزم فالأول حييّ رقيق خجول تُزعجه الهمسة وتضايقه الإشارةواللفتة نشأ في أسرة فقيرة شريفة فأبوه إمام المذهب الظاهري ببغداد كان يأكل من كسب يده على ندرة وكفاف ، وقد عرف ذلك بعض مقدريه فأهداه بدرة ثمينة من الدنانير فرفضها في إباء ! وَولَدهُ منذ صغره ضعيف رقيق يذهب إلى الكتاب مع الصبية فإن تندر عليه زميل بكلمة أوجعته وأسالت دمعه وجاء إلى والده شاكياً ! ثم مضت به السنون فمات أبوه وتبوأ كرسيه في رئاسة المذهب الظاهري بعده ، وما زال على رقة قلبه ورهافة حسه ، وانفعال وجدانه وثورة عاطفته حتى ابتلاه القدر بهوى عاصف ! وقد تعرض إبن داوود

---

(١) المطرب لابن دحية ص ٤ .

لعواطف الهجر والغضب والوشـــاية والرقابة والعزل فتمرّس بأحاسيس عنيفة ألهمته كثيراً من المقطوعات الشعرية وأمدته بعواطف وجدانية شفافة سطرها في كتاب الزهرة فكان تجربة ذاتية لعاشق مسكين ! !

أما ابن حزم فيشترك مع ابن داود في أنه أحد أئمة المذهب الظاهري مثله وأقوى المدافعين عنه بلسان صارم ومنطق قوي وعارضةٍ ذات صيال ومجالدة ، ولكنه يختلف عن صاحبه في كثير ، لقد نشأ في بيئة مترفة منعمة فأبوه وزير خطير ، تمتلىء قصوره بمغريات الأنس ومفاتنه ، وضروب النعيم وأفانينه من مأكل ومشرب وملبس ومنظر وملمس ومشم ومنتزه! هذا إلى الجاه المؤثل والكلمة المسموعة والصيت المدوي ! ولم يذهب إلى الكتاب مع الصبية كما كان ابن داود بل تلقى الدراسة الأولى على المثقفات من جواري القصر ، علمنه الكتابة والحساب وحفظ على أيديهن القرآن والحديث ورأى أشباههن الناعمات المتنعمات يرفلن في قصر أبيه بين الزخارف والرفارف والحرير والديباج والفل والريحان ! في مجالس للأنس واللهو والطرب ترن بالشعر وتصدح بالأوتار والعيدان !

فخبر الحسان خبرة وافية في صباه وأحب وعشق وقاطع وواصل ! مع أنه لم يرفع ذيله على حرام كما أقسم على ذلك أغلظ الأيمان ثم سطر كتاب الطوق فأودعه ذكرياته وتجرباته ، وقدم لنا أثراً عاطفياً يقرأ على مدى الأجيال في تقدير وإعجاب . .

تحدث ابن داوود في الزهرة عن الحب فألمّ بأقوال الفلاسفة فيه ، وروى عن جالينوس وبطليموس ووصف سبيل الهوى إلى القلب ومسلكه إلى النفس ، وقدر أثر السماع ، وتنقل في خطوات الحب من استحسان إلى مودة إلى محبة إلى خلة إلى عشق إلى تتيم إلى تدلّه مستشهداً بالشعر له ولغيره من كبّار المدنفين ، وله تعليقات طريفة عند كل مقطوعة وملاحظات نفيسة بارعة لا تخـــلو من طرافة وإبداع الحبيب اذا استيقن ود حبيبه (استغنى عن التعرف وارتفعت حاجته) .

إلى التألف فحينئذ يقع الغضب من غير ذنب والإعراض من غير وجد لسكون القلب الواثق واستظهار المعشوق على العاشق » . ص ٤٥ من الزهرة .

والمحب يؤتي من مأمنه « فالتصنع الشديد يخرج عن العادة فيوقع التهمة بصاحبه » . ص ٣٢٢ .

أما حديثه عن الحجاب والرقيب والعذول والواشي وصنوف الهجر فنمط من الملاحظة والدقة ، وله خطرات شفافة تتجلى في مثل قوله :

« إن المعتذر لا ينفك من إحدى حالين إما أن يكون صادقاً أو كاذباً فإن كان صادقاً فعذره مقبول ، وإن كان كاذباً فإنه لم يتجشم مضاضة الكذب في نفسه إلا لنفاسة صاحبه في صدره ومن كان بهذه الحال قبل عذره بل وجب شكره ! » ص ٥٧ .

ويروي هذه الأبيـــات عن لحظات العيون في حضرة الرقيب :

إذا نحن خفنا الكاشحين فلم نطـــق ... كلاماً تكلمنا بأعيننـــا ســـرا
فنقضي ولم يعلـــم بنـــا كل حاجة ... ولم تظهر الشكوى ولم نهتك الستـرا
ولو قذفت أحشـــاؤنا ما تضمنت ... من الوجد والبلوى إذن قذفت جمرا

ثم يعلق عليها بهذا القول البديع : « صاحب هذا الشعر البائس مغتر بالزمان ، جاهل بصروف الأيام ، يتبرم بالرقيب مع مشاهدة الحبيب ، وهو لا يعلم أن هذه الحال تتقاصر عنها الآمال ، وتنقطع دونها الآجال ، ولكن من لم ينكبه الفراق ولا الهجـــر ولم يتعرض للخيانة والغدر حسب أن الرقيب هو منتهى كيد الدهر وظن أنه امتحن بما لا يقوم له الصبر » ص ٩٢ .

ويلاقي من بلاء الإخوان وكارثات النميمة والوشاية ما يوقعه في اليأس حتى يضطر إلى التمسك بالمنافقين ! وهذا أمر يستغربه من لم يقرأ كلام ابن داوود ، ولكنه يلمس وجهة نظره ســافرة واضحة حين يسمعه يقـــول :

« واعلم أدام الله تأييدك أن المرتضين من الإخوان معدومون في هذا الزمان وإنما بقي قوم ينتصفون ولا ينصفون ، إن بسطتهم لم يهابوك ، وإن أحشمتهم اغتابوك ، وما دامو لك راجين أو خائفين فهم لك منقطعون فإذا زايلوا هاتين الحالتين لم يرعوا لك إخاء ، ولم يعتقدوا لك وفاء ، فإذا ظفرت بمنافق فتمسك به فإنه على كل حال خير من غيره لأنه يظهر لك ما تسر به ، وإن كان يضمر خلافه بقلبه » . ص ٢ .

وقد يشتط كثيراً في محاسبة غيره كما نقد المجنون في قوله :

يلومك فيها اللائمون نصاحة ... فليت الهوى باللائمين مكانيا
لو أن الهوى عن حب ليلى أطاعني ... أطعت ولكن الهوى قد عصانيا

حيث يرى ابن داوود أن « هذا الكلام لا يكون إلا عن حال ضعيفة أو يعقب ضجرة شديدة لأن صاحبهلم يرض بالتبرم من هواه حتى ضم إلى ذلك تمنى انصراف الحال إلى سواه » .

ولست مع الناقد في رأيه ، لأن كل انسان يتمنى لنفسه السلامة ! وهو في أعماقه لو تبين نفسه تبيناً صادقاً لعرف ذلك منها ! أما أنه يتمنى انصراف الهوى للائمين فإحساس فطري صادق يغلب على كل إنسان يرى مجادلة يعنفه دون أن يستشعر إحساسه ولن يقنعه بيان ما مهما أكدته الحجج فلم يبق إلا أن يذوق ليحس ويستشعر ! !

ومهما يكن من شيء فقد كان كتاب الزهرة أول مصنف بقي بأيدينا في موضوعه ، والفرق بينه وبين طوق الحمامة فرق ما بين المبتدىء والمعقب ، فإذا كان قانون التطور والارتقاء يرى في الزهرة غرساً صغيراً في تربة جديدة ، إذ أن مؤلفه نقل عن نفسه وعن غيره وجمع من هنا وهناك ، وقد تعوزه الوحدة والاطراد وشمول الملاحظة فإن هذا القانون نفسه يرى في كتاب الطوق ثمرة يانعة آتت أكلها بتوالي الزمن على يد قاطف ماهر أحسن السقي ووالى العناية حتى تهدلت الأفنان ، وجاء كتابه صورة مكتملة لإحساس قوي نفاذ ! !

كان ابن حزم آية من الآيات بين أقرانه وأنداده ، فالرجل عالم ضايع متمرس بالجدل متقدم في المناظرة والحجاج، ينافح عن مذهب قل أنصاره وكثر مناوئوه ، ويتعرض لأئمة عظام متقدمين سار لهم في التاريخ ذكر وفي النفوس مهابة وإجلال ، فيكر على أمثال أبي حنيفة والشافعي ومالك والأشعري وأئمة الاعتزال بما يجبه آراءهم وينقض حججهم معتصماً ببرهانه النافذ ودليله المكين، ولعله لم يتجه إلى تأييد مذهب الظاهرية إلا حين رأى بعض معاصريه من الفقهاء ينزلون على آراء الملوك والرؤساء فيئولون النصوص، ويتعسفون الدليل ، وفي ذلك فساد للشريعة ، ووهن في الخلق فربأ بنفسه أن يسكت عن هؤلاء المغرضين ، وقد ملكوا الدنيا بالأندلس بمذهب مالك ، وقسموا الأموال بابن القاسم! وانبرى لمنازلة أئمة المذاهب المختلفة جميعاً سوى مذهبه الظاهري من أحياء وأموات ! ! ولسنا نزعم أن الحقّ مع ابن حزم في جميع ما حاور وأفتى ، فأئمة الإسلام معروفون بحسن الاستدلال ونزاهة الرأي ، وما أصدروا أحكامهم دون تعقل واستقراء ولكننا نوضح أنفة ابن حزم وحميته حين اعتنق مذهباً رأى فيه الصواب ، فأبطل القياس وتمسك بالنص .

هذا الإمام الذي كتب أربعمائة مجلد في الفقه والتفسير والملل والنحل والأخلاق والتاريخ ، ولم يفقه في كثرة التأليف من رجال الإسلام غير ابن جرير الطبري رحمه الله لم ير مانعاً أن يسجل تجاربه الذاتية في دنيا الصبابة ، غير عابيءٍ بافتراءات خصومه على كثرتهم الكاثرة ! هؤلاء الذين ألّبوا الرؤساء عليه فكان يرحل من بلد إلى بلد فراراً بنفسه حتى أُحرقت مؤلفاته بمسمع منه فما وهن أو استكان بل نظم أبياته السائرة :

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي   تضمنه القرطاس إذ كان في صدرى

هذا الداعية المنافح الألد قد أصدر « طوق الحمامة » ليطلع الناس على خفقات الأفئدة ، ورجفات الضلوع فكان نسقاً جميلا من القول ، كشف الستائر عن نبضات تدق بها القلوب ! وجذوات تشتعل بها الدماء .

ترى قوة الملاحظة لدى ابن حزم في تحليل الوقائع وتشريح الحوادث ، وتلمس يقين القول في الاعتراف المخلص والشهادة الصادقة وتدرك لطافة الحس وصفاء النفس في استشفاف البواعث المستترة وتفسير الحركات العارضة ، وتصوير الانفعالات المتتابعة مما يجعل طوق الحمامة مزيجاً من المذكرات الشخصية والتحليلات النفسية ، وتصوير المجتمع الأندلسي في أرقى مستوياته وأرفع طبقاته فهو كتاب أدب وعلم نفس واجتماع وتاريخ وهو بهذه النفاسة الطريفة أهلٌ لما أحدث في الشرق والغرب من تأثير وإيحاء ، يتحدث عن علامات الحب فيذكر منها إدمان النظر ، والإقبال بالحديث والإسراع بالسير نحو مكان الحبيب والتعمد للقعود بقربه ، والبهت والروعة عند رؤيته مفاجأة، والتكارم والتشجع أمامه وكل هذه من الأمور المدركة التي يعرفها ابن حزم وسواه ولكن ما يبهرنا من ابن حزم أن يمهد بها مع اتساع في الوصف إلى العلامات المضادة فيكشف خبايا النفوس ويزيح الأغطية عما لا يراه سوى الألبة الحصفاء ، فينص على أن المحبّيْن إذا تكافآ في المحبة وتأكدت بينهما تأكداً شديداً يتخاصمان ويتناقشان ويتتبع كل منهما ألفاظ صاحبه ، ويؤولها على غير معْناها ليبدو لها من ذلك ما يكشف عن دخيلة حبيبه ثم يقول ابن حزم : « والفرق بين هذا وبين حقيقة الهجر والمضادة المتولدة عن الشحناء هو سرعة الرضا فإنك بينما ترى المحبين قد بلغا الغاية من الاختلاف الذي لا تقدره يصلح عند الساكن النفس ، السالم من الأحقاد في الزمن الطويل فلا تلبث أن تراهما قد عادا إلى أجمل الصحبة وأُهدرت المعاتبة وسقط الخلاف وانصرفا في ذلك الحين بعينه إلى المضاحكة والمداعبة ، هكذا في الوقت الواحد مراراً ، وإذا رأيت هذا من اثنين فلا يخالجك شك ، ولا يدخلنك ريب البتة ، ولا تتمار في أن بينهما سراً من الحب دفيناً ، واقطع عليه قطع من لا يصرفه صارف وقد رأيته كثيرا » (١) .

---

(١) طوق الحمامة لابن حزم ط المستشرق بتروف سنة ١٩١٤ ص ١٤ .

وقد كانت نشأة ابن حزم الأولى بين جاريات القصر وحسّانه ، ومشاهدته ضروب العلاقات بين الفتيان والفتيات ومزاولة هذه التجارب بنفسه أعواماً طويلة مما أعانه على أن يضع أحكاماً عاطفية لا تخطيء فهو يسن من الأقوال ما يظل قانوناً عاماً يطبّق بين الناس ما بقيت قلوب وعيون ! وتراه يتحدث عن الإشارة بالعين فيرى أن اللحظ المتبادل يقطع به ويتواصل ، ويوعد ويهدد ، وينتهر ويبسط ، ويؤمر وينهي وتضرب به الوعود ، وينبه على القريب ، ويضحك ويحزن ولكل واحد من هذه المعاني ضرب في هيئة اللحظ لا يوقف على تحديده إلا بالرؤية ، ولا يمكن تصويره ولا وصفه إلا ما تيسر « فالإشارة بمؤخر العين الواحدة نهي عن الأمر وتفْتيرها إعلام بالقبول ، وإدامة نظرها دليل على التوجع والأسف ، وكسرُ أنظارها آية الفرج ، والإشارة إلى أطباقها دليل على التهديد ، وقلب الحدقة إلى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مشار إليه ، والإشارة الخفية بمؤخر العين سؤال وقلب الحدقة من وسط العين إلى المآق بسرعة شاهد المنع ، وترعيد الحدقتين من وسط العينين نهي عام (١) » . أرأيت دقة في الملاحظة وعمقاً في التفسير ، وبراعة في التأويل أنفذ من هذا السياق الصريح وهل يتسنى ذلك لغير داهية خـــبير ؟ .

أما تصويرهُ النفسي لخبايا النساء فمن أجمل ما كتب في موضوعه الدقيق، فابن حزم يفهم نفسية المرأة كما يفهم نفسية الرجل ، ويرى موقع القوة والضعف لدى الجنسين فلا يجور في حكمه متعصباً للرجال بل يصف المشاهد الملموس كما كان ! يتحدث عن المساعد المعين من الإخوان على الشوق والشجن ! فيرى التنفيس عن الصدر بالبث ، والشكوى للرفيق الأمين مدعاة للراحة والاطمئنان ، وبعض العشاق يفقد الصديق الأمين على السر الحافظ للغيب ، فيضيق بأشجانه وينفرد بنفسه في المكان النازح عن الأنيس يناجي الهوى ويكلم الأرض ويجد في ذلك راحة المريض في التأوه ،

---

(١) الطوق ص ٢٩ .

والمحزون في الزفير ، يقول ابن حزم : « وما رأيت الإسعاد أكثر منه في النساء فعندهن من المحافظة على هذا الشأن والتواصي بكتمانه والتواطؤ على طيه إذا أطلعن عليه ما ليس عند الرجال ، وما رأيت امرأة كشفتْ سر متحابين إلا وهي عند النساء ممقوتة مستثقلة مرمية عن قوس واحدة وإنه ليوجد عند العجائز في هذا الشأن ما لا يوجد عند الفتيات لأن الفتيات منهن ربما كشفن ما علمن على سبيل التغاير وهذا لا يكون إلا في الندرة ، وأما العجائز فقـــد يئسن من أنفسهن فانصرف الإشفاق محضاً إلى غيرهن . . . وإنك لترى المرأة الصالحة المسنة المنقطعة الرجاء من الرجال وأحب أعمالها إليها وأرجاها للقبول عندها سعيها في تزويج يتيمة وإعارة ثيابها وحليّها لعروس تعلمه(١) .

وقد يحدث أن يجمعك برفقائك مجلس عام وتريد أن تتحدث إلى زميل من الرفقة بحديث خاص تلمح إليه دون أن يفهم أحد سواه فيرد عليك بما يناسب قولك في تحفظ واحتياط ! ! هذه حالة ملحوظة بين الناس ولكنها تحتاج إلى لباقة حصيفة بين المتحابين بنوع خاص لأن الحب كان ولا يزال مدعاة الريب ومثار الظنون ! ونفوس الجلاس لا تشغل بمسائل الكسب والطعام والشراب شغلها بمسائل الحب والوصال فهي إلى إشارات المحبين أجذب وعلى تفسيرها أحرص ، وهذا يتطلب من العاشقين لباقة سريعة في إيصال ما يريدان فإذا بلغا مقصوديهما في إخفاء استشعرا سروراً وبهجة لا يوصفان ! وقدْ رصد ابنُ حزم هذه الظاهرة اللطيفة بمرصده اللاقط وشرحها ببيانه الرائق إذ قال :

« ومن التعريض بالقول جنس ثان ولا يكون إلا بعد اتفاق ومعرفة المحبة من المحبوب فحينئذ يقع التشكي ، وعقد المواعيد والتعديد ، وإحكام المودات بالتعريض وبكلام يظهر لسامعه معنى غير ما يذهبان إليه فيجيب السامع عنه بجواب غير ما يتأدى إلى المقصود بالكلام على حسب ما يتأدى

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٦ .

إلى سمعه ، ويسبق إلى وهمه ، وقد فهم كل واحد منهما عن صاحبه وأجابه بما لا يفهمه غيرهما إلا من أيد بحس نافذ ، وأعين بذكاء — وأمد بتجربة (١) .

وشبيه بذلك قوله ص ٥٩ : « وقد شاهدت من هذا المعنى كثيراً وإنه لمن المناظر الباعثة على الرقة الرائعة المعنى لا سيما إن كان هوى يكتتم به فلو رأيت المحبوب حين يعرض بالسؤال عن سبب تغضبه بمحبة ، وخجلته ، بالخروج مما وقع فيه بالاعتذار وتوجيهه إلى غير وجهة وتحيله في استنباط معنى يقيمه عند جلسائه لرأيت عجباً ولذة مخفية لا تقاومها لذة وما رأيت أجلب للقلوب ولا أغوص على حياتها ولا أنفذ للمقاتل من هذا الفعل » .

ومعدن البراعة في بيان الكاتب النفسي أنه يحدثك أحياناً عن مشاعر واضحة ملموسة لدى أكثر الناس ولكنه ينقلها في طرافة خالبة يخيل إليك معها أنك تحسها لأول مرة وأنك لا تعرف عنها ما يريد أن يقول ! وابن حزم من أبرع هؤلاء الواصفين فهو كثيراً ما يحدثك عما تعهد وتعرف ، وإن لحديثه لحلاوة تأخذ عليك مجامع إحساسك وتلك رسالة الفن الأدبي حين تكون الألفاظ به إعادة تجارب ، ورجع صور للعين وغناء للسمع ونشوة للروح وطرباً للفؤاد ! استمع من هذا إلى قوله الرائع :

« هلْ شاهد مشـــاهد ، أو رأتْ عين ، أو قام في فكر ، ألذ وأشهى من مقام قام عنه كل رقيبٍ ، وبعد عنه كل بغيض ، واجتمع فيه محبان قَدْ تصارما لذنب وقع ، فابتدأ المحب في الاعتذار والخشوع والتذلل ، والإدلاء بحجته الواضحة بين الإدلال والإذلال ، والندم بما سلف ، فطوراً يدل ببراءته وطوراً يريد العفو ويستدعي المغفرة ويقر بالذنب ولا ذنب له ، والمحبوبُ في كل ذلك ناظر إلى الأرض ، يسارقهُ اللحظ الخفيّ ، وربما أدامه فيه ، ثم يبسم مخفياً لتبسمه ، وذلك علامة الرضى ثم ينجلي مجلسهما عن

(١) الطوق ص ٢٨ .

قبول العذر ، وذهاب السخط وقبول العتاب ! ! هذا مكان تتقاصر دونه الصفات وتتلكن بتحديده الألسنة ، ولقد وطئت بساط الخلفاء وشاهدتُ محاضر الملوك فما رأيتُ هيبة تعدل هيبة محبّ لمحبوبه ، ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء ، وتحكم الوزراء ، وانبساط إلى مُدبّري الدول ، فما رأيت أشد تبجحاً وأعظم سروراً بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده . ووثق بميله إليه وصحة مودته له ، وحضرت مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين ، فما رأيت أذلمن موقف محب هيمان بين يدى عاشق غضبانقد غمرهالسخط وغلب عليه الجفاء ، ولقد امتحنت الأمرين وكنت في الحالة الأولى أشد من الحديد وأنفذ من السيف لا أجيب إلى الدنية ولا أساعد على الخضوع وفي الحالة الثانية أذل من الرداء وألين من القطن ، أبادر إلى أقصى غايات التذلل لوْ نفع ، وأغتنم فرصة الخضوع لو نجح ، وأغوص على دقائق المعاني ببياني وأفتن في القول فنوناً وأتصدى لكل ما يوجب الترضي (١) » .

هذا قولُ مجرّب امتحن الأمريْن وذاق الحالين ! لذلك كانت اعترافاته القلبية في طوق الحمامة صوراً واقعية لها دلالتها الخاصة عند ذوي التحليل والتعليل من أطباء النفوس وخبراء القلوب ! وإذا كان لكل عاشق مزاجه الشخصي ، وميله الذاتي فإن ابن حزم حين يقدّم هذه الاعترافات لا ينسى ذلك فهو يذكر عن نفسه ما يتفق فيه مع غيره ، وما يخالف فيه دون أن يجبرنا على التزام طريقته وحسبه أن يصدر عن حسه الصادق فقط ، وإن كان في بعض الأحيان يعجب لمن يخالف طريقته وينأى عن منحاه . فهو مثلاً لا يحب من نظرة واحدة بل لا بدّ من عِشْرةٍ واختبار ، وسواه يقع في شرك الهوى عن وجه سريع وذلك ما لا يرضيه بل يعده ضرباً من الشهوة ! ويفصل ذلك فيقول :

« وإني لا أطيل العجب من كل مَنْ يدعى أنه يحب من نظرة واحدة ، ولا أكاد أصدقه ولا أجعل حبه إلا ضرباً من الشهوة ، وأما أن يكون في

(١) الطوق ص ٦٦ .

ظني متمكناً من صميم الفؤاد نافذاً في حجاب القلب ، فما أقدّر ذلك وما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل ، وبعد ملازمة الشخص لى دهراً وأخــذى معه في كل جــد وهزل ، وكذلك أنا في الســلو والشــوق فما نسيت وداًّ لي قط وإن حنيني إلى كل عهد تقدم ليغصني بالمــاء ويشرقني بالطعام ، وقد اســتراح من لم تكن هــذه صفته ، وما مللت شــيئاً قط بعد معرفتي به ولا أسرعت إلى الأنس بشيء قط أول لقائي له ، ولا رغبت الاستبدال إلى سبب من أسبابي منذ كنت ، لا أقول في الآلاف والإخــوان وحدهم ولكن في كل ما يستعمل الإنســان من ملبوس ومركوب ومطعوم وغير ذلك وما انتفعت بعيش ولا فارقني الإطراق منذ ذقت طعم فــراق الأحبــة ، وإنه لشــجيً يعتــادني ووقوع هم ما ينفك يطرقني ، ولقد نغص تذكري ما مضى كل عيش استأنفه ، وإني لقتيل الهموم في عداد الأحياء ، ودفين الأسى بين أهل الدنيا والله المحمود على كل حال وفي ذلك أقول شعراً :

محبة صدق لم تكن بنت ساعــــة ... ولا وريت حين ارتياد زنادهــا
ولكن على مهل سرت وتولدت ... بطول امتزاج فاستقر عمــــادها
فلم يَدْنُ منها غرسُها وانتقاضها ... ولم ينــأ عنها مكثها وازديادهــا
يؤكدنا أنا نرى كل نشــــأة ... تتم سريعاً عن قريب نهادهــــا
ولكنني أرض عزاز صليبــــة ... منيع إلى كل الغروس انقيادهــا
فما نفذت منهــا إليها عروقهــا ... فليست تبالي أن يجــود عِهادهــا

ولعمري لقد حكم ابن حزم عن تجربته حين لم يعلق به هوى دون عشرة ملازمة وطول اتصال ، لأن ظروف نشأته في قصور أبيه وفيها الكثيرات من الجواري الإسبانيات وسواهن ممن يتبادلن الزيارة من علية الأسر ، قد مهدت له سبيل الاختيار والاختبار ، فالحسان من حوله في كل مكان ، وبقــاؤهن معه هين دون حجاب، ولا كذلك المحروم الذي تحتم عليه نشأته ألا يعرف شيئاً عن حواء حتى إذا سنحت له فرصة خاطفة عشق من أول

نظرة ، هذا كثير في الحياة ، وليس لابن حزم أن يعجب منه ، فلو صادف من الجدب والخواء والحرمان ما صادف هذا المتسرع العجول لحاكاه ! وقد تقدمت أبيات ابن حزم في اتئاد المحبة وتولدها بطول امتزاج حتى استقر عمادها ، وهي أبيات جيدة رائعة ! وقلما تستجاد أبيات ابن حزم في طوق الحمامة لأنه ينظم في كل موضوع عن كل موقف له أو لغيره ، وفي نظمه سرعةعاجلة لا تسلس له قياد العذوبة والرقة فترى أبياته — غالباً — ذات ثقل وجفاف ! وهي وحدها أضعف ما في طوق الحمامة من سطور ! وماذا عليه لو أعرض عن تسطيرها واكتفى بالتحليل والاعترافات ! أيظن هذا العالم الأصولي الفقيه النظار الكاتب المفسر أنه شاعر كبير ! !

ويوقعنا الإمام في حيرة حين يتحدث عن بعض معشوقاته فيروي قصتها وتأتي الخاتمة بالفراق — رحيلاً أو موتاً — فيعلن أنه لم يسلها للآن ، وأنه دفين الأسى بين أهل الدنيا ، وقتيل الهموم في الأحياء ، وما طاب له عيش بعدها ولا أنس بسواها ، ثم يروي بعد ذلك عن غيرها وما كابد في حبها ! أيكون قد جمع في قلبه بين حب الراحلة وحب الطارئة ، فكان صادقاً بينه وبين نفسه حين حنّ إلى الأولى واستطاب الثانية ! هذه حالة نفسية لا تعد غريبة ومن الجائز أن تقع ! والذين يجزمون بخلوص القلب لواحد فقط ! إنما يعبرون عن أنفسهم وليس لهم أن يتكلموا عن جميع الناس فإن العواطف البشرية من الامتزاج والاختلاف والغموض أبعد من أن يندرج عليها حكم عام ، ولنا أن ننْصف ابن حزم فنذكر أنه قال ذلك عن حبيبته نعم ولعلها كانت آخر من أحب ، فلهجته في الحديث عنها توحي بذلك إذ يقول :

« لقد كنت أشد الناس كلفاً وأعظمهم حباً بجارية لي كانت فيما خلا اسمها نعمُ ، وكانت أمنية المتمني وغاية الحسن خلقاً وخلقاً وموافقة لي ، وكنت أبا عذرها ، وكنا قد تكافأنا المودة ففجعتني بها الأقدار ، واخترمتها الليالي ومرّ النهار ، وصارت ثالثة التراب والأحجار ، وسني حين وفاتها دون العشرين سنة ، ، وكانت هي دوني في السن فلقد أقمت بعدها سبعة

أشهر لا أتجرد عن ثيابي ، ولا تفتر لي دمعة على جمود عيني وقلة إسعادها ، وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن ، ولو قيل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف ، وببعض أعضاء جسمي العزيزة على مسارعاً وطائعاً وما طاب لي عيش بعدها ولا نسيت ذكرها ، ولا أنست بسواها ولقد عفى حبي لها على كل ما قبله وحرم ما كان بعده ومما قلت فيها :

مهذبة بيضاء كالشمس إن بدت   وسائر ربات الحجـــال نجوم
أطار هواها القلب عن مســـتقره   فبعد وقوع ظل وهو يحـوم(١)

وقد ذاق هذا العاشق الدائب مرارة الإعراض كثيراً ولاقى ألم الحرمان والنفور حتى أعيته الحيل ، وبذل جهد الطاقة في التقرب فما بلغ حاجة أو بل غليلا وهو يروي قصته في ذلك مسهباً مكثراً . فجاءت اعترافاته عنها حيّة نابضة تصور تيارات من اللوعة والإشفاق والأسف والاشتياق ، وسأنقلها هنا للقاريء لأختتم بها حديث هذا المحب الطريف ! ! قال ابن حزم :

« وأخبرُك عني أني ألفت في أيامِ صباي ألفة المحبة جارية نشأت في دارنا وكانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عاماً ، وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرها ودماثتها عديمة الهزل منيعة البذل ، نقية من العيوب دائمة القطوب ، حلوة الإعراض مطبوعة الانقباض مليحة الصدود ، رزينة القعود ، كثيرة الوقار مستلذة النفار ، لا توجه الأراجي نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، ولا مغرس للأمل لديها فوجهها جالب كل القلوب ، وحالها طاردٌ من أمّها ، تزدان في المنع والبخل ما لا يزدان غيرها بالسماحة والبذل موقوفه على الجد في أمرها غير راغبة في اللهو ، على أنهـا كانت تحسن العـود إحسانا جيـداً فجنحت إليها وأحببتها حباً مفرطاً فسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبني بكلمة وأسمع من فيها لفظة غير ما يقع في الحديث الظاهر إلى كل سامع بأبلغ السعي

(١) طوق الحمامة ص ٨٥ .

فما وصلت من ذلك إلى شيء البتة ، فلعهدي بمصطنع كان في دارنا لبعض ما يصطنع له دور الرؤساء تجمعت فيه دخلتنا ودحلة أخي رحمه الله من نسائنا ونساء فتياتنا ومن لاذ بنا من خدمنا ممن يخف موضعه ويلطف محله ، فلبثن صدراً من النهار ثم تنقلن إلى قصبة كانت في دارنا مشرفة على بستان الدار ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها متفتحة الأبواب فصرن ينظرن من خلال الشراجيب وأنا بينهن فإني لا ذكر أني كنت اقصد نحو الباب الذى هى فيه أنثاً بقربها متعرضا للدنو منها فما هو إلا أن تراني في جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره في لطف الحركة فأتعمد أنا القصد إلى الباب الذي سارت إليه فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره وكانت قد علمت كلفي بها ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه لأنهن كن عدداً كثيراً، وإذ كلهن ينتقلن من باب إلى باب لسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطلع من غيرها عليها ، واعلم أن قيافة النساء فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافة مدلج في الآثار ، ثم نزلت إلى البستان فرغب عجائزناوكرائمنا إلى سيدتها في سماع غنائها فأمرتها فأخذت العود وسوته بخفر وخجل لا عهد لي بمثله وإن الشيء يتضاعف حسنه في عين مستحسنة ثم اندفعت تغني بأبيات العباس بن الأحنف حيث يقول :

إني طربت إلى شمس إذا غربت ... كانت مغاربهـــا جوف المقاصير
ليست من الأنس إلا في مناســبة ... ولا من الجن إلا في التصـــــاوير

فلعمري فكان المضراب إما يقع على قلبي ، وما نسيت ذلك اليوم ولا أنساه إلى يوم مفارقتي الدنيا ، وهذا أكثر ما وصلت إليه من التمكن في رؤيتها وسماع كلامها وفي ذلك أقول :

منعت جمـــال وجهك مقلتيـــــا ... ولفظك قد ضننت به عليـــــــا
أراك نذرت للرحمـــن صومـــــا ... فلست تكلمين اليـــوم حيـــــا
وقد غنيت للعبـــــاس شـــــعرا ... هنيئاً ذا العبـــاس هنيـــــــا
فلو يلقاك عباس لأضـــــــــحى ... لفوز غالبـــاً وبكم شـــــجيا(١)

---

(١) الطوق ص ١٠٥ .

ويمضي ابن حزم في القصة إلى نهايتها .

وبعد ! ألا يكون طوق الحمامة بتحليله النفسي وأسلوبه الأدبي ، ومدلوله الاجتماعي وهواه العذري جديراً أن يحدث دويه فتهب منه على آداب الشرق والغرب نسمات الطهارة والعفة ممزوجة بعبير الجلال والجمال ولهذا وجد موضعه في حديث التأثر والتأثير .

تأثير التوابع والزوابع في رسالة الغفران

وجدت في دوائر الاستشراق بحوث كثيرة حول صلة رسالة الغفران بالكوميديا الإلهيـــة لدانتي وأسرف الكاتبون في هذه الناحية إسرافاً لا يزال يتجدّد ومع هذا السرف المسرف في تأكيد العلاقة بين الأثرين الأدبيين الكبيرين أو تفيها فإننا لم نر فيما قرأناه لهؤلاء بحثاً يحلل صلة الغفران بالتوابع والزوابع تحليلا جدياً مدعماً ، وعلى افتراض أن تكون الصلة مقطوعة مجذومة أفلا يكون هذا القطع المجذوم موضع بحث يقضي على الشبهات ! مهما كان الاثران النفيسان في أدب واحد ، وفي حقبة واحدة تدعو الباحث إلى نظر بصير !

ولكن كتاب العرب لم يغفلوا ذلك ، فمنذ عُرفت رسالة التوابع والزوابع سنة ١٩١٥ في مصر حين اهتم بها الأستاذ محمد المهدي لأول مرة في عصرنا الحديث ، فتحدث عنها لطلابه بالجامعة المصرية القديمة — وهم فيما بعد — ذوو نباهة وتمحيص ، منذ ذلك ، والآراء تختلف حول صلة التوابع والزوابع برسالة أبي العلاء فتارة تؤكد هذه الصلة ، وتارة تجزم بامتناعها ، ونحن أبناء العرب قد ورثنا ابن شهيد وأبا العلاء معاً ، فلن نتحيّز لأديب منهما على الآخر ، ولكننا حين نبحث هذا الموضوع نكشف عن وجه الحق كما يتراءى لناظره ، ونقدم من الأدلة ما نراه يميل برأي على رأي ، ويهمنا أن تنفرج دائرة هذه الآراء عن صواب سديد .

وإذا كانت رسالة أبي العلاء من الشهرة والذيوع بحيث لا تحتاج هنا إلى تلخيص أو تحليل ، فإن رسالة ابن شهيد تحرز كثيراً من طرافتها الخالبة ، فقد تحدث صاحبها عن رَئي أديب من الجن كان يصاحبه في رحلته إلى ديار عبقر ، يسير به كالطائر يجتاب الجو فالجو ، ويقطع الدوّ

فالدوّ، حتى يشارف أرضاً لا كأرضنا وجوًّا لا كجوننا متفرع الشجر ، عطر الزهر فيصل به إلى دارات ، مُلهمي الشعر ويناقش معه صاحب امرؤ القيس يستمع منه ويسمعه ثم يغادره إلى أصحاب طرفة وقيس بن الحطيم ، وأبي تمام والبحتري وأبي نواس وكلهم يسمعهُ ويجيزه ثم ينتهي به إلى شياطين الكتاب، ويسميهم ابن شهيد خطباء فيلقاهم في محفل واحد ، ويسامر أصحاب الجاحظ وعبد الحميد وبديع الزمان على نحو يضمن الفلج والانتصار لابن شهيد ، وأنا لم أعرف أن للكتاب شياطين كما للشعراء إلا حين قرأت رسالة التوابع والزوابع فلعل ابن شهيد يشير إلى أن الإلهام ذو أصل واحد عند أولئك وهؤلاء ومضت الرسالة تفتنّ في عرض هذه الرحلة الأدبية عرضاً يستريح له القارئ وإن ثار علي بعض ما يتردد بها من الأحكام القاطعة كما يعتنقها ابن شهيد ويحاول أن يقنع بها الناس !

وأعجب ما يروقني في التوابع والزوابع قدرةُ صاحبها على الوصف المناسب ، وتدسّسه إلى مواطن الغمز في حيوات الأدباء وأشعارهم فصاحب أبي تمام يأوى إلى شجرة غيناء، يتفجر من أصلها عين كمقلة حوراء ، فإذا ناداه اشتق الهواء صاعداً من الماء (وكان أبو تمام سقاء يبيع الماء أول أمره ، فيسأله وما الذي أسكنك قعر هذه العين فيقول حيائي من التحسّن باسم الشعر وأنا لا أحسنه ، وصاحب أبي الطيب المتنبي صلف فخور يسمع غيره ، ولا ينشد لنفسه وهو فارس على فرس بيضاء ، وبيده قناة قد أسندها إلى عنقه ، وعلى رأسه عمامة حمراء ، قد أرخى لها عذبة صفراء وقد حيّاه فأحسن الرد ، ناظراً من مقلة شوساء ، قد ملئت تيهاً وعجباً . وصاحب بديع الزمان الهمذاني ، يسمع أبا عمر بن شهيد حاسداً مغيظاً ثم يضرب الأرض برجله فتنفرج له عن مثل برهوت يتدهدى إليها فتجتمع إليه ويغيب بها ، أما صاحبا الجاحظ وعبد الحميد فيقولان له : إنا لنخبط منك في بيداء حيرة وتفتق أسماعنا منك بعبرة ، ولا ندري أنقول شاعر أم خطيب فيقول ابن شهيد الإنصاف أولى والصدع بالحق أحجى ولا بد من قضاء

فيردان عليه انصرف فأنت شاعر وخطيب معاً . . . ويمضي والأبصار إليه ناظرة ، والأعناق نحوه ماثلة .

أما صاحب أبي نواس فما أحسن ما تحدث عنه أبو عامر . رآه في دير حِنة ، وهو دير عظيم تعبق روائحه وتصوك نوافحه ، وأقبلت نحوه الرهابين مشددة بالزنانير ، قد قبضت على العكاكيز ، بيض الحواجب واللحى ، إذا نظروا للمرء استحيا مكثرين للتسبيح ، عليهم هدى المسيح ، فقالوا أهلا بك من زائر ؟ ما بغيتك ؟ فقال صاحب أبي نواس . فقالوا إنه في شرب الخمرة منذ أيام عشرة وما ستنتفع به ، فقال أبو عامر : ونزلنا وجاءوا بنا إلى بيت قد اصطفت دنانة وعكفت غزلانه وفي فرجته شيخ طويل الوجه والسبلة ، قد افترش أضغاث زهر ، واتكأ على زق خمر ، وحواليه صبية كأظب تعطو إلى عرارة ، فحييناه ، فجاوب بجواب من لا يعقل لغلبة الخمر عليه ، فأنشدناه بعض خمرياته (وذكرها ابن شهيد) فصاخ من حبائل نشوته ، واستدعى ماء قراحاً فشرب منه وغسل وجهه فأفاق واعتذر إليّ من حاله فأدركتني مهابته وأخذت في إجلاله ، وأخذت أنشده قصائدي فقام يرقص ويردد ، ويقول : هذا والله شيء لم نلهمه نحن ، ثم استدناني فدنوت منه فقبّل بين عيني وقال اذهب فإنك مجـــاز .

على هذا النمط البديع سارت رسالة التوابع والزوابع ، فأعجبت القراء وتصارع حولهـــا الباحثون من الأدباء . ونحن هنا نوجز ما عثرنا عليه مما قيل معقبين بما يتضح لنا بعد الإمعان .

* * * * * *

١ أشار الأستاذ الدكتور أحمد ضيف في كتابه «بلاغة العرب في الأندلس»(١) إلى أن ابن شهيد قد تأثر بأبي العلاء. وهو أول باحث عربي أصدر حكمه في هذه المسألة، وكان دليله الأول أن شهرة أبي العلاء قد طبقت المشرق والمغرب فلا بد أن يكون أبو عامر قد قرأ رسالته واحتذاه.

يقول الدكتور ضيف ص ٤٨ : «وقد كتب رسالة هي أشبه برسالة الغفران من حيث أسلوبها الأدبي وسماها التوابع والزوابع وكان يقلد أبا العلاء في ذلك لأنه أدرك عصره ولأن شهرة أبي العلاء كانت ذائعة في المشرق والمغرب، وكان أهل الأندلس يقلدون المشرق في كل شيء».

وأستاذنا الدكتور ضيف كان يكتب دراسة موجزة منهجية في أدب الأندلس لأول مرة في العصر الحديث، فلم يكن من همه أن يقف وقفات طويلة عند كل رأي. ولو فعل لامتد به التأليف إلى أجزاء طوال، وهذا لم يكن. لأنه كان يلقي الأضواء الأولى على تراث ثمانمائة عام، ويجتهد قدر الطاقة أن يحشد من المؤلفات والمؤلفين ما يسمح به مجال مذكرة جامعية تلقى على الطلاب. ولسنا شهد الله نُضَائِل من كتابه الرائد فحسبه أن كان الخطوة الأولى في طريق المكتبة الأندلسية المعاصرة ولكننا نقول إن أثر العجلة السريعة قد ظهر في حكمه على ابن شهيد بتقليد أبي العلاء إذ أن أقوى حجة لديه أن عصر ابن شهيد يتدرج في عصر أبي العلاء فقد عاش من سنة ٣٨٢ إلى سنة ٤٢٦ وعاش المعري من سنة ٣٦٣ إلى سنة ٤٤٩، وكانت شهرته أذيع وأشهر، ولو سلمنا أن شهرة أبي العلاء كانت مستفيضة في الأندلس ما منعه ذلك أن يقرأ أدب الأندلس ويرجع إليه، وإذا كان المعري المتمكن المتمرس يجلس مجلس الأستاذ من ابن شهيد الشاب اللاهي في تقدير مؤرخي الأدب، فكم من أستاذ تأثر ببعض أفكار تلاميذه. فليست استفاضة الشهرة وحدها دليلاً يعتمد عليه في ذلك حتى يتقدم به الدكتور ضيف في تأييد حكمه دون أن يشفع به بعض المبررات المحتملة. وما كان أكثرها لو اتسع أمامه المجال على اطمئنان وئيد.

---

(١) بلاغة العرب في الأندلس للدكتور أحمد ضيف ط أولى ص ٤٨.

ولكن الدكتور زكي مبارك في الجزء الأول من النثر الفني ، قد وقف تجاه المسـألة وقفة طويلة ، فتأمل كلام الدكتور ضيف ثم اتضح له ما يخالفه ، واستند إلى مؤكدات ملموسة من المنطق والتاريخ فصلها حين قال (١) :

« وقد رأينا أن نحقق هذه المسألة فبحثنا طويلا عن التاريخ الذي وضعت فيه رسالة التوابع والزوابع فلم نهتد ، ولكننا رأينا في الرسالة نفسها ما يدل على أنه وضعها وهو كهل فقد جاء على لسانه ما يُشير إلى أنّ من إخوانه من بلغ الإمارة وانتهى إلى الوزارة .... ولكن لا ينبغي أن تخدعنا هذه التعابير ، فهناك نصّ يدل على أنه وضعها وهو شاب ، فقد حدثنا في التوابع والزوابع أنّ الجن قالوا له : بلغنا أنك لا تجاري في أبناء جنسك ولا يمل من الطعن عليك والاعتراض لك فمن أشدهم عليك . . وقد أجاب : جاران دارهما صقب ، وثالث نابته نوب فامتطى ظهر النوى وانتضى عليّ لسانه عند المستعين . وهذا يشعر بأنه كتب هذه الرسالة في عهد المستعين وقد بويع بقرطبة سنة ٤٠٠ ثم جددت بيعته سنة ٤٠٣ ومات مقتولا سنة ٤٠٧ ، ومن هنا نرجح أن رسالة التوابع والزوابع كتبت بين سنة ٤٠٣ ، وسنة ٤٠٧ .

هذا جانب من المسألة أما الجانب الآخر فهو التاريخ الذي وضعت فيه رسالة الغفران وإذا كانت الرسالة جواباً على رسالة ابن القارح فقد عدنا إلى رسالة ابن القارح فانتهينا إلى قوله : « وكيف أشكو من قاتني وعالني سبعين سنة » ، فعرفنا أنه وضعها بعد أن جاوز السبعين ثم نظرنا فوجدناه ولد سنة ٣٥١ فإذا أضفنا إلى هذا الرقم ٧٠ وجدناه كتب رسالته حوالي سنة ٤٢١ وتكون النتيجة أن رسالة الغفران كتبت حوالي ٤٢٢ ، وإذا قدرنا أن ابن القارح قال نيفاً وسبعين وللنيّف دلالاته وقدرنا أن أبا العلاء

---

(١) النثر الفني ج ١ ص ٢٥٩ للدكتور زكي مبارك .

اعتذر عن تأخير الرسالة بأنه يستطيع بغيره كان من الممكن أن تكون رسالة الغفران كتبت بين سنة ٤٢٢ ، سنة ٤٢٤ » .

ثم قال الدكتور مبارك : « ونتيجة هذا التحقيق أن رسالة الغفران كتبت بعد رسالة التوابع والزوابع بنحو عشرين سنة وصار من المرجح أن يكون أبو العلاء هو الذي قلد ابن شهيد ، وكما كان الأندلسيون يقلدون أهل المشرق في كل شيء كان أهل المشرق يحرصون أشد الحرص على متابعة الحركة الأدبية في الأندلس بدليل أن رسائل ابن شهيد ذاعت في الشرق ودونها المؤلفون الشرقيون قبل أن يموت وقبل أن توضع رسالة الغفران.... »

نتيجة جديدة مضادة قد انتهى إليها الدكتور مبـــارك وهي ذات دليلين دليل قطعي ودليل راجح فالدليل القطعي أن ابن شهيد لم يقلد أباالعلا بالمرة لأن رسالة الغفران قد كتبت سنة ٤٢٤وابن شهيد مات سنة ٤٢٦ بعد مرض أقعده مدة طويلة ، وقد كتبت رسالته قبل ذلك بأعوام كثيرة قدرها الدكتور مبارك بنحو عشرين . . والمؤكد أنها أقل من ذلك كما قررالدكتور أحمد هيكل وسيأتي توضيح رأيه عن قريب . . . هذا هو الدليل القطعي ، أما الدليل الراجح فهو أن أبا العلاء تأثر بابن شهيد لأن رسائل ابن شهيد ذاعت في المشرق ودونها المؤلفون الشرقيون قبل أن يموت ابن شهيد وقبل أن توضع رسالة الغفران . . فلا بد أن تكون قد انتهت إلى أبي العلاء وقد بحثت في كتب المشرق التي عناها الدكتور مبارك فرأيت أن يتيمة الدهر للثعالبي هي التي تحدثت عن ابن شهيد في حياة أبي العلاء فذكرت بعض شعره وبعض نثره . دون أن تشير إلى رسالة التوابع ، وكان عليّ بعد ذلك أن أثبت شيئين هامين في هذا الصدد الشيء الأول أن الثعالبي كان يعرف رسالة التوابع والشيء الثاني أن أبا العلاء قد قرأ اليتيمة .

أما أن الثعالبي كان يعرف رسالة التوابع ، فــواضح من مختاراته الشعرية والنثرية لابن شهيد ، إذ أن من يقرأ الجزء الثاني من يتيمة الدهر مطبعة حجازي يجد المختارات قد جاءت ابتداءً من ص ٣٥ كما يلي :

المقطوعة الأولى مختارات من قصيدة ص ٣٥ جـ ٢

شجته طلول من سليمي وأدورُ

المقطوعة الثانية مختارات من قصيدة ص ٣٦ ج ٢

أمِن رسم دار بالعقيق محيـــــل

المقطوعة الثالثة مختارات من قصيدة ص٣٧ج ٢

منـــازلهم تبكي إليك عفاءهـــــا

المقطوعة الرابعة مختارات من قصيدة ص ٣٧ ج ٢

أبكيت إذ ظعن الفريق فراقهـــــا

المقطوعة الخامسة مختارات من قصـــــيدة ص ٣٩ ج ٢

أفي كل عام مصرع لعظيم ؟

المقطوعة السادسة مختارات من قصـــــيدة ص ٣٩ ج ٢

هـــــذه دار زينب والربـــاب

المقطوعة السابعة مختارات من قصـــــيدة ص ٤٠ ج ٢

أصفيح شـــــيم أم برق بـــــدا

المقطوعة الثامنة مختارات من قصيدة ص ٤١

أبرق بـــدا أم لمـــع أبيض فاصل

المقطوعة التاسعة مختارات من قصيدة ص ٤٢

هاتيك دارهم فقف بمغانهـــــا

المقطوعة العاشرة مختارات من قصيدة ص ٤٣

ومرتجز ألقى بذى الاثل كلكـــلا

المقطوعة الحادية عشرة مختارات من قصيدة ص ٤٣

هذه القصائد نقلت هكذا وفق ترتيبها في رسالة التوابع والزوابع كما ذكرها ابن بسام بالذخيرة ١-١ ابتداء من ص ٢١٣ حيث المقطوعة الأولى

و ص ٢١٤ حيث المقطوعة الثانية وص ٢١٦ حيث المقطوعة الثالثة وص٢١٧ حيث المقطوعة الرابعة و ص ٢١٨ حيث المقطوعة الخامسة وص ٢٢٠ حيث المقطوعة السادسة وص ٢٢٣ حيث المقطوعة السابعة وص ٢٢٦ حيث المقطوعة الثامنة وص ٢٢٨ حيت المقطوعة التاسعة ولم يذكرها ابن بسام بطولها كما جاءت في أصل الرسالة لأنه سبق أن ذكرها ص ١٧٣ فلم يشأ التكرار ، وص ٢٣٦ حيث المقطـــوعة العاشرة ، وص ٢٣٧ المقطـــوعة الحادية عشرة .

فتوالي المختارات وفق ترتيب رسالة التوابع والزوابع ، ينطق بأن الثعالبي قد نقل عنها وأنها كانت تحت يديه حين حدثه أبو سعيد بن دوست (ص ٢٥ ج ٢) عن ابن شهيد ولئن جاءت المختارات ناقصة الأبيات عن قصائد الرسالة فإن الثعالبي قد اختار منها ما راقه وليس له أن يتقيد بجميع ما قال ابن شهيد ، شأنه في ذلك شأن غيره من الشعراء ، أما مختارات الثعالبي النثرية فهي أيضاًمن الرسالة مثل وصف البرغوث والبرد والبعوض والنساء والنار ، وإذا كانت بعض هذه الأوصاف لا توجد الآن فيما رواه ابن بسام ، فالسبب واضح هو أن ابن بسام يعترف أنه لم يرو جميع الرسالة، وإنما ينقل بعض المختارات فما جاء به الثعالبي مما ليس في الرسالة على ندرته — قد أغفلهابن بسام مع ذيوعه لدى غيره . ولو ذكرت رسالة التوابع بنصها في الذخيرة لرأينا كل ما جاء .

أما أن أبا العلاء قد قرأ اليتيمة فذلك ما توحي به البداثةلأن كتابالثعالبي قد صدر فيحياة أبي العـــلاء وكان له ضجيج ورنة . إذ شرّقت اليتيمة وغربت ، وتحدثت عن شعراء يعاصرون شـــاعر المعرة ومن الطبيعي أن يُسأَل عنهم في مجالسه من تلاميذه وأن يصْدر فيهم رأيه بل إن الثعالبي تعرض لأبي العـــلاء إذ نقل أحاديث الأدباء عنه وروى بعض أخبـــاره وأشعاره وليس من المعقول أن يخفى ذلك عن طلعة بصير كأبي العلاء . قال ياقوت الحموي في الجزء الثالث من معجم الأدباء ص ١٢٨ دار المأمون :

وقال أبو منصور الثعالبي في يتيمة الدهر « وكان حدثني أبو الحسن الدلفي المصيصي الشاعر وهو من لقيته قديماً وحديثاً في مدة ثلاثين سنة قال : لقيت بمعرة النعمان عجباً من العجب رأيت شاعراً ظريفاً يلعب الشطرنج والنرد ، ويدخل في كل فن من الجد والهزل يكنى أبو العلاء وسمعته يقول أن أحمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر قال : وحضرته يوماً وهو يملي جواب كتاب ورد عليه من بعض الرؤساء (وذكر الأبيات ثم قال (وأنشدني لنفسه :

لست أدري ولا المنجم يدري ... ما يريد القضاء بالإنسان
غير أني أقول قول محق ... قد يرى الغيب فيه مثل العيان
إن من كان محسناً فأبكنيه ... لجميل عواقب الإحسان !

فرسالة التوابع ذاعت في المشرق ، وصاحبها مشهور تحدثت عنه يتيمة الدهر وهي بعد أوسع ذخائر الأدب اشتهاراً ، وقرأها أبو العلاء فعرف ابن شهيد دون جدال . . .

لقد بان إذن بعض الحق في رأي الدكتور مبارك ، ولكن الدكتور أحمد أمين في الجزء الثالث من ظهر الإسلام ص ٢١٠ ينسب هذا الرأي لبعض المستشرقين دون أن يسميه فيقول ما نصه ص ٢١٠ ج ٣ الظهر :

« وقد ظن قوم أن التوابع والزوابع وضعت تقليداً لرسالة الغفران ، ورأى بعض المستشرقين أن العكس هو الصحيح وأن أبا العلاء هو الذي قلد بن شهيد ورجح أن التوابع والزوابع ألفت قبل رسالة الغفران بنحو عشرين سنة ، وذلك لأن ابن شهيد ذكر في رسالته ما يدل على أنه ألفها في عهد المستعين وهو سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الناصر وكانت مدة حكم المستعين هذا من سنة ٤٠٠ إلى سنة ٤٠٧ (الصحيح أنه خلع من ٤٠٠ ــ ٤٠٣ وولى بعد ذلك (كما نعلم أن أبا العلاء ألف رسالة الغفران رداً على ابن القارح ، وكان أبو العلاء قد بلغ نحو السبعين كما تدل عليه فقرة

في الرسالة نفسها ، فيكون قد كتب رسالته حوالي سنة ٤٢٢ وعلى هذا تكون رسالة التوابع والزوابع كُتبت قبلها بنحو ٢٠ سنة وقد أخذ أبو العلاء الفكرة وطبقها تطبيقاً لطيفاً ، ونحا بها نحو يخالف بعض الشيء رسالة اين شهيد وإن كان أساس الفكرة عند ابن شهيد ودانتي وأبي العلاء واحداً » .

وأرجح أن صاحب هذا البحث هو الدكتور زكي مبارك إذ لو سبق به بعض المستشرقين لذاع واشتهر ، وأظن أن الدكتور أحمد أمين قد سها حين عزاه إلى غيره لأنه قرأ النثر الفني وعده بين مراجعه آخر الكتاب . ولو تأكد من سبق غيره في ذلك لذكر اسمه على الأقل .

ثم جاءت السيدة الدكتورة بنت الشاطيء تعلن رأيها في هذه المسألة ببحثها القيم عن (الغفران) وقد نالت به درجة الدكتوراه بتقدير ممتاز سنة ١٩٥٠ فذكرت رأيَي الدكتورين أحمد ضيف وزكي مبارك مؤكدة أن دعوى التشابه والتقليد بين الرسالتين قولة جديدة في عصرنا لم يقل بها سوى قلة لم تتخصص في هذا الموضوع ولا هي تفرغت لتحقيقه ، وإنما تناولته جملة فيما تناولت من مواضيع عامة في النثر العربي أما الأقدمون فلم يذكروا من ذلك شيئاً على كثرة ما ذكروا من تأثر الأدب المغربي بأدب المشرق ، وعلى ما أحصوه من معارضات كتابهم وشعرائهم لأبي العلاء » ص ٢٠٩ من كتاب الغفران .

وأنا لا أدري كيف تجزم الدكتورة الفاضلة أن أمثال أحمد ضيف وزكي مبارك وأحمد أمين – فهو بين ذوي الرأي في المشكلة وإن لم تنص عليه – قلة لم تتخصص في الموضوع . وما معنى التخصص لديها ؟ أيكون مفهومه أن يصدر الكاتب مؤلفاً خاصاً في هذه الناحية دون أن يتعرض له في مؤلف عام . وإلا كان غير متخصص . . وإذا كان ذلك هو ما تعنيه أفيجوز لنا أن نقول إنها إن تكلمت عن المتنبي أو شوقي أو أبي نواس أو أي أديب عربي لم تكتب عنه مؤلفاً خاصاً تعد غير متخصصة فلا يجوز لها أن تصدر الرأي الأدبي إلا في كتاب كبير خاص ذي صفحات ؟ لاشك أننا

نظلم الدكتورة الباحثة لو قلنا لها ذلك . كما ظلمت زكي مبارك وأحمد ضيف حين سلبت عنهما الاختصاص دون مبرر معقول . ثم إني لم أر من الباحثين الأقدمين من عنى بإحصاء معارضات كتّاب الأندلس لأبي العلاء ؟ من هؤلاء ؟ وفي أي الكتب ؟ حتى تقول الدكتورة ، وعلى ما أحصوا من معارضات كتابهم وشعرائهم بالأندلس لأبي العلاء .

ثم تقول الدكتورة الفاضلة ص ٣٠٩ : « وكان على القائلين بمحاكاة إحدى الرسالتين للأخرى أن يقفوا عند هذا الصمت من الأقدمين ، وأن يفسروا لنا كيف غاب هذا عن مثل مروان بن حيان المؤرخ الأندلسي المعروف بالصدق والدقة وقد كان قريباً من عصر ابن شهيد وعن مثل أبي النصر الفتح بن خاقان وعن مثل أبي الحسن على ابن بسام وهو حجة ثقة ... إنهم إذ يتحدثون عن التوابع والزوابع يصفونها بما يصفون . أثراً مبتدعاً لا رسالة مقلدة ... »(١) .

أما الصمت الذي سألت عنه السيدة الفاضلة فله ما يبرره دون نزاع ، لأن الدكتورة نفسها تعلم أن الرسالة لم تكن مشهورة بين آثار أبي العلاء قبل القرن الثالث عشر ، وقد قالت الدكتورة بنت الشاطيء بالذات في مقالها عن رسالة الغفران بالعدد السادس من المجلد الثاني من سلسلة تراث الإنسانية ٥ يونية سنة ١٩٦٤ ص ٤٢٢ ما نصه :

« وحتى القرن الثالث عشر الهجري لم يكن المعروف عنها يتجاوز كلمات قصارا ذكرها مؤرخوه في ترجمته وقد اكتفى القفطي في (إنباه الرواة) بإثباتها في فهرس مصنفاته بين رسائله الطوال التي تجري مجرى الكتب المصنفة ، وكذلك فعل سبط بن الجوزي في مرآة الزمان فذكرها بين المصنفات الحسان لأبي العلاء ، وأبو القاسم الكلاعي المغربي الذي أشار إليها في أحكام صنعة الكلام بين رسائله التي لها بال، وآخرون تحدثوا عنها في بضع جمل مثل ياقوت الحموي والذهبي والصفدي وابن العديم ثم قالت

(١) الغفران ص ٣٠٩ للدكتورة بنت الشاطيء ط دار المعارف .

الدكتورة ومن مجموع هذا نخرج بأن المعروف عنها إلى القرن الثالث عشر هو أنها من رسائل أبي العلاء الحسان الطوال التي تجري مجرى الكتب المصنفة في مجلد واحد وقد احتوت على مزدكة واستخفاف ، وفيها ما هو من أمارات سـوء عقيدته وقبح مذهبه ما يدل على تمكنه من الأدب واطلاعه على اللغـة » . ص ٤٢٣ .

فإذا كان هذا هو المعروف عنها في الشرق باعتراف الباحثة الجليلة فكيف تريد أن يعرف عنها ابن حيان والفتح وابن بسام أكثر مما يعرف المشرقيون ؟ أعرفت إذن سر الصمت من هؤلاء ؟ . . . إنه واضح صريح فالرسالة لم تشتهر بالأندلس شهرة غيرها من آثار أبي العلاء .

على ان الباحث المتأمل يقرأ قول الدكتورة عن ابن حيان والفتح وابن بسام : « إنهم إذ يتحدثون عن التوابع والزوابع يصفونها بما يصفون به أثراً مبتدعاً لا رسالة مقلدة » فيرى أن هذا القول يخدم الحق من طرف واحد فقط لأنه يثبت الابتكار لابن شهيد . وهو ما نذهب إليه ولكنه لا يفيد من ينكرون تأثر الغفران بالتوابع إطلاقاً ، ومن بينهم الدكتورة الفاضلة . فالتوابع مبتدعة مبتكرة وهذا حق . ولكن أين مثل هذا القول من هؤلاء عن رسالة الغفران .

وتمضي الدكتورة الباحثة في الاستدلال فتقول ببعض التصرف ٣١٢ — ٣١٤ : « لقد كان هذا يغنينا عن الرد على دعوى التشابه لكننا مع ذلك نمضي في النظر في الرسالتين فنرى ما بينهما بعيداً . من المسلم به أن بينهما أوجه تشابه . لكنها ليست خاصة بهما وإنما هي من الظواهر الأدبية التي يمكن أن تلتمس عند غيرهما من أدباء العصر أو في الآداب على وجه العموم صاغ كلاهما أحكامه الأدبية في أسلوب شائق على طريقة الحوار ، ولكن ليس هذا مما اختص به أحدهما حتى يؤثر بادعاء السبق إليه ، وقام كلاهما برحلة في عالم الخيال أنطق فيها الجن والحيوان لكنا نلقي مثل هذا في القصص والأساطير وأخيلة الشعراء ، وأراد كلاهما عرض براعته في الصنعة وتفوقه في الحفظ والإنشاء ، ولكن ذلك مما يمكن أن يقال في كل ما كتب

الرجلان وغيرهما من صُنّاع الكلام ، وأحب كلاهما أن يبهر صاحبه (الذي بعث برسالته إليه) ولكن أي أديب لا يتجه إلى مثل ذلك .

وهب شيئاً من هذا التشابه في الأسلوب والهدف قد كان فكيف يقوم وحده دليلا على التشابه إذا اختلف جوهر الموضوع وتباينت روح الكاتب ، وتغيرت شخصية البطل . رسالة الغفران بطلها ابن القارح أما أبو العلاء فيتوارى كما يتوارى الملقن وراء الستار لا يظهر على المسرح ولا يذكر اسمه على لسان . والتوابع بطلها ابن شهيد نفسه كاتب الرسالة ومؤلف الرحلة لا يتوارى في مشهد من مشاهدها ولا يقوم ثمّ حوار أو عرض أدبي إلا كان هو الشخصية الأولى .

الغفران تصور أشواق أبي العلاء وترسم أحلامه وتسجل رؤاه وتعرض آراءه ومذهبه في النقد ، والتوابع والزوابع ديوان من شعر ابن شهيد ومجال لإنشاء قصائده . أبو العلاء متفنن حافظ راوية وابن شهيد شاعر فخور(١) .

هذه هي حيثيات الدكتورة بنت الشاطيء ومن يعيد النظر فيها يرى أنها كانت تحتم أن يكون النصّان متقاربين تمام التقارب حتى نقول بالمحاكاة وهذا بعيد ، لأننا في قضيّة الموازنة بين النصوص الأدبية نفرق بين التأثر والاحتذاء فللتأثر أن يستلهم اللاحق سابقاً فيلهمه مهما ابتعد عن جوه ونأى عن مسرحه ، فحسبه أن وجّه عينه إلى أفق جديد لم يكن يخطر على باله من قبل . فلو سارَ في طريق غير طريق صاحبه ما قدم ذلك شيئاً ولا أخّر في جوهر القضية ، وحسبه أن أراه السبيل ، فابن شهيد قد ابتكر الكتابة عن بعض عوالم الغيب فتأثر به أبو العلاء وأحبَّ أن يكتب عن بعض هذه العوالم أيضاً وإن سار الأول في طريق الجن والثاني في طريق الجنة والنار . هنا نحكم للسابق بالتأثير واللاحق بالتأثر . . ولن نتطلب منه أن يحذو حذو سابقة وإلا فقد شخصيته الأدبية وأصبح تابعاً هزيلا لا يضيف إلى الأدب شيئاً

(١) الغفران للدكتورة بنت الشاطي ص ٣١٤ .

ذا بال، ومعاذ أبي العلاء أن يكون كذلك . نعم إن كليهما صاغ أحكامه في أسلوب شائق على طريقة الحوار كما تقول الباحثة وكليهما عرض صناعته وفنه وأحب أن يبهر قارئه، وأن البطل عند أبي العلاء هو ابن القارح وهو ابن شهيد نفسه في رسالة التوابع ، والغفران تصور أشواق أبي العلاء والتوابع ديوان بن شهيد . هذا كله صحيح ولكنه لا يغير من جوهر القضية شروى نقير . فالرحلة الخيالية هي سر الإبداع ، ولو كانت المسألة مسألة حوار لقرنت بالمقامات أو حديثاً عن النفس لقرنت بقصائد الفخر، وسيان أن تكلم أبو العلاء عن غيره أو نطق ابن شهيد عن نفسه فتلك جزئيات تتداخل في إطار عام هو الرحلة المبتكرة التي اخترعها ابن شهيد . ولا أدري لماذا لا يكون ابن شهيد قد تحدث عن أشواقه وأحلامه كما تحدث أبو العلاء ، ألا تصور التوابع والزوابع أحلامه في الأدب والشعر ورغبته في التفوق والإعجاز ؟ وليت شعري أيّ الأديبين أقرب إلى الحديث عن نفسه ، أديب يتحدث على لسانه هو أم أديب يتحدث على لسان ابن القارح حتى نجعل الثاني يصور هواتف نفسه – ولا معارضة في ذلك – ونصر على أن يكون الأول بعيداً عن أشواقه مع أنه بإقرار الدكتورة بطل الميدان . وإذا كانت التوابع ديوان شعر ابن شهيد . أو ليس الديوان في مجموعه خلجات نفس وهمسات وجدان . إن علماء الأدب المقارن يجعلون من اختصاصه أن يدرس مواطن التلاقي في الآثار الأدبية ، ومظاهر التأثير والتأثر سواء تعلقت بالأصول الفنية للمذاهب الأدبية أو اتصلت بطبيعة الموضوعات والمواقف والأشخاص التي تعالج أو تحاكي في الأدب . وكانت خاصة بصور البلاء المختلفة كما تنعكس في الآثار الأدبية (١) . .. فكل موطن للقاء بين الآثار الفنية مجال للدراسة والتحليل فالحكم بالتأثر والتأثير . ولن نجد موطناً أفسح ولا أوسع من رحلتين خياليتين قامتْ أولاهما في الأرض السابعة وارتفعت أخراهما إلى السماء العالية . ثم ألا يكون هذا التناقض المعارض دليل التأثر الواضح حين يذكر الشيء بنقيضه كما يذكر بمثيله على السواء . إذا كانت الدكتورة

(١) الأدب المقارن ص ٩ ط ثالثة .

الفاضلة في شك من ذلك فلتسأل نفسها ألا يذكرها هدوء الليـل بضجيج النهار . تلك المسألة واضحة . ولعـل أبا العلاء لو سئل عنها ما رأى أي حرجاً في الاعتراف . وإذا كان قد أغفل الحديث عن ابن شهيد حتى يحسم الخلاف فعذره أنه لم يتحدث في رسالة الغفران عن أندلسي قط . وقل حديثه في غيرها عن هؤلاء .

وقد أتي الأستاذ الدكتور أحمد هيكل ببعض الجديد فيما كتبه عن ترجيح صلة الغفران بالتوابع . هذا الجديد يتعلق بتحديد الزمن الذي كتبت فيه رسالة التوابع كما يتعلق بمن كتبت له الرسالة . أما الزمن فقد جعله الدكتور زكي مبارك في حكم سليمان المستعين ، وقد ولي ما بين سنة ٤٠٣ إلى سنة ٤٠٧ فتكون التوابع قد سبقت الغفران بعشرين عاماً ، أما الدكتور هيكل فيرى أن التوابع قد سبقت الغفران بما لا يقل عن تسع سنوات فقط ، ودليله واضح شرحه حين قال (١) رداً على زكي مبارك :

« على أن ذلك الرأي ليس دقيقاً فقد اشتملت التوابع والزوابع على نصوص أخرى يرجع تاريخها إلى ما بعد هذا التاريخ . ومن ذلك قصيدة ابن شهيد التي قالها وهو في سجن الحموديين ، فالمرجح أن يكون قد قال هذه القصيدة أيام القاسم بن حمود الذي نُغلّب أن يكون قد سجن ابن شهيد لصلته بمنافسه الثائر عليه وهو يحيى بن حمود وقد كانت خلافة القاسم سنة ٤١٣ ، وفي الرسالة كذلك ما يؤخر زمن تأليفها عن هذا التاريخ فقد اشتملت على بعض رثاء ابن شهيد لأبي عبيدة حسان بن مالك وكان هذا المرثي ضمن وزراء المستظهر سنة ٤١٤ وفي الرسالة أبيات تشير إلى شافعية ابن حزم وقد كان شافعياً في هذه الفترة ثم تحول إلى المذهب الظاهري بعد ذلك وعلى هذا يمكن أن نقول إن ابن شهيد قد أتم رسالته سنة ٤١٥ هـ » .

هذا هو الجديد الأول ، أما الجديد الثاني في كلام الدكتور هيكل ، فهو تقريره أن الرسالة لم توجه إلى أبي بكر بن حزم كما ذكر ابن بسام وإنما وجهت

(١) الأدب الأندلسي للدكتور هيكل ص ٤٢٢ .

لشخص آخر يدعى أبا بكر ، فظنه صاحب الذخيرة أبا بكر بن حزم ، ودليل الدكتور أن أباحزم مات في طاعون قرطبة سنة ٤٠١ كما ذكر أخوه في طوق الحمامة ، وإلى هذه السنة لم يكن ابن شهيد قد كتب الرسالة ثم يرجح الدكتور هيكل أنها موجهة لأبي بكر الكاتب المعروف بأشكمياط لأنه كان ينتقد ابن شهيد ويعيبه بأخذ كلام غيره وقد رد عليه ابن شهيد معاتباً لائماً وهدّده وتوعدهفي فصل ذكره ابن بسامص ١٩٦ ج١-١وأنا أوافق الدكتور على استنتاجه أنها ليست لأبي بكر بن حزم ولا أوافقه على استنتاجه أنها لأبي بكر أشكمياط لأن ابن شهيديقول في مطلعها عن رأي صاحبه فيه : « حين لمحت صاحبك الذي تكسبته ورأيته قد أخذ بأطراف السماء فألف بين قمريها ، ونظّم فرقديها ، فكلمارأى ثغرة سدها بسهاها إلى غير ذلك فقلت كيف أوتي الحكم صبياً ، وهز بجذع نخلة الكلام فأساّقط عليه رطباً جنياً ، أما إن به شيطاناً يأتيه وليسهذا في قدرة الإنس » . وأبو بكر المعروف بأشكمياط يرى ابن شهيد لصاً سارقاً ولم يره قد أوتي الحكم صبياً وأخذ بأطراف السماء فألف بين قمريها ونظم فرقديها ، فليبحث لنا الدكتور إذن عن أبي بكر سواه .

هذا بعض ما قاله المعاصرون ممن عثرنا على أقوالهم في صلة الغفران بالتوابع وهي صلة تقوم الدلائل على وجودها ، وتعوذ البراهين القاطعة على نفيها ، ونحن مع هؤلاء المثبتين نعترف بتأثير ابن شهيد في أبي العلاء حتى يقدم إلينا من الأدلة الثابتة ما يقع مو قع اليقين .

* * * * * * * * * * *

أثر الأندلس في الحركة العلمية بمصر

حفظت مصر الثقافة العربية بعد سقوط بغداد إذ كان النصر السياسي الذي اكتسبه المماليك بعد موقعة عين جالوت مدعاة إلى هجرة كثير من العلماء من شتى الأماكن شرقية وغربية إلى القاهرة ، لأن قيام الخلافة العباسية بها – ولو على وجه صوري – قد جعلها تأخذ مكان عاصمة الرشيد ، فيهرع إليها الناس من كل حدب ، وقد وجد العلماء من رعاية السلاطين ما بعث فيهم الرضا والحمد ، ففي كل مسجد ، ولكل مسجد أوقاف وأحباس ، وله مدرسون وطلاب وكتب وأوراق ، وكتب التاريخ تحصي هذه المساجد ذات الصبغة العلمية والدينية معاً ، وتفيض في ذكر من يدرسون العلم بها على اختلاف فروعه من فقه وتفسير وحديث ونحو وصرف وبلاغة وأصول وقراءات ومنطق ، كما تتحدث عن مشاهير العلماء من أئمة القول في الدين واللغة ، ومنهم الغزنوي والصقلي والمصري والمدني والعراقي والآمدي والأربلي والمقدسي والشامي والخراساني والمغربي والطوسي والنابلسي تعرفهم بأسمائهم كما تعرفهم بلهجاتهم وطباعهم إلا إنهم في نظر الحكومة المصرية إذ ذاك علماء مسلمون يؤدون أشرف واجب في أطهر مكان ، لهم واجب الرعاية والإجلال وبهم تزدهر المعرفة ويستنير الطلاب .

وقد كانت الأندلس أحد هذه الجداول التي تصب في محيط القاهرة ، إذ كانت الرحلة من المغرب إلى المشرق لا تكاد تنقطع ، وفي الراحلين من يرتشف ويرجع ومنهم من يؤثر البقاء حيث يستريح ، وقاريء نفح الطيب يقف على كثير من تراجم هؤلاء النازحين ، وهم من الكثرة بحيث يسجلون اعترافاً صارخاً بعلم المشرق وأستاذيته ، ويطول بنا القول لو عرضنا لأشهر مشاهيرهم فضلا عن عامتهم . ولم تكن الرحلة إلى مصر والإقامة بها مقصورة على عهد السلاطين من المماليك بل كانت من يوم أن فتحت

الأندلس كما فصلت ذلك في موضوع « سحر المشرق » . ولكن العصر المملوكي قد كتب له أن يشهد مغرب الأندلس وما سبقه من إرهاصات منذرة توحي بالكارثة المتوقعة ، فدعا ذلك إلى ضرورة الرحلة وجذب علماء الأندلس إلى مصر ، فلاقوا رحباً فسيحاً وسهلا مريحاً ، ووجدوا أهلا بأهل وإخواناً بإخوان . . . ولئن اكتفى بعض هؤلاء بالإقامة في دمشق دون مصر فقد كانت مؤلفاتهم تطير إلى القاهرة سريعاً لتلقى نصيبها من الرواج فهم عنها غير بعيد كابن مالك ومحي الدين ، وإذا كانت الثقافة الإسلامية متقاربة متشابهة تأخذ منحى واحداً في التأليف والصياغة وبخاصة في عصور التقليد والمحاكاة ، إلا ما ندر من أفذاذ أماثل يعدون عداً — فقد يصعب علينا أن نبرز تأثير الأندلسيين في الثقافة المصرية إذ أن مؤلفاتهم في الأعم الأغلب نسخ متشابهة من مؤلفات إخوانهم سواء من رحلوا إلى مصر من المشرق أو من رحلوا إليها من المغرب ، ولكننا على الرغم من ذلك كله نلمس تأثير الأندلسيين بارزاً في فروع خاصة من فروع الثقافة العربية إذ ذاك لأن جهدهم كان من الذيوع والاشتهار بحيث يدل على نفسه ، وقد رزق من الحظوة والإقبال ما جعله بارزاً جهيراً يشير بتأثيره ، وإذا كان هؤلاء الراحلون الفضلاء قد كتبوا في كل علم تقريباً ، فإن من هذه العلوم ما تأثر بتآليفهم تأثراً واضحاً بل منها ما كاد أن يصبح وقفاً على دراساتهم ، هم أهله وأصحابه ولا يستغرب القارىء ذلك ، فعلم القراءات مثلا يكاد يكون أندلسياً ، إذا نظرنا إلى الكتب التي سبقت إلى تسجيله ، ثم أفاضت في شرحه ، وسنبدأ بإيضاح ذلك فنقول . . .

لئن كانت القراءات سبعاً أو عشراً مشرقية ، فإن التأليف فيها لم يأخذ سبيلا علمياً ممتداً على نهج شارح إلا عند الأندلسيين ، وسبب ذلك أن بعض جنود المنصور بن أبي عامر كان مثقفاً عالماً بالقراءات ثم ولي إمارة دانية والجزائر الشرقية فبذل جهده في نشر هذا العلم تقرباً إلى الله وإشباعاً لرغبته العلمية فنفقت لديه سوق القراءة — كما يقول ابن خلدون ص ٤٣٧ من المقدمة — وظهر لعهده أفذاذ دونوا العلم على نطاق شامل ، بحيث تضاءل

جواره ما سبق أن كتب عنه شرقاً وغرباً ، وأبرز هؤلاء الأفذاذ وهو الإمام أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني صاحب كتاب« التيسير » وقد كان شيخ مشايخ المقرئين بالأندلس رحل إلى المشرق وتخصص في العلوم الدينية إذ ألف في الحديث والفقه والتفسير والقراءات تاركاً مائة وعشرين مصنفاً كما يقول مؤرخوه، وأحدها كتاب التيسير في القراءات السبع وقد نشره العلامة « برتزل » أحد أعضاء لجنة النشرات الإسلامية بجمعية المستشرقين الألمانية سنة ١٩٣٤ ، وصدره بمقدمة جيدة أشار فيها إلى منزلة علم القراءات من العربية والإسلامية . وهي منزلة عالية تحتاج اليوم إلى تأكيدها إذ وقر في أذهان بعض المثقفين لدينا في هذا العصر أن هذا العلم وقف على بعض المنقطعين لتلاوة القرآن فقط ، وفيهم أُميون حفظوه دون أن يفهموه . وهذا خطأ واضح ، لأن علم القراءات في العربية هو علم الإلقاء في أوربا يتحدث عن مخارج الحروف ومميزات الأصوات ووسائل النطق الصحيح ، ولو قدر له أن يأخذ دوره الطبيعي في التطور لأصبح ذا أثر هام في إعداد الخطباء والمذيعين بعد أن توضع الخصائص المميزة للترتيل والتلاوة فيما يختص بالقرآن ، فلا نشكو اليوم ممن يميلون بالحروف عن مواضعها جاهلين أو متجاهلين . بل إن الأزهر نفسه وهو وارث علم القراءات لا يضعهاالموضع المناسب . إذ جعل قسم القراءات وهو ملحق بكلية الدراسات العربية لا يستمد طلابه من حملة الثانوية الأزهرية بل ممن يحفظون القرآن من العامة، وأكثرهم لا يعرف شيئاً ما عن قواعد النحو والتصريف ، وأكبر الظن أنهم يكتفون هناك بحفظ الشاطبية مع الإشارة إلى بعض رموزها . أما الأستاذ برتزل المستشرق الألماني فيرى لعلم القراءات من الخطر ما وضحه بقوله في مقدمة الكتاب بتصرف :

« إن البحث في مخارج الحروف والاهتمام بضبطها على وجهها الصحيح لتتيسر تلاوة القرآن على أفصح وجه وأبينه كان من أبلغ العواملفي عناية الأمة بدقائق اللغة العربية الفصحى وأسرارها ، وكان ثمرة هذا الاجتهاد أن القراء تشربوا مزايا اللغة العربية وقواعدها ، ودقائقها ، ومما يؤيد ذلك

أن الكثير من قدماء النحـــويين كانوا مبرزين في علم القراءة كما كان الكثيرون من أئمة القراء كأبي عمرو والكسائي بارعين في علم النحو ، فعلى كل من يتصدى للنظر في تاريخ اللغة العربية ودرس المسائل التي تتناولها كتب النحو يين واللغويين والمفسرين أن يتتبع علم القراءة والتجويد ، ومن شرع في درس معاني القرآن واستقصاء لطائفه واستخراج حقائقه ثم اعتمد على القراءة الوحيدة التي يجدها أمامه دون التفات إلى غيرها فقد أغفل أمراً ذا بال » .

أصبحت الأندلس إذن مركزاً أساسياً لدراسة القراءات في ديار الإسلام ونشأ من أبناءها من سبقوا إلى التأليف فيها عن دراية، وإحكام حتى نبغ القاسم بن فهيرة بن خلف الشاطبي وكان كفيفاً منذ مولدهفانصرف إلى دراسة القراءات مع غيرها من علوم النحو واللغة والأدب وكان قوي الحافظة لدرجة تستغرب بحيث أصبح يصحح النسخ المكتوبة من الموطأ والبخاري ومسلم إذا تليتعليه من حفظه ، ثم يعقبها بشروح وافية واثقة ، وكان عزيزالنفس بعيد الهمة عرضت عليه الخطابة بالمسجد الجامع في بلدته فأنف وتأبّى ، لأن الحكام يلزمونه مديح الملوك والرؤساء في الخطبة الثانية وهم ظلمة لا يجوز أن يذكروابالخير في مثل هذا الموقف الجليل ، فأظهر الرغبة في الحج ، ونزح إلى مصر، وسمع بالإسكندرية على الحافظالسلفي ثم عين للإقراء في مدرسة القاضي الفاضل بالقاهرة ، وتصدر لدراسة القراءات والنحو واللغة فبلغ شأواً بعيداً من العظمة والمهابة حتى كان الناس يزدحمون في حلقته ازدحاماً يصل إلى التشابك والتفاخر حرصاً على الدنو من مكانه ، وقد ترك فيما ترك منظومة الشاطبية التي يتناقلها الناس إلى الآن مكبرين مرددين وقد قال عنها ابن خلكان ، لقد أبدع فيها كل الإبداع ، وهي عمدة قراء هذا الزمان في نقلهم ولا يشتغل بالقراءات أحد حتى يحفظها . . وقد ظلت كذلك من عهد ابن خلكان إلى وقتنا ، حتى رأينا أكثر قراء الريف المصري يحفظونها ويسعون جاهدين إلى من يفك رموزها ، ويوضح مغاليقها ، ومنذ ألف الشاطبي منظومته وهي عمدة التأليف في هذا الفن وقد كتبت عليها

شروح مستفيضة على توالي العصور نذكر هنا بعضها لنشير إلى أثر هذا الأندلسي الجهير في ازدهار العلم وانتشاره ، فأول من شرحها تلميذه أبو الحسن السخاوي بشرح أسماه « فتح الوصيد في شرح القصيد » ، ثم أبو شامة المقدسي في كتابه « إبراز المعاني وبرهان الدين الجعبري في مؤلفه كنز المعاني وشروح أخرى لشهاب الدين بن عبد الدائم الحلبي وجلال الدين السيوطي وشهاب الدين القسطلاني ونفر غيرهم لا يحصون ، أشار إلى بعضهم حاجي خليفة في كشف الظنون .

كما قام باختصارها ابن مالك النحوي في قصيدته حوز المعاني في اختصار حرز الأماني وقام بإكمالها أحمد بن علي المحلي شيخ القراء بالقاهرة وغيره من المشاهير فإذا قلنا أن علم القراءات كاد أن يكون أندلسياً وأن أثر الشاطبي بمصر في هذا الفن كان من الخلود والذيوع بالمحل الأول لم نكن مبعدين .

وتذكرنا منظومة الشاطبي بأخت لها في النحو والصرف نالت شهرتها الذائعة في بابها وهي ألفية ابن مالك الأندلسي المسماة بالخلاصة . فقد كان لها من التأثير العلمي منذ العصر المملوكي إلى هذا الوقت ما لم يتح لمؤلف نحوي آخر ، ولم يكن ابن مالك مجدداً في علمه ، ولكنه ضابط ومقيد وشارح ، لأن كتاب سيبويه في النحو لم يجد من أئمة النحاة بعده من يشغل باله بمعارضته ، بل أصبح إماماً يرجع إليه ، وهادياً يستنار به ، وقصارى المؤلفين من لدنه أن يلموا بموضوعه أو يشرحوا غوامضه ويفصلوا مجمله . وقد عرف باسم (الكتاب) لجلاله . وكان يقال لمن درسه لقد ركبت البحر استعظاماً وإجلالا ، وقد رحل ابن مالك من الأندلس إلى دمشق وهي يومئذ تحت سلطنة المماليك فسمع الحديث بها وأخذ العربية عن غير واحد واعتمد في قراءة كتب الأقدمين على نفسه ، وهذا مما عيره به منافسه أبو حيان الأندلسي نزيل مصر أيضاً وصاحب التآليف الذائعة الجهيرة في النحو والتفسير واللغة والقراءات . وقد ألف ابن مالك كثيراً ، وعارض الشاطبي بمنظومة في القراءات قال فيها :

ولا بد من نظمي قوافي تحتوي   لما قد حوى حرز الأماني وأزيدا

فمن بين مؤلفاته «الفوائد» و«التسهيل» وسبك المنظوم» وشرح مقدمة الجزولي وشرح المفصل ، وعدة اللاحظ والتعريف وشواهد التوضيح لمفصلات الجامع الصحيح ومن بين منظوماته الكافية الشافية في ثلاثة آلاف بيت ، ونظم الفوائد ونظم لامية الأفعال والأعلام في مثلث الكلام . أما منظومته الخالدة فهي الخلاصة المعروفة بالألفية ، فقد أذاعت ذكر ابن مالك على مدى الأحقاب وخدمت بالشروح والحواشي والتقريرات . ولذلك كان تأثيرها العلمي بارزاً يذكر الأندلس ، وقد يكون لغير ابن مالك من مؤلفي المتون النحوية نظماً ونثراً أفضل منها ، ولكن البحث هنا عن الأثر والتأثير . والثابت المشاهد أن ألفية ابن مالك تركت دوياً صاخباً في دنيا الشروح والتآليف لم يتركه متن نحوي آخر ، ومن شراحها السيوطي وابن الناظم وابن عقيل وابن هشام وابن الصائغ وأكمل الدين البابرتي ، وناظر الجيش الحلبي وعبد الرحيم الأسنوي . هذا غير الحواشي المستفيضة التي كتبت على كل شرح والتقريرات الهامة التي ألحقت بكل حاشية . وكلها تدور حول ألفية ابن مالك وقد نظمت ألفيات أخرى لغير ابن مالك ولكن لم تحظ بمنزلتها ، وربما كان لوضوح الخلاصة وسهولة صياغتها أثر في ذلك ، ولكننا نرى منظومات ابن مالك الأخرى تشاركها هذا الوضوح ولم تحظ بمعشار ما حظيت به مما يدل على أن الاشتهار حظ مقسوم ، ولئن كان الشاطبي وابن مالك كلاهما محافظ يقلد في تأليفه ، وناقل صائغ في نظمه فإننا لا نبحث هنا عن الابتكار ، ولكن نشير إلى التأثير وقد بلغت مؤلفاتهما التقليدية في مجال التأثير والسيطرة ما لم تبلغه مؤلفات المجددين من أمثال ابن مضاء . فوجب أن نشير إلى دورهما الكبير في الثقافة العربية فلا نبخس أحداً فضله في ميزان التقدير .

ولا بد من كلمة في مجال تفسير القرآن ، عن مؤلف أندلسي هام كان فريداً في اتجاهه إذ أن التفسيرات الذائعة لعهدة وما وليه لم تكن على غراره . كان هناك مجلدات تفسيريه بعضها مطبوع وأكثرها مخطوط لابن العربي والعز بن عبد السلام وابن ظفر الصقلي وسبط بن الجوزي وناصر الدين

الجزامي وتقي الدين السبكي والجلال السيوطي والزركشي والبلقيني وأبي حيان وابن قيم الجوزية ، والقفطي وابن كثير والعليمي ولكنها لا تغني غناء تفسير القرطبي ، إذ كان ذا منحى خاص . يضيف الأقوال إلى قائليها ويضرب عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين ويفصل آيات الأحكام تفصيلا شافياً ويوضحها بمسائل تسفر عن معناها وترشد الطالب إلى مقتضاها في أسلوب سلس لا يصدمك بالاصطلاحات العلمية أو التخْريجات النحوية والصرفية أو التمحلات البلاغية مما يغشى البيان القرآني بضباب يحول دون اجتلائه إشباعاً لرغبة قارىء بحاث. وهو لا ينقل نصاً ما دون مناقشة كاشفاً وجوه القول عما يجـوز للمفسر أن يبديه من الرأي المؤيد بالحجة وما لا يجوز أن يتعرض له من الفروض والتأويلات القاصية ، ذاكراً – ما دعت الحاجة – نصوصاً وافية من أحاديث الرسول وأقوال الصحابة ومشيخة التابعين وأئمة الرأي في الإسلام، وقد بدأ تفسيره بأبواب يراها ضرورية تتحدث عن فضائل القرآن وكيفية التلاوة وما يكره منها وما يحرم ، وجمع القرآن وترتيبه والقراءات السبع ومصحف عثمان . ولعـل دار الكتب المصرية لمست الحاجة إليه في هذا العصر فبدأت بنشره مطبوعاً في أجزاء قدر لها أن تبلغ السادسة والعشرين ، وقارئه المعاصر لا يشـعر أنه يقرأ في تفسـير سابق كتب في عهـد بعيد ولكنه يجد من من قرب التناول وإشباع الفكرة ويسر العرض ، وسلامة الاستنتاج ووفدة النصوص والشواهد ما يجذبه إلى متابعتة . وإذا كان لكل تفسير وجهته العلمية ، فإن ميزة القرطبي الأولى هي اهتمامه بالأحكام الفقهية ، يكشف عن وجهها كما تؤخذ صريحة من كتاب الله دون التعصب لمذهب فقهي خاص . كما نقل كثيراً من آراء ابن عطية الأندلسي ، وهو مفسر خطير ضاع تفسيره الكبير ولم تبق منه إلا أجزاء مبتورة في دار الكتب المصرية وقد أثنى عليه أبو حيان وقال عنه أنه أجل من صنف في علم التفسير وأفضل من تعرض فيه للتنقيح والتحرير . فكأن القرطبي قد حفظ لنا من آثاره ما حفظ ابن بسام في الذخيرة من آراء ابن حيان المؤرخ . وتلك إحدى مزايا النقل الكثير

في عهـــود الوراقة والمخطوطات . وقد قدم القرطبي إلى مصر وعاش بالصعيد الأوسط في منية ابن الخصيب، دون أن تغره أضواء العاصمة بل انقطع للعبادة والتأليف في معتزلة الهادىء . وإذا كانت الأيام قد حجبت تفسيره كثيراً عن التداول فإنه الآن بعد أن طبع طبعة راقية ممتازة بدار الكتب ، قد جاء بدعاً بين قرنائه حتى ليعجب القارىء لتأليف مثله في منهجه الرائع واطراده السهل واستقصائه المطمئن في عصر يعج بالاعتراضات اللفظية وتزدحم تفسيراته بالقصص الاسرائيلية. وهو عن هذه وتلك بعيد بعيد ..

هذه إشارات موجزة إلى بعض المؤلفات الرنانة ذات التأثير البعيد ، وبجوارها أخوات كثيرات لأئمة الأندلسيين الذين قطنوا المشرق في شتى فروع الثقافة الإسلامية ، ولكننا لم نشر إلى أحد منها عاملين ، حيث كانت على نفاستها مماثلة لسائر المصنفات العربية ذيوعاً وتقليداً فلا يجوز أن تندرج في موضوع يبحث عن المصنفات المؤثرة ، بطابعها المتميز أو بذيوعها المشتهر المتعالم ، وتمثل لها بمؤلفات المرسي السلمي في التفسير وأشهرها ريّ الظمآن في تفسير القرآن وهو ضخم يزيد على العشرين من الأجزاء ، ومؤلفات أبي حيان الأندلسي المتنوعة في النحو والتفسير وهي من الشهرة بحيث يستغنى عن الإشارة إليها وابن القطاع الصقلي في العروض والأدب والتاريخ وابن ظفر الصقلي في اللغة والنحو والأدب وعلم الكلام وأبي بكر الطرطوشي صاحب كتاب الفتن وسراج الملوك في السياسة والمختصر في التفسير وحامل لواء السنة في محاربة المستحدثات من البدع .

ولا نريد أن ننقل هنا من فهارس المكتبات العربية ما يشبعنا في هذا المجال بل نترك ذلك لمن يشغف باستقصاء هذه النفائس . وهي قيد المتناول .

هذا نمط يسير من القول في تأثير المقيمين بالشرق من الأندلسيين في الثقافة العربية ، أما لو أردنا الإلمام بتأثير الأفذاذ من غيرهم كابن حزم وأضرابه فما أظن القلم يستطيع أن يقف عند حد . وحسبنا الآن أن نذكر للأندلس إسهامها في إنعاش الحركة العلمية والأدبية على ضفاف النيل زمناً غير قصير .

تأثير ابن خلدون في أسلوبنا المعاصر

إذا قرأت كتاباً أندلسياً وجدته يتحدث عن ابن خلدون علماً من أعلام الفكر الأندلسي ، وإذا قرأت تاريخ الأدب المصري في عصر المماليك وجدت الحديث عن ابن خلدون قطباً من الأقطاب بوادي النيل ، وإذا ألممت بالحركة الفكرية في المغرب شاهدت ابن خلدون قائداً من كبار قادتها في تونس ، وذلك يؤكد منزلة هذا العملاق في الفكر العربي ، وحرص كل قطر من الأقطار على فخر انتمائه ، ونحن هنا نتابع الأستاذ أحمد أمين في عدّه أندلسياً ، لأنه كما قال في ظهر الإسلام (١) من أصل أندلسي بأشبيلية وهو وإن ولد في تونس فقد درس على علماء أندلسيين ، وأقام بالأندلس زمناً من أحفل حياته، والأندلس به أولى وقد عاش بمصر غريباً في زيّه ولهجته وطباعه ، حتى إذا وفد مع علمائها على « تيمور لنك »قارن بينه وبينهم في المظهر واللهجة ، ولولا مخالفته إياهم في مرأي العين ما لفت نظر الطاغية التتري لأن الحديث كان جماعياً عن طريق الترجمان ، وهو مما يؤكد أن الرجل لم يتمصر فيكسبه المشرق !

على أننا نتحدث عنه الآن لنبرز أثره القوي في نهضة مصر الأدبية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ! ولك أن تعجب معي كيف عاش ابن خلدون في القاهرة ، وشرح العلم بالأزهر وتولى قضاء المالكية عدة مرات وتنقل في شتى مدنها ليرعى شئون منصبه ، ويجني حصاد أوقافه، ثم لا يؤثر ذلك في حياته تأثيراً ذا بال حتى إذا أمضت القرون ، وأقبل عصر البعث كانت مقدمة ابن خلدون صاحبة التأثير الرنان فتضع للكتاب أسلوباً جديداً وللكتابة منهجاً واضح الأغراض . لقد مكث الأستاذ

---

(١) ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٢٥ .

الكبير المغفور له الشيخ أحمد الإسكندري أستاذاً للأدب العربي ثلاثين عاماً بدار العلوم ، وهو في كل عام من أعوامه الثلاثين يملي على طلابه هذه الفقرات من مذكرته الشهيرة عن الأدب العباسي (١) .

«كان ابن خلدون أحد نوابغ العالم الذين عاشوا أفذاذاً في عصور مظلمة لم يعضدهم فيها مشاكل ، أو تعرف قدرهم أمتهم ، فكانت حياتهم بين الأمة التي عاشوا فيها كلها شقاء ومحنة ، فقد أداه نفوذ خاطره وصدق نظره إلى الاهتداء إلى كثير من علل الحوادث التي تنتاب الاجتماع البشري وعرف ما بينها من الارتباط والتشابه ، حتى وقرت في نفسه بصور قوانين عامة وأقيسة مطردة ، سأل بها قلمه دون أن يفطن لها أهل قرنه ، ولم ينكشف سرها ويتضح للباحثين صدق انطباقها على سنن العمران والاجتماع إلا بعد انقضاء عدة قرون .

ولم يكن الانتفاع بمقدمته وأسلوب كتابته فيها في وقت أظهر منه في العصر الحاضر فقد كان أسلوب ابن خلدون المرسل المجرد عن تكلف البديع والمحسنات اللفظية في تعبيره عن المباحث السياسية والعمرانية والاجتماعية والجغرافية والصناعية هو القدوة الحسنة للمصلحين والمجددين للنهضة الأدبية والعربيةوالسياسية من كتاب العربية في مصر والشام وتونس وخاصة من ألف منهم في مثل موضوعاته أو كتب في الجرائد والمجلات لقلة المطبوع من الكتب ولأنه أرحب أسلوب أدبي علمي للنقلة والمترجمين عن اللغات الأجنبية المحافظين على أصل المعنى ، فهو كالأستاذ الأكبر لكتاب الصحف والمجلات في نهضتنا الأخيرة » .

هذا ما قاله أستاذنا السكندري ينقله عنه تلميذه الباحث المفضال الأستاذ محمود رزق سليم في المجلد السادس من موسوعته عن عصر المماليك ثم يقول تعقيباً عليه (٢) .

(١) الأدب العباسي للسكندري ٢٣٣ .

(٢) عصر سلاطين المماليك ج ٦ ص ٢٣٥ للأستاذ محمود رزق سليم .

« ولا ريب في أن أدباء النهضة تأثروا — إلى جانب ما تأثروا به — بآراء ابن خلدون ومنها أراؤه في نثر معاصريه فكان لذلك أثر مضاعف جعلهم يتجهمون لأسلافهم وينظرون إليهم نظرة عابسة ، ويرمون أدبهم بالضعف والانحطاط ويتأبون على دراسته وإذا أخذوا في دراسته أخذوا وآراء ابن خلدون مسلطة على عقولهم فيدرسونها وبأقلامهم لوثة من هذه الآراء وبدهى أن تأتي النتيجة وفق مقدماتها ، والأحكام رهن مقوماتها ، وللدكتور على عبد الواحد وافي ملاحظة طريفة في هذا المجال فقد رأى أن أخطاء ابن خلدون الأسلوبية في المقدمة قد انتقلت أيضاً إلى أقلام كتابنا وكأنها صواب لا يقبل التصحيح مما يدل على الثقة المفرطة في مقدرته والولوع الهائم باحتذائه . والدكتور يبسط بعض هذه الأخطاء حين يقول ص ٢٤٨ من كتابه عن ابن خلدون (١) .

« ويلاحظ أن أسلوب ابن خلدون قد انتقل إلى كتابنا بجميع ما فيه حتى بأخطائه نفسها ، فمن ذلك مثلا التراكيب المخطئة الآتية : « لا بد وأن » ، « لا يترك شيئاً إلا وأحصاه » ، « لم يقتصر على هذا بل وأخذ يعمل كيت وكيت » ، وهذه الشروط تتوفر في ، « يوقفنا على كذا » ، «وهذا الأمر وإن كان كذا إلا أنه كيت وكيت » ، وإن كاتباً يقبل منه الخطأ ويحتذي دون مناقشة لذو سيطرة بعيدة النفوذ ! وإذا كان من المعقول أن نجعل صوابه دليل سبقه فإن من الطريف هنا أن يكون خطؤه كذلك يتضمن هـــذا الدليل » .

ولإيضاح تأثير المقدمة في النهضة الأدبية المعاصرة ، نذكر أنها طبعت لأول مرة بمصر سنة ١٨٥٧ م. وكانت الأذهان إذ ذاك متطلعة إلى عهد جديد تلوح تباشيره فيما أعقب احتكاك مصر بالحضارة الأوروبية في عصر إسماعيل ، ثم جاء جمال الدين الأفغاني لينشر أفكاره عن الاستقلال والحرية والكرامة ومحاربة الاستعمار والتجبر وحكم الفرد مما يؤدي إلى فساد

---

(١) ابن خلدون (سلسلة أعلام العرب) للدكتور وافى ص ٢٤٨ .

العمران كما يقول ابن خلدون . وقد وجه الثائر الأفغاني تلاميذه إلى الكتابة السياسية في محاربة الاستبداد والتجبر ، والنعي على الطغاة من المحتلين وصنائعهم من الحاكمين . فاتجه الأدب العربي من ناحية المضمون وجهة جديدة بعد أن كان مقصوراً على المراسلات الإخوانية والأوصاف الإنشائية التي تقف عند الظواهر التافهة دون أن تعمد إلى الدقة والتحليل ، وبدأ الأدب الاجتماعي المصلح والتفكير السياسي الثائر يأخذ طريقه إلى الأسماع مقلداً أسلوب ابن خلدون في ترتيب المقدمات واستخلاص النتائج ورصد الظواهر وتعليلها .

وإذا كان ابن خلدون قد تحدث في مقدمته عن السياسة والملك وعاقبة الترف وأثر الظلم والاضطهاد وحكم الفرد وعمر الدولة وأسباب فنائها وتدميرها ، وبغي السلطان ورياء الحاشية فإنه بذلك قد أمد تلاميذ جمال الدين بأكثر ما يبتغون ، وأضاف أفكاراً صائبة في الحرية تسيل بها الأقلام في أنهار الصحف موقظة داعية ، فوجد دعاة الثورة سبيلا مقيداً للقول فأفرغوا حماستهم في اتجاهه ، أما من ناحية الشكل فقد انطلق أسلوب ابن خلدون مسترسلا سمحاً دون قيد بديعي أو حلية لفظية ، فقدم بذلك الأنموذج المختار لما يريده جمال الدين ، ومضى تلاميذه يحاكونه عذوبة واسترسالا ؟ فتحرروا من إرهاق السجع والازدواج وكسروا قيود الجناس والطباق ، وساعدهم على هذا النهج المتحرر ما يذكو في صدورهم من لهيب الحرية والعزة ، إذ إن الجذوة الملتهبة التي أذكاها جمال الدين في نفوس تلاميذه وهم صفوة الأدباء لعهده كانت أعظم من أن يخمد شرارها تحت رماد التكلف اللفظي والعبث البديعي ! وما بقي لدينا من آثار جمال الدين على عجمته قريب من منهج ابن خلدون على عربيته — في السرد والاسترسال ! ! !

وإذا كان الأستاذ محمد عبده أنبه تلاميذ الأفغاني ذكراً وأصحهم فكرة ، وأقومهم طريقة ، فسنتخذ من أسلوبه دليلا على تأثير ابن خلدون في الحركة الأدبية لعهده إذ ننقل هنا أثرين موجزين من آثاره : أحدهما

قد خطه الإمام في مطلع شبابه قبل أن يقع على أسلوب المقدمة ، وثانيهما مما كتبه الأستاذ بعد أن نضج فكره واستوى على سوقه . ونفحت عليه المقدمة الخلدونية من سدادها الصائب ما أحكم نسجه وأوثق عراه .

كان الشيخ محمد عبده — لأول عهده بالكتابة ينشر مقالاته بجريدة الأهرام ، فيهتم بالمقدمات الطويلة ويتناول الأغراض الثانوية ، ويحرص على الصبغ البديعي لا يشذ عن طريقة معاصريه متأثراً بمشاهيرهم في التنميق والتلفيق كأن يقول في موضوع عن الكتابة والقلم سنة ١٨٧٦ : « ولما انتشر نوع الإنسان في أقطار الأرض ، وبعد ما بينهم في الطول والعرض ، مع ما بينهم من المعاملات ، ومواثيق المعاقدات ، احتاجوا إلى التخاطب في شئونهم مع تنائي أمكنتهم ، وتباعد أوطانهم فكان لســـان المرسل إذ ذاك لسان البريد ، وما يدريك هل حفظ ما يبدي المرسل وما يعيد ، وإن حفظ هل يقدر على تأدية ما يريد ، بدون أن ينقص أو يزيد ، أو يبعد القريب أو يقرب البعيد ، فكم من رسول ، أعقبه سيف مسلول ، أو عنق مغلول ، أو حرب تخمد الأنفاس ، وتعمر الأرماس ومع ذلك كان خلاف المرام ، ورمية من غير رام ، فالتجأوا إلى استعمال رقم القلم ، ووكلوا الأمر إليه فيما به تتكلم » .

فما ترى في أسلوب الشيخ غير أنه يعترك في غير ميدان فيتحدث عن فضيلة الكتابة بالقلم كأنها من الخفاء بحيث ينبه عنها في مقال سيار ، يتخذ له من الأسجاع حلي موشاة يظنها تحدث أقوى الرنين في الأسماع . وأعمق التأثير في النفوس . . لقد كان من حظ الأدب دون نزاع أن يعدل عن أسلوبه هذا عرضاً وتعبيراً إلى أسلوب إصلاحي حي — يتحدث عن ظلم الرعاة وبغي الحاكمين — قريب من نهج ابن خلدون إذ يقول في العدد الرابع عشر من مجلة العروة الوثقى التي كان يصدرها بباريس مع أستاذه جمال الدين : « إن الأمة ليس لها في شئونها حل ولا عقد ، وإنما هي خاضعة لحاكم واحد، إرادته قانون ومشيئته نظام يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد

فتلك أمة لا تثبت على حال واحد ولا ينضبط لها سير فتعتورها السعادة والشقاء ويتداولها العلم والجهل ، ويتبادل عليها الغنى والفقر وكل ما يعرض عليها من هذه الأحوال خيرها وشرها فهو تابع لحال الحاكم ، فإن كان حاكمها أصيل الرأي عالي الهمة ، رفيع المقصد ، قويم الطبع ، ساس الأمة بسياسة العدل ورفع فيها شأن العلم ، ومهد لها طريق اليسار والثورة ، وفتح لهـا أبواباً للتفنن في الصنائع والحذق في جميع لوازم الحياة ، وبعث في أفرادها المحكومين روح الشرف والنخوة ، وحملهم على التحلي بالمزايا الشريفة من الشهامة والشجاعة وإباء الضيم ورفعهم إلى مكانة عليا من العزة، ووطأ لهم سبل الراحة والرفاهية وتقدم بهم إلى كل وجه من وجوه الخير . وإن كان حاكمها جاهلاً سيىء الطبع سافل الهمة ، جباناً ضعيف الرأي أحمق الجنان خسيس النفس معوج الطبيعة أسقط الأمة بتصرفه إلى مهاوي الخسران، وضرب على نواظرها غشاوات الجهل ، وجلب عليها غائلة الفاقة والفقر ، وجار في سلطته عن جادة العدل ، وفتح أبواباً للعـدوان فيتغلب القوي على على حقوق الضعيف ، ويختل النظام ، وتفسد الأخلاق ، وتخفض الكلمة ويغلب اليأس فتمد إليها أنظار الطامعين ، وتضرب الدول الفاتحة بمخالبها في أحشاء الأمة . عند ذلك إن كان في الأمة رمق من الحياة وبقيت فيها بقية منها وأراد الله بها خيراً اجتمع أهل الرأي وأرباب الهمة من أفرادها،وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة واستئصال جذورها، قبل أن تنشر الرياح بذورها وأجزاءها السامة القاتلة بيد جموع الأمة فتميتها وينقطع الأمل من العلاج ».

هذا الأسلوب وما جرى مجراه في الدفاع عن الحرية من أقلام مجاهدة تحمل روح ابن خلدون وطابعه ، ولا أعني بذلك أن ينهج نهجه في التحاليل والاستدلال ولكنه يعيش في جوّه ويستلهمه، وينطق بأثره الواضح أحياناً ، والخفي حيناً ، وأنا إذ أقرر ذلك أوجه النظر إلى ناحية هامة من نواحي التأثير الخلدوني إذ أن بعض الباحثين يقف بتأثير المقدمة عند الصياغةوالتركيب فقط ويرى أثرها لا يتعدى التحرر من القالب البديعي وهذا غـير الواقع لأن الأقلام التي اتجهت وجهة الإصلاح السياسي والاجتماعي ، قد وجدت

معينها الدافق في أفكار بن خلدون ، وإذا كان قد اشتهر عنه تفوقه في إدراك حقائق الاجتماع مما يسعف الكاتبين في إصلاح المجتمع المصرى فإن آراءه السياسية لا تقل خطورة عن آرائه الاجتماعية .

وبعبارة أخرى فإن الإصلاح السياسي في منطق ابن خلدون نتيجة من نتائج الإصلاح الاجتماعي ، فكلا الإصلاحين قضية واحدة ذات مقدمة ونتيجة ومن الذائع المشتهر أن آراء المفكر العربي في حقل السياسة والاجتماع قد وجدت من يتحمس لها تحمساً يصل بصاحبها إلى ذروة العبقرية والإبداع حتى اعترف به واضعاً أول لعلم الاجتماع وأقيمت الموازنات الطويلة بينه وبين فلاسفة هذا العلم في أوربا ، إذ قرنه الباحثون بأرسطو وأفلاطون وقال عنه (غوميلوفتس) أحد زعماء علم الاجتماع بألمانيا : « إن إبن خلدون يعتبر مفكراً عصرياً بكل معنى الكلمة . إنه درس الحوادث الاجتماعية بعقل هاديء رزين ، وأبدى آراء عميقة جداً لا أقول قبل (كانت) فحسب بل قبل (فيكو) أيضاً ، والحقيقة أن ما كتبه ابن خلدون هو ما نسميه اليوم بعلم الاجتماع » .

وقال (فارد) كبير علماء الاجتماع الأمريكان : «كانوا يظنون أن أول من قال بمبدأ الحتمية في الحياة الاجتماعية هو (مونتسكيو) أو(فيكو) في حين أن ابن خلدون قال بذلك وأظهر تبعية المجتمعات لقوانين ثابتة قبل هؤلاء بقرون ، حينما كان الغرب مستسلماً للفلسفة الدرسانية والكلمانية استسلاماً تاماً » .

وليس لي أن أملأ الصفحات بمثل هذه الاعترافات المنصفة التي سجلها مفكروا الغرب من أمثال استفانو كولوزيو الإيطالي ، ونانانيل شميت الأمريكي وتوينبي الانجليزي لعبقرية ابن خلدون ، ولا أن أشير إلى المقارنات التي عقدها كبارهم بين ميكيافيللي وأرسطو ومونتسكيو وبين صاحب المقدمة فقد شاعت وذاعت حتى أصبح تردادها المتكرر لا يأتي بجديد ، وإنما أريد أن أقول : إن صاحب هذه العقلية الفذة قد أنقذ الأسلوب الأدبي إنقاذاً

ناجحاً حين جعل الفكرة عنصراً عاماً من عناصره أو حين جعل صاحب القلم مفكراً ذا رسالة ، وليس صاحب أسجاع ومترادفات وقد ظل أثره الأسلوبي في قومه ضئيلا لا يكاد يحس حتى استيقظت العربية من إغفاءتها الطويلة في نهضتها المعاصرة وقدر لها أن تحتذى مقدمة ابن خلدون فتنتقل من دور إلى دور .

وطبيعي أن جميع الرواد في النصف الأخير من القرن التاسع عشر لم يكونوا من محتذي أسلوب المقدمة ، بل إن فيهم من لم تظهر على أسلوبه سمة واحدة من سماتها كعبد الله فكري وإبراهيم المويلحي وحمزة فتح الله والنديم ، ولكن صفوة الكتاب إذ ذاك كجمال الدين ومحمد عبده وأديب إسحق وعبد الرحمن الكواكبي قد نشروا أسلوب المقدمة كل جهد طاقته ! ! وكان من حسن الحظ أن يتتلمذ على جمال الدين ومحمد عبده بصفة خاصة أكثر كتاب الجيل اللاحق فيردوا موردهما ، وينهجوا منهجهما ، وإذ ذاك يقفز الأدب قفزته الطافرة ، ويتحرر الأسلوب نهائياً من أوهامه ، وتصدق كلمة أستاذنا السكندري حين قال : « لم يكن الانتفاع بمقدمته وأسلوب كتابته في وقت أظهر منه في العصر الحاضر فقد كان أسلوب ابن خلدون هو القدوة الحسنة للمصلحين والمجددين فهو الأستاذ الأكبر لكتاب الصحف والمجلات في نهضتنا الأخيرة » .

ويعن لنا أن نسأل في هذا المجال : لماذا لم يؤثر أسلوب ابن خلدون في معاصريه ، كما أثر في أسلوب الأدب المعاصر ؟ والرجل لم يكن خامل المكانة مجهول المنزلة بين قرنائه حتى يفقد تأثيره النفاذ بل كان كما قال عنه منافسه الخطير الوزير الأديب لسان الدين بن الخطيب في كتابه الإحاطة في تاريخ غرناطة . « باهر الخصال رفيع القدر أصيل المجد ، وقور المجلس ، عالي الهمة ، عزوفاً عن الضيم صعب المقادة، قوي الجأش طامحاً لفن الرياسة خاطباً للحظ ، متقدماً في فنون عقلية ونقلية ، سديد البحث كثير الحفظ ، صحيح التصور ، مغرى بالتجلة ، فأما نثره فخلج بلاغة ، ورياض فنون ،

ومعادن إبداع يفرغ عنها يراعه الجريء ، شبيهة البداءات بالخواتيم ، في نداوة الحروف ، وقرب العهد بجرية المداد ، ونفوذ أمر القريحة واسترسال الطبع ، وأما نظمه فقد نهض لهذا العهد قدماً في ميدان الشعر ، ونقده باعتبار أساليبه ، فانثال عليه جوه ، وهان عليه صعبه ، فأتى منـــه بكل غريبـــة » .

ولعـــل السبب في فقد تأثيره إذ ذاك أنه دعا إلى منهج جديد في التحرر ، وصاحب الجديد مقصي السبيل نائي الإجابة ، إذ أن معاصريه قد درجو على حب الصنعة والزخرف ، وأصبح الاعتكاف في البديع لديهم إيماناً لا يتزلزل ، فهم عن غيره منصرفون ، ولو نادى به عملاق خطير كابن خلدون ، لا نقول ذلك في الأسلوب الأدبي وحده ، بل في كل منهج جديد في مختلف العلوم والفنون والآداب يفتح العيون على أفاق لم تكتشف بعد . وللتدليل على ذلك نذكر في تاريخ النحو الأندلسي رجلين كبيرين ، أحدهما مجدد خطير وهو (ابن مضاء) القرطبي ، الذي نادى بإبطال نظرية العامل وذهب إلى أن الذي يسبب الظواهر النحوية من رفع ونصب وجر وجزم ! إنما هو المتكلم نفسه لا ما يزعمه النحاة من الأفعال وأشباهها ، وبين ما جرت إليه نظرية العامل من التعسف في التأويل والشطط في العلل والأقيسة ، وأكثرها مرفوض إن استقام من جهة تطرق إليه الخلل من جهة ثانية ! !

وقد ألف في مذهبه ثلاثة كتب ، منها كتابان كبيران مفصلان طواهما الزمن، وكتيب صغير ظل مجفو المنزلة حتى عثر على جزء منه في المكتبة التيمورية ، ونشره الدكتور شوقي ضيف منذ سنوات ! ! هذا البحاثة المجدد لم يجد من يستمع إلى دعوته الإصلاحية أو من ينسخ كتبه فقط للأجيال اللاحقة ، فضاعت صفحاتها بدداً في خضم الزمن لأنه صاحب مذهب طريف ! أما الرجل الثاني فهو ابن مالك الأندلسي صاحب الألفية الشهيرة ! فقد كان جماعاً لآراء النحاة حسن الترتيب لما يتناول من القواعد المقررة ، لم يأت بجديد في تحرير مذهب أو تأصيل بحث ، ولكنه قرأ فوعى

ثم جمع فأوعى ، فسارت مؤلفاته النحوية مسيرة الشمس ، وظلت تجتاب القرون منذ القرن السابع الهجري إلى الآن ، وقد كان الأزهر ولا يزال يدرس آثاره في الأقسام الابتدائية والثانوية والعالية محاطة بالشروح والتقديرات حتى هذه الساعة ! ! فإذا فقد ابن مضاء تأثيره في معاصريه ، فقد التقى مع ابن خلدون في العمل والنتيجة ، ومثلهما الكثرة الكاثرة من المجددين الذين دفنتهم أيامهم الجائرة في حفائر الإهمال ، حتى هبت الريح العاصفة فكشفت التراب عن الذخائر المطموسة وأقبـــل عليها الراغبون مقدرين !

ويخيل إليّ أن تردد ابن خلدون قبل تأليف المقدمة بين الترسل والسجع قد ضاءل من تأثيره في معشره إذ رويت عنه مراسلات بديعية نحى فيها منحى معاصريه ، وقد حفظت عنه وتعورفت بين الناس بل في تاريخه الكبير كان يميل إلى السجع في بعض الفقرات على قلة . واختار لتاريخه أطول عنوان مسجوع لكتاب عرفه القراء ونذكر هنا نموذجاً من كتابته المسجوعة في رسالة بعثها إلى لسان الدين بن الخطيب بدأها بقوله :

« سيدي مجداً وعلواً ، وواحدي ذخراً ومرجواً ، ومحل والدي براً وحنواً وما زال الشوق منذ نأت بي وبك الدار ، واستحكم بنا البعاد ، يرعى سمعي أنباءك ويخيل لي من أيدى الرياح تناول رسائلك ، حتى ورد كتابك العزيز على استطلاع وعهد غير مضـــاع ، وود ذي أجناس وأنواع » . . . . إلخ .

ونحن في ميزان النقد المخلص لا نؤاخذ الكاتب على التزامه قيود البديع في مراحله الأولى قبل أن يكون صاحب مذهب يؤثره لأن أبعد المتطرفين في الدعوة إلى الجديد ، كان يتلقى دراسته الأولى عن النهج الذي نادى بالتخلص منه ، بعد أن فتقت الأيام ذهنه بالتأمل والتمحيص ! فكل ما صدر عنه قبل أن يهتدي إلى منهجه الخاص لا يزحزح من دعوته التجديدية في عيون الناقدين ونحن حين نطالع آراء ابن خلدون بالمقدمة في الأسلوب الأدبي المختار نلمس من ثباته وأصالته وتمكنه ما نعتبره به قائد

دعـــوته وحامل راية يحـــاول أن ينقل الكاتبين من مجـــال إلى مجـــال . فهو يقول :

« واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون يعني فنون الشعر والنثر أساليب تختص به عند أهله ولا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه ، وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الأسجاع ، والتزام التقفيه ، وتقديم النسيب بين مدى الأغراض والمحمود في المخاطبات السلطانية والترسل وهو إطلاق الكلام وارساله من غير تسجيع إلا في الأقل النادر وحيث ترسله الملكة إرسالاً من غير تكلف ثم إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال ، فإن المقامات مختلفة ، ولكل مقام أسلوب يخصه من إطناب أو إيجاز أو حذف أو إثبات أو تصريح أو إشارة وأما إجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو على أساليب الشعر فمذموم ، وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم، وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال ، فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمده في البلاغة ، وانفساح خطوه فيه ويجبرونه بذلك القدر من التزين بالأسجاع والألقاب البديعية ، ويغفلون عما سوى ذلك !

وأكثر من أخذ بهذا الفن وبالغ فيه في سائر أنحاء الكلام كتاب المشرق وشعراؤه لهـــذا العهـــد ، حتى إنهم ليخلون بالإعراب في الكلمات والتصريف إذا دخلت لهم في تجنيس أو مطابقة لا يجتمعان معها ، فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ويدعون الإعراب ويفسدون بنية الكلمة عســاها تصادف التجنيس » .

والكاتب الذي يحمل هذه الحملة على البديع ! يفرق فرقاً واضحاً بين البديع المتكلف المستكره ، والبديع الفطري المطبوع فيرى في الأول ركاكة وإسفافاً وفي الثاني جمالاً وإبداعاً وإنه ليفصح عن ذلك حين يقول — ببعض التصرف

« ويتبع تراكيب الكلام في هذه السجية ضروب من التزين والتحسين فيحصل للكلام لذة ، وجمال زائد على الإفادة وهذه الصفة موجودة في

الكلام المعجز ، وفي كلام الجاهلين بعد كمال الإفادة لكن عفواً وبغير تعمد ، وفي كلام الإسلاميين عفواً وقصدا ، والمنثور في الجاهلية والإسلام كان مرسلا معتبر الموازنة بين جملة وتراكيبه حتى نبغ إبراهيم بن هلال الصابي فتعاطى الصنعة والتقفية ، ثم انتشرت الصناعة بعده والكلام المصنوع بالمعاناة والتكلف قاصر عن المطبوع لقلة الاكتراث بأصل البلاغة والحكم في ذلك الذوق » .

لقد كان ابن خلدون نابغة عصره دون نزاع ثم قدر له أن يقود النهضة الأدبية في عصرنا الحديث ليصبح في رحاب التاريخ الأدبي نابغة العصور ! ! طيب الله ثراه .

* * * * * * * * * * * *

رثاء المدن بين الأندلس والمشارقة

حين كتب تاريخ الأدب العربي في أوائل هذا القرن على نهج الاستشراق اضطر رجاله إلى الإلمام بأحكام عامة حالفها الصواب في أكثرها ، وبقي بعضها مجالاً للبحث والدراسة ، وكان نصيب الأدب الأندلسي من هذه الأحكام الصائبة موفوراً بلا شك ، ولكن اضطرار باحثيه إلى إثبات فروق كثيرة بينه وبين الأدب العربي بعامة أوقعهم في بعض الخطأ الظاهر كقولهم إن رثاء المدن فن أندلسي أوحت به مآسي الحوادث هناك ، وقد رسخ هذا القول رسوخاً مكيناً حتى وجدنا أطروحة جامعية حديثة تتحدث عن نكبة فلسطين وما قيل فيها من الشعر ، فترجع بالأثر إلى أشعار النكبة في الأندلس ! وهو غلو في الاستنتاج لا نرى داعياً إلى التمسك به ، وحتى رأينا نفراً من أعلام الكتاب كأستاذنا الدكتور أحمد أمين يعلن خلو الأدب المشرقي من مراثي المدن ويعلل ذلك بما يعن له ، ونحن نعرض رأي هؤلاء ممثلا في قول صاحب ظهر الإسلام (١) .

« لقد رأينا مدنا في الشرق تتساقط تساقط أوراق الشجر تستوجبُ الرثاء والبكاء كما سقطت بغداد في أيدي التتار ، وأزَالُوا كلّ ما فيها من مظاهر المدنية والحضارة ، وفعل التتار بها ما لايقل عما يفعله الأسبانيون في الأندلس ، وغزا هولاكو وتيمور لنك ونحوهما بلاد الشام ، وأسقطوها بلداً بلداً ، فما رأينا عاطفة قوية ، ولا رثاء صارخاً ، ولا أدباً رقيقاً ، ولا تاريخاً مسجلا ! كالذي رأيناه في الأندلس فإن قلنا إن هذه الناحية في التاريخ الأندلسي أقوى وأشد لم نبعد عن الصواب » .

(١) ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٨٧ .

وعبارة أستاذنا الكبير رحمه الله على شيء من التناقض أولا وأخيراً ، إذ أن قوله فإن قلنا إن هذه الناحية في التاريخ الأندلسي أقوى وأشد لم نبْعد عن الصواب قد يبدو متعارضاً مع قوله فما رأينا رثاء صارخاً ولا أدباً رقيقاً ولا تاريخاً مسجلا ! ! لأن القول الأخير يعترف بوجود هذا اللون على نحو أقل من لون الأندلس والقول الأول يكاد يحكم بعدمه ! ! مع أن المتصفح لكتب الأدب والتاريخ يرى رثاء المدن ذائعاً في كل محنة تجد ، ولم يتعرض أمثال الطبري وابن الأثير والمسعودي لمحنة ما إلا رَووا عنها في كتب التاريخ، فضلا عن كتب الأدب الخالص ، نماذج رائعة فيها الرثاء الصارخ والأدب الرقيق ، والتاريخ المسجل كما كان يريد أستاذنا الدكتور أحمد أمين وسبيلنا الآن أن نفصح عن ذلك موجزين !

لم يكن للشاعر الجاهلي قبل الإسلام مدن يبكي عليها ، فهو ينتقل في الصحراء الواسعة من مكان إلى مكان طلباً للمرعى وسعياً وراء العيش ، وإذا أَلمّ بمدن المناذرة بالحيرة والغساسنة بالشام فهو إلمامالمسافر المتكسب الذي لا يشغله ما يراه في الحضر عما خلف في البادية من نوق وخيام وأصحاب ، وشعراء الحضر في الإقليمين ، مناذرة وغساسنة لم يجدوا من الحوادث الهائلة ما يدعوهم إلى رثاء المدن إذ ظلت سليمة آهلة تحظى بسيطرة الملك وأبهة السلطان ولكن شعراء البادية في تنقلهم المتتابع بالصحراء ، كانوا يألفون مرابعهم ، ويبكون على فراقها إذا اضطرهم المسير إلى انتجاع موضع عشيب ، والشاعر الذي يبكي الربع الدارس والطلل الماحل ، ماذا كان ينتظر منه لو عاش في مدينة آهلة ثم نكبت في كارثة فادحة ! لا بد أنه كان يرسل المعلقات الرنانة في توضيح عاطفته النائمة وشجنه الملتاع ! على أن ما لدينا من أدب الأطلال في الجاهلية وصدر الإسلام أدب عاطفي صادق اللهجة ، صريح الدلالة على هيام العربي بأرضه وتعشقه الصحراء وحنينه إلى منازل أحبابه ! وما شوه هذا الأدب الجميل إلا تكلفه الزائف عند شعراء بني العباسممن أغرموا بمحاكاة أسلافهم لا عن حنين للربع أو هيام بالطلل بل كي ينْهجو المنهج الجاهلي في القصيد ، وزاد ما قاله هؤلاء

المحدثون عن حدّه حتى استُثقل ومجّ ، وعادت كراهيته عفواً إلى ذلك الأدب الأصيل مما قيل في الجاهلية وصدر الإسلام عند بعض المتسرعين ، أما الذين يعرفون منازع الشعر ويقيمون أحكامهم على إصالة العاطفة وصدق الإحساس فيضعون أدب الأطلال في عصورها الأولى موضعه الأثير ، ويرون فيما قاله امرؤ القيس بدارة جلجل وزهير بدمنة أم أوفى وعنترة بدار عبلة في الجواء أدَباً حيّ العاطفة صادق التعبير ، وإذا جمعت الأطلال بعضها إلى بعض فهي مدينة زائلة بكاها الشاعر الجاهلي فصدق البكاء ! ؟

وقد تطور أدب الأطلال فيما بعد إلى أدب الآثار ، فأصبح الشعراء يجدون في قصور التاريخ وأواوينه وأهرامه ومسلاته منادح واسعة للقول ، وإن كان الشاعر في وصف الآثار واستجلاء عظمتها الغابرة يتحدث عن عاطفة عامة مشتركة يجد صداها لدى كل مواطن مثله . أما شاعر الأطلال فيصدر عن عاطفة ذاتية ينفرد بها في الأعم الأغلب ، وإذا شاركه فيها إنسان آخر فإن الشاعر لا يكترث به بل كل همه أن يفرج عن صدره هَمّاً يرين عليه بما ينظم من أبيات ، ولحيويّة هذا الأدب وصدقه أصبح ذا متعة وأنس لقارئه المتذوق ، وإن لم يكن من ساكني البادية وعاشقي الأطلال والربوع !

كانت بغداد أول مدينة تعرضت للتدمير والحريق في صدر الدولة العباسية حين استعر الخلاف بين المأمون والأمين وهجمت الخراسانية بمجانيقها ورماحها وخيولها، واشتطت اشتطاطاً ظالماً في نسف بغداد وترويعها ، وقد زاد الطين بلة أن اهتبل الفرصة فريق من الأوشاب والرعاع فتسوروا القصور والمتاجر واقتحموا الدور ، ونهبوا الأموال وهتكوا الأعراض وكانت محنة مروعة لم يكن أحد ليتصورها في عهد بني العباس ، وهم الذين قد جعلوا بغداد حاضرة العالم بأسره ، وعاصمة الإسلام في أقاصي أقطاره وكانت منذ سنوات قليلة تنعم بأبهة الرشيد وعظمته ، ويعدّ القاصون أرحلهم لينعموا بمشاهدتها وقد قطعوا الشهور ذوات العدد ضرباً في الطريق وتجوالا في الأنحاء مستسهلين الصعاب ، ليتحقق حلمهم البعيد رؤية بغداد ، فلما

حلت النكبة الفادحة وقف الشعراء الرسميون من مادحي الخلفاء والوزراء ينظرون على من تدور الدائرة ليشمتوا به ثم ليتجهوا إلى غريمه الظافر يهنئونه بالنصر ، ويختلقون له روائع البطولة والنجدة وبعد النظر ، ويجعلونه معجزة الإنقاذ ، وموئل الرجاء ، ولكن شاعراً خاملا بذكره ، نابهاً بجودته ، لم يكنْ يؤثر الرؤساء بأمداحه بل كان يجعلُ شعره مسلاة نفسه ، ومتنفس شجونة قد هاله أن تصبح بغداد العظيمة موضع الحسرة والفجيعة وتعاظمه أن يجد السفلة من الأوشاب يرأسون المظاهرات لاقتحام الدور واغتصاب الأموال ، وسلب العفاف ، فأرسل زفراته الحارة كاوية لاهبة في قصيدة مؤثرة باكية تجاوزتِ المائه من الأبيات ، هذه القصيدة الرائعة لم تحفلْ بها كتبُ الأدب ، فتشيد باتجاهها الواقعي ، وتعبيرها المؤسي، واتساع منافذ الشعور وإبعاد الخيال ومطارح التصوير لدى قائلها ، وهو بعدُ لا يشعرك أنه ناظم يتعمد الوصف ويحْفل بالجزالة ويمهّد لضروب الاستعارة والتشبيه ، ولكنك تقف منه أمام نهرٍ مطرد المسير دافق التيار ، وحسبُه أن ينقل عن نفسه ما يجيش بها من هدير ! هذا الشاعر الذي حفظ كتاب الطبري وحدهُ قصيدته هو أبو يعقوب إسحاق الخزيمي الذي لا تكاد تروى كتب الأدب شيئاً عن تاريخه وشعره وإنما هي سطور متفرقة تقال في كل شاعر ! على أن مرثيتَه لبغداد كانت أبلغ تعريف به ، وقد تعرّض بدءاً إلى عزها السالف ومجدها الغابر فرسمه في صورة سهلة لا تكلف بها ، وإنما هي حديثٌ شعريّ يحمل رصيده النفسي من الإيحاء والتلوين إذ يقول :

إذْ هِيَ مثلُ العروس بادئها ... مهوّل للفتى وحاضرها
جنة دنيا ودار مغبطة ... قلّ من النائبات واترها
درّت خلوف الدنيا لساكنها ... وقلّ معسورها وعاسرها
وانفرجتْ بالنعيم وانتجعت ... فيها بلذاتها حواضرها
فالقومُ منها في روضة أنف ... أشرق غبّ القطار زاهرها
من غرةِ العيش في بلهنيةٍ ... لو أن دنيا يدوم عامرها

دار ملوك رستْ قواعدهـــــا ... فيهـا وقرت بهـــا منابرهــا

أفراحُ نُعمى في إرث مملكـــــة ... شـد عراها لهـا أكابرهـــا

فلم يزل والزمان ذو غـــــير ... يقدح في ملكها أصاغرهـــا

وافترقت بعـد ألفه شـــــيعا ... مقطوعة بينهـــا أواصـــرها

أورد أملاكنا نفوســـــــهم ... هوّة غي أعيت مصـــــادرها

ما ضرها لو وفتْ بموثقهـــــا ... واستحكمت في التقى بصـــائرها

وأقنعتها الدنيـــــا التي جمعت ... لهـــا ، ورغب النفوس ضائرهــا

أرأيت هذا الحديث السهل المؤثر ، لا يعمد إلى قعقعة صاخبة ، تصلك سمعك ، ولا ينادي صاحبه على نفسه بالرصانة المفتعلة ، ليذهب له ذكرٌ في جودة الحوك وزركشة الوشي ! وإنمـا هي نظرة المتأمل ، وعبرة الذاكر حتى إذا ادكر الأمس بمباهجه انتقل إلى الحاضر بدواهيه فقال :

يا بؤس بغـداد دار مملكـــــة ... دارت على أهلها دوائرهـــــا

أمهلها الله ثم عاقبهـــــــــا ... حين أحاطت بهـــــا كبائرها

بالخسف والقذف والحـريق وبا ... لحـرب التي أصبحت تساورها

كم قد رأينا من المعــاصي بهـــا ... كالعــاهر السوء نام عاهرهـــا

حلّت ببغـــداد وهي آمنـــــة ... داهيـــــةٌ لم تكن تحـــاذرهــا

طالعهـــا السوءُ من مطالعـــــه ... وأدركتْ أهلهـــا جرائرهـــا

دقّ بهـــــا الدين واستخف بذي ... الفضل وعزّ النســاء فاجرهـــا

وخطم العبـــد أنف ســـيده ... بالرغم واستعبدت مخادرهـــا

وصار ربُّ الجيران فاســـقهم ... وابتز أمر الدروب ذاعرهـــا

مَنْ ير بغـــداد والجنود بهـــا ... قد ربقت حولهـــا عساكرهـــا

كل طحـــون شـــهباء باســـلة ... تسقط أحبالهـــا زماجرهـــا

يلقى بغي الردى أوانســــــها ... يرهقهـــا للقـــاء طاهرهـــا

والشيخ يعدُو حزما كتائبه ... يقدم أعجازه يعاورها

هذا كله بعد الأنس السابغ ! والنعيم الضافي والعز المقيم !

يا هل رأيت الجنان زاهرة ... يروق عين البصير زاهرها
وهل رأيت القصور شارعة ... تكنّ مثل الدمي مقاصرها
أين الظباء الأبكار في روضة ... الملك تهادي بها غرائرها
أين غضاراتُها ولذتها ... وأين محبورُها وحابرها
بالمسك والعنبر اليماني والأطيا ... ب مشبوبة مجامرها
يرفلن في الخز والمجاسد والمو ... شي مخطومة مزامرها
فأين رقّاصها وزامرها ... يجبن حيث انتهت حناجرها
تكاد أسماعهم تسل إذا ... عارض عيدانها مزامرها

هؤلاء الأوانس النواعم ذوات النوافح ، العبقة من المسك والعنبر يرفلن في الخز والمجاسد ، قد صِرن وسط الأزقة صارخات باكيات يسألن أين الطريق ؟ ولم يكدنَ يبرزن وجوههن للشمس إذ يمرحن في الأبهاء والمقاصير حتى اختطفتهن حرب زبون لا رحمة لديها ولا عطف فهن كما قال الشاهر :

معصوصبات وسط الأزقة قد ... أبرزها للعيون ساترها
كلّ رقود الضحى مخبأة ... لم تبدُ في أهلها محاجرها
بيضةُ خدرٍ مكنونة برزت ... للناس منشورة غدائرها
تعثّر في ثوبها وتعجلها ... كبة خيل زيغت حوافرها
تسأل أين الطريق والهة ... والنار من خلفها تبادرها
لم تجتل الشمس حسن بهجتها ... حتى اجتلتها حرب تباشرها
يا هل رأيت الثكلي مولولة ... في الطرق تسعى والجهد باهرها
في إثر نعْشٍ عليه واحدها ... في صدره طعنة يساورها
خرقاء تلقي النثار من يدها ... يهزها بالسنان شاجرها

تنظر في وجهه وتهتف بالثكل وعز الدموع خامرها
غرغر بالنفس ثم أسلمها مطلولة لا يخاف ثائرها !

هذا شعر صادق مؤثر ! وتصوير حي باهر لكل عذراء رقود الضحى منعّمة لا يعرف أهلها صورتها لشدة تصوّنها ثم هي تُذال في الطريق منشورة الغدائر تعثر في ثوبها ولا تقيم الخطو إذ تعجلها كبة خيْل تختطف الأوانس من هنا وهناك ، تسأل أين الطريق ؟ والنار من خلف وأمام! أما الثكلى ذات الولد فتولول إثر النعش تنظر إلى غريمها القاتل صارخة في وجهه ! ولصدرها شجون لا يبلغها التعبير ، ومن قبل هذه العذراء البكر ومن بعد هذه الثكلى تتراءى صور للأسى رسمتها القصيدة فكانت أبلغ مرثية قيلت في بغداد ! ولا نحب أن نطيل الوقوف لديها كما تستأهل دراسة وتحليلا فلها أخوات أُخر من بنات الشعر ينتظرن !

أما رثاء البصرة لابن الرومي فمن أروع آثار هذا الشاعر الفذّ ، فقد راعه أن تصبح البصرة بين عشية وضحاها مرعىً مباحاً لهمل الزنج ، وطغام السوقة ، إذ أشعلوا الحرائق بها من ثلاث جهات ، فكانت النيران تتقابل كي تحصدها أتت عليه من قصور وأرواح وأموال ثم أشاعوا الآمان وطلبوا ممن بقي على الحياة أن يلجأ إلى المسجد الجامع كي يأمن على نفسه فصدق الناس ، لعظيم الهلع ما يسمعون ، وهرولوا إلى بيت الله لائذين ، فحاصرهم السوقة من الزنج وأعملوا سيوفهم في الرقاب دون رحمة حتى لم يبق أحد ممن اعتصم ببيت الله ! ! وصارت البصرة أنقاضاً سُلط عليها البثق والحريق فما ترى غير وجوهٍ قد رملتها الدماء وُطئت بالهوان والذل ، وأذرعٍ منثورة في الطريق لا تجد راحماً يجمعها ليدفنها في مكان حتى حقّ لابن الرومي أن يقول :

بينما أهلها بأحسن حال إذ رماهم عبيدهم باصطلام
دخلوها كأنهم قطع الليل إذا راح مدلهم الظلام

كم أغصّوا من شارب بشـــراب كم أغصُّوا من طــاعم بطعــام
كم ضنين بنفســـــه رام منجــىً فتلقواْ جبينـــه بالحســــــــام
كم أخ قد رَأى أخاه صـــــريعاً ترب الخدّ بين صرعى كـــرام
كم مفدّى في أهله أسلمــــــوه حين لم يحمه هنـــالك حـــامي
كم رضيع هنـــاك قد فطمـــوه بشبا السيف قبـــل حد الفطـــام
كم فتاةٍ بخـــاتم الله بكــــــــر فضحــوهــا جهراً بغير اكتتام
صبّحوهم فكابد القــوم منهـــم طول يوم كأنه ألف عـــــام
من رآهنّ في المســــاق سبايا بعـــد ملك الإماء ، والخـــدام

هذه المعاني تتكرر دائماً في مراثي المدن ، دون أن يقلّد فيها شاعر سواه لأن الواقع المفجع نفسه قد تكررفتكرر معه خيال الشاعر وتصويره ، وقد ذهب بعض النقاد إلى موازنة بين قصيدتين أندلسيتين تضمانأمثال هذه المعاني فحكم للسابقٍ بالابتكار وللاحقٍ بالتقليد ! وهذا لعمري خطأ واضح لأن التفات الشاعر إلى روعة الأشياء المذهلة لا يجعل تشابهها مدعاة لإغفالها ، وما زلنا نقرأ أمثال ذلك حين تحين مناسباته ، ولكل شاعر طريقته الخاصة التي يصور بها مشاعره ! ولا تظن أن رثاء المدن وحده هو الذي يضم هذه المشاهد ، فالبحتري مثلا يرثي المتوكل على الله فيتلهف على قصر الجعفري وأُنسه ، على نحو قريب مما نرى هنا ، ويتحدث عنه إذ ريع سربه ، وإذ ذُعرت أطلاؤه وجآذره ، وإذ صِيح فيه بالرحيل فهتكت أستاره وستائره ، وما زالت أمثال هذه المشاهد تثير المشاعر وتذكي الجوانح، فتداولها الشعراء كلٌّ ينسج على منواله ما استطاب من لدن الخريمي وابن الرومي وشعراء النكبة في الأندلس إلى حافظ إبراهيم في زلزال مسينا وحريق ميت غمر ، ثم إلى ما تلا ذلك من حديث فلسطين ! فالقول هنا بتأثر اللاحق بعيدٌ عن مطارح الصواب ! على أن الجدة حقاً لدى الشاعر العبقري تظهر في ألوانه وصوره من ناحية وفي وثبات خياله من ناحية ثانية ، فابن الرومي يطفر بخياله طفرات موفقة حين يتصور يوم الموقف الأعظم أمام المنتقم الجبار وقد

هرع الناس إلى المحشر الرهيب بين يدي رب العالمين فسألهمعز وجل عن مأساة البصرة ونادي مُعاصريها من المسلمين متسائلا ؟ أما غضبتم لوجهي ؟ أخذلتم إخوانكم وقعدتُم قعود اللئام ! لِمَ لَمْ تغاروا لغيرتي فتركتم الحرمات لمنْ أحل الحرام ؟ ثم يتصور بعد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقَد صاح بالناس أين كنتم حين صرختْ كرائم الدور وامحمداه ! لِم لَمْ تُجيبوهن وقد استنجدن برسول الله وهو دفينٌ تحت التراب ! هذا نمط من التخيل العبقري لا يقدر عليه شاعر من طراز ابن الرومي حين يقول :

أيّ خطب وأي رزءٍ جليل ... نَالَنَا في أولئك الأعلام
كم خذلنا مِن ناسك ذى اجتهاد ... وفقيهٍ في دينه علام
وَاندامى على التخلفِ عنهم ... وقليلُ عنهم غناء ندامى
وإحيائي منهم إذا ما التقينا ... وهمُ عند حاكم الحكام
أيّ عذر لنا وأيّ جواب ... حين نُدعى على رؤوس الأنام
يا عبادي أما غضبتُم لوجهي ... ذِي الجلال العظيم والإكرام
أخذلتمْ إخوانكم وقعدتُم ... عنهُمُ ويحكم قعود اللئام
كيف لم تعطفوا على أخواتِ ... في حبال العبيد من آل حام
لم تغارُوا لغيرتي فتركتم ... حُرماتي لمن أحل حرامي
إنّ من لم يغر على حرماتي ... غير كفءٍ لقاصرات الخيام
كيف ترضى الحوراء بالمرءِ بعلا ... وهو من دون حرمة لا يحامي
واحيائي من النبي إذا ما ... لامَني فيهم أشد الملام
وانقطاعي إذا همُ خاصموني ... وتولى النبي عنهم خصامي
مثّلوا قَوله لكم أيها النا ... س إذا لامكم مع اللوام
أُمتي أين كنتُم إذ دعتكم ... حرة من كرائم الأقوام
صرختْ يا محمداه فهلّا ... قام فيها رعاة حقي مقامي

لم أجبهـا إذ كنت فيتـافلولا كان حيٌّ أجابها عن عظـامي

بأبي تلكمـو العظـام عظاماً وسقتها السماء صوب الغمـام

وعليهـا من المليك صـلاة وسـلام مؤكد بسـلام

وقد عجبتُ لقول أستاذنا الدكتور أحمد أمين : « لقد سقطتْ بغداد في أيدي التتار وأزالوا كل ما فيها من مظاهر المدنية والحضارة وفعلوا بها ما لا يقل عما فعله الإسبانيون في الأندلس وغزا هولاكو وتيمورلنك ونحوهما بلاد الشام وأسقطوها بلداً بلداً فما رأينا رثاء صارخاً ولا أدباً رقيقاً » . إذ أن الواقع أن بغداد رثيت برثاء كثير في هذه المحنة كما رثيت جميع المدن التي أسقطها هولاكو وتيمور لنك ! ولكن هذه المراثي لم تبلغ من الروعة مبلغ مراثي الخزيمي وابن الرومي وأمثالهما لانحدار الشعر العربي بعامة في عصور الغزو التتري ، فلم يكن للعربية إذ ذاك من فحول الشعراء من يطيلون الملاحم في التفجع والحسرة كما لم يكن لها إذ ذاك أيضاً من يجيد الأغراض الأخرى من غزل ووصف وأمداح ! ! إنما كان لدينا شعراء فَهِمُوا مدلول الشعر على غير وجهه وقد أفسدتْهم سيطرة النقد القائم على تفضيل التلاعب اللفظي والمحسن البديعي ، ومع هذا كله فقد قام من يقولون الشعر بواجبهم نحو هذه المدن الجريحة فعبروا عن الشعور الإسلامي كما يستطيعون ، والأستاذ أحمد أمين أحد الذين اشتركوا في تأليف « المنتخب المدرسي » فلا بد أن يكون قد قرأه وأقره ، فكيف يغفل عما به من رثاء بغداد — — وهو مثل من أمثال — للشاعر شمس الدين الكوفي ومن أبياته :

إن لم تقرّح أدمعي أجفـاني من بعد بعدكم فمـا أجفـاني

إنسـان عيني مذ تناءتْ داركـم ما راقه نظر إلى إنسـان

مالي وللأيام شتّت خطبهـا شملي وخـلاني بلا خـلان

ما للمنازل أصبحتْ لا أهلهـا أهلي ولا جـيرانها جـيراني

وحياتِكم ما حلهـا من بعدكم غـير البلى والهـدم والنـيران

أين الذين عهدتهم ولعزهـم ذُلاً تخـر معـاقد التيجـان

كانوا نجـــوم مَن اهتدى فعليهم يبكي الهـــدى وشعائر الإيمان
أفنتْهُم غــير الحوادث مثلمـــا أفنتْ قديمـــاً صاحب الإيوان
ما زلت أبكيهم وألثم وحشـــة لجمالهـــم متهدم الأركـــان
حتى رثى لي كل من ما وجـــده وجـــدي ولا أشـــجانه أشجاني

هذا نمط مما قيـــل وقد شغل فيه الشاعر عن تسجيل دوافق اللوعة بمراعاة الجناس بين أجفاني وما أجفاني وبين إنسان العين والإنسان وحول الطباق بين الموت والحياة والعز والذل ! وهذه محنة الأدب بعامة في عصور الانحطاط .

أما الشاعر الفارسي العملاق سعدي الشيرازي فقد تأوه للمحنة ، ونظم فيها باللسان الفارسي شعراً يذيب الجماد ، كما نظم فيها بالعربية شعراً يرتفع كثيراً عما قاله معاصروه من شعراء العرب ! ومن الطريف أن الجزء الرابع من كتاب المطالعة العربية وقد كتب عليه أن الأستاذ أحمد أمين من مراجعيه قد نشر جزءاً من مرثية الشيرازي لبغداد ، وهي وإن كانت أقل من شعره الفارسي جودة وإتقاناً إلا أنها ممتازة بين زميلاتها من العربيات المعاصرات !

أما رثاء دمشق حين سقطت في أيدي التتار فمما نتمثل به هنا قول الشاعر علاء الدين العزولي :

أجريتُ جمـــر الدمع من أجفـــاني حزناً على الشقراء والميـــدان
لهفي على وادي دمشق ولطفـــه وتبدل الغزلان بالثـــيران
واحسرتاه على دمشق وقولهـــا سبحان من بالغل قد أبـــلاني
لهفي عليك محاسناً لهفي عـــليك عرائساً لهفي عليك مغـــاني
ما كان أهنـــأ العيش في ساحاتهـــا والدار داري والزمان زمـــاني

ولا أظن القاريء في حاجة إلى الإكثار من هذا الوصف التقليدي وإنما سطر بعضه على سبيل المثال .

على أن المشـاهد أن رثاء المدن في أدب المشارقة لم يقتصر على الشعر فقط بل تعداه إلى النثر ، فلم تُرثَ مدينة سامراء بأبلغ ما قاله ابن المعتز في محنتها نثراً ، وحين هجم الصليبيون على مدينة سروج بلدة أبي زيد صاحب الحريري أبدع في رثائها بمقامة من عيون مقاماته ، وقد ألهته الفاجعة الأليمة فاسترسل نسبياً وترك غرائب السجع والازدواج ، وعجائب التلاعب بالألفاظ وانصرف إلى البكاء على المدينة من قلبه ! ولو أردنا أن نتحدث هنا عن المدن في شعر الحروب الصليبية لطال القول، ولكنّ مما يصرفنا عن ذلك أن المدن في شعر الحروب الصليبية لا تكاد تستقل بالموضوع بل تأتي تبعاً في أمداح عماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وسائر أبطال الحروب الصليبية وفيها دلالة واضحة على تحسّر الشعراء على سقوط بلادهم في يد الصليبيين وحثهم على استردادها وقد صدق الله وعده فخرج الغزاة مدحورين .

* * * * * * * * * * * *

ننتقل إلى مراثي المدن بالأندلس بعد أن عرفنا أن القول باختصاص الأندلس بهذا الغرض الشعريّ لا ينهض على أساس قويم ، وإن من الإنصاف أن نذكر أن الأندلس قد برعت في هذا اللون براعةً مشهودة ، فقد وجدت في مآسيها الدامية ما أذكى عواطف الحسرة واللّهف فاندلعت زفراتها الشعرية تتحدث عن المساجد المتهدمة والكنائس المشيدة، والآذان الصامت والناقوس المجلجل ! والحق أن الشعور الديني المؤجج بالحسرة والندم قد جعل لقصائد الأندلس حرارة متّقدة لا تزال تلفح قارئها على مرّ العصور ، وقد كان سقوط طليطلة في أواخر القرن الخامس الهجري بدء المأساة فهي أول بلد إسلامي يسلّم إلى الفرنجة دون أن يتنبه ملوك الطوائف لما يوشك أن يعصف بهم مِنْ بركان ، إذ نسيَ المعتمد أنه على حافة البركان فعَاهد ملك الفرنجة على ألاّ يقف بجنده أمامه عند التهام الغنيمة، ولو جمع ملوك الطوائف أمرهم إزاء هذه النكبة ما استشرى لهيب الفرنجة على نحو ينذر بالفناء ،

إذ أن طليطلة لم تجد من جيرانها المسلمين من يشدّ أزرها غير الملك الشهم صاحب بطليوس ابن الأفطس إذ دافع عنها ما استطاع ولكن قوة الفرنجة كانت بحيث لا يثبت أمامها غير التعاون المحتشد المترامي ، وقد احتفظ لنا المقرّي بقصيدة باكية تبكي طليطلة وتسجّل المحنة القاصمة تسجيلا يستدر الدموع وهي لشاعر مجهول طالت به الحسرة فنظم أكثر من سبعين بيتاً في رثاء الدولة الذاهبة مستنجداً مستغيثاً ، ومن أبياتها :

لثكلك كيف تبتسم الثغور ؟ — سروراً بعد ما يئست ثغور !
طليطله أباح الكفر منها — حماها إنّ ذا نبأٌ كبير
أنأمنُ أن يحلّ بنا انتقام — وفينا الفسق أجمع والفجور
كفى حزناً بأنّ الناس قالوا — إلى أين التحول والمسير
أنترك دورنا ونفرّ عنها — وليس لنا وراء البحر دُورُ ؟
لقد ذهب اليقين فلا يقين — وغرّ القوم بالله الغرور
رضوا بالرّق يا لله ماذا — رآه وما أشار به مشير

هذه هي العواطف الصادقة التي تجعل لمراثي المدن لوعة لا تخمد ! إذ أن الواقع المرير في نفس الشاعر ينطقه بالحقيقة المفجعة بعيدة عن تهاويل البيان وزخارف القول فتأتي حيّة نابضة وأي بيت بلاغيّ يحفل بالصور الفنيّة المصطلح عليها لدى المتفاصحين يبلغ من التأثير مبلغ هذا القول الطبيعيّ :

أنتركُ دُورنا ونفرّ عنها — وليس لنا وراء البحر دور ! ؟

ولو رجع شعراء المدن الغاربة إلى عواطفهم الملتاعة لأبدعوا وأجادوا ، ولكننا نجد كثيراً منهم يلجئون إلى أذهانهم الواعية وذاكرتهم الحافظة فينظمون أكثر ممّا يشعرون ، فلديك مثلا قصيدة ابن عبدون في رثاء بني الأفطس :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر — فما البكاء على الأشباح والصّور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة — عن نومة بين ناب الليث والظفر
فلا تغرنّك من دنياك نومتها — فما صناعة عينيها سوى السهر

هذه القصيدة قد جعلها ناظمها معرضاً لذكر أحداث المصائب في التاريخ العربي جاهلية وإسلامه فذكر كيف نكّل الدهر بالجبابرة من الملوك وتحدّث عن جُرهم وطسم ، وعادوا ، عن دارا وأبرويزوويزدجرد ، ورستم ، وبني ساسان وعن السبأيين في اليمن ، ثم عن كليب وعبس وذبيان وعن عثمان ، والحسين ومصعب ، في صدر الإسلام وخاض في وقائع عباسية مشتهرة فألمع إلى السفاح والمنصور والبرامكة والأمير حتى انتهى لبني المظفر وكل ذلك يدل على قراءة الشاعر وثقافته ، ولكنه هنا شاعر لا مؤرخ وأولى به أن يصدر عن نفسه! وهي سبيل مطروقة سنها أبو تمام في قصائده، فجعل الشعراء يقتفونه إذ ينظمون شذرات مبتسرة من حوادث التاريخ هنا وهناك، وقد يقول قائل إن قصيدة ابن عبدون في بني الأفطس قد احتفل بها الأدباء وبالغ أكثرهم في تقديرها حتى أفردها ابن بدوون المتوفي سنة ٦١٠ بشرح مسهب ، وهذا كله لا يزيد من قيمتها الفنيّة ، لأن مشيخة الأدب لعهده كانوا يحتفلون بالآثار التاريخية نظماً ونثراً لا لقيمتها الفنية ولكن لأنها تفسح مجال الشرح والتفسير فينطلق المؤلف الشارح وراء الأبيات ليذكر ما تشير إليه من الحوادث التاريخية بإسهاب ولديك رسالتا ابن زيدون الجدية والهذلية فقد أفردت لهما الشروح الكثيرة نظراً لما تضمنتاه من الإلماع إلى حوادث التاريخ ! ولو خلتا من ذلك ما احتفل بهما الشارحون من العلماء ! وهذا كله إن عدّ لابن عبدون وابن زيدون وأضرابهما كالأعمى التطيلي ولسان الدين في مجال الثقافة والاطلاع فإن مجال الفن وحده مما يضيق أحياناً عن إطراء هذا اللون وموازنته بالشعر الفني ذي الهواتف الذاتية ، والشعور الفريد ، على أن مجال القول في بني الأفطس كان متسعاً لا يجيز لابن عبدون أن يفر منه إلى حوادث التاريخ ، فبنو الأفطس أبطال مخلصون وقد غدر بهم يوسف بن تاشفين ليبتلع الأندلس التهاماً ! ولو كان صادق الرغبة لله وللإسلام في مجيئه للأندلس لتعقّب فلول النصارى بعد موقعة الزلاقة كما أشار عليه ابن عباد فيستأصل شأفتهم في نشوة النصر وزهو الفرحة لدى المسلمين ، وفي زعازع الوجل وعواصف الفزع لدى القشتاليين !

ولكنّه أحجم عن هذا الغرض المحتوم ليمدّ لنفسه أسباب البقاء بالأندلس، ويرى من المبررات المختلفة ما يُساعده على استئصال ملوك الطوائف بغياً وعدواناً! وقد بلغ مراده فيهم فلم يكتف بحرمانهم وطردهم، بل قتل الملوك دون جريرة كبني الأفطس وسواهم، ومن عفا عنهم كالمعتمد قيّده بالأغلال في السجن وعرّض أولاده وزوجاته لغزل النسيج، وجمع الفتات ليجد الأسرى ما يمسك الرمق من الزاد! وها هو ذا قد استولى على الأندلس المسلمة فلم تَتوجه همته إلى مناوءة المتربصين بها من الأعداء حتى جاءه الموت وخلفه ابنه عليّ ثم عصفت الأيام بدولته سريعاً على يد الموحدين! وقويت شوكة النصارى فأخذوا يسقطون المدن الإسلامية مدينةً وراء اخرى، وفزع المسلمون بأسبانيا فأرسلوا رسلهم إلى العدوة مستغيثين! وقد حفظ التاريخ الأدبي بعض ما قيل في ذلك من أمثال قول ابن الأبار القضاعي البلنسي مستنصراً بسلطان تونس:

أدركْ بخيلك خيل الله أندلساً	إن السبيل إلى منجاتها درسا
ياللجزيرة أضحى أهلُها جزراً	للحادثات وأمسى جدها تعساً
في كل شارقةٍ إلمامُ بائقة	يعود مأتمها عند العدا عُرساً
مدائنٌ حلها الإشراك مبتسماً	جذلان وارتحل الإيمان مبتئساً
محَا مَحاسنها طاغ أُتيح لها	ما نام عن هضمها حينا ولا نعساً
ورجّ أرجاءها لما أحاط بها	فغادر الشّم من أعلامها خنسا
وأكثر الزعم بالتثليث منفرداً	ولو رأى راية التوحيد ما نبسا

وقول غيره بعد سقوط بلنسية:

نادتْك أندلسٌ فلبّ نداءها	واجعلْ طواغيت الصليب فداءها
ياحسرتي لعقائلٍ معقولة	سئم الهدى نحو الضلال هداءها
كيف السبيل إلى احتلال معاهد	شبّ الأعاجم دونها هيجاءها
طاب المعرّس والمقيل خلالها	وتطلعت غرر المنى أثناءها

بأبي مدارس كالطلول دوارس ... نسخت نواقيس الصليب نداءها
ومصانع كسف الضلال صباحها ... فيخاله الرائي إليه مساءها
ناحت بها الورقاء تسمع شدوها ... وغدت ترجّع نوحها وبكاءها
عجباً لأهل النار حلو جنّة ... منها تمد عليهمو أفياءها

أما المرثية التي شرّقت وغربت ، وسار بها السائرون في كل وادٍ فهي قصيدة أبي البقاء صالح بن شريف الرندي ، وهي واضحة اللفظ قريبة المعاني ، ولكن إهاجتها العواطف ، وإثارتها المشاعر جاءتْ من ضربها المرنّ على الوتر الديني ، فالمحاريب تبكي وهي جامدة والمنابر ترثي وهي عيدان ، والمساجد كنائس ذات صلبان ، والمستضعفون من المسلمين قتلى وأسرى يستغيثون فما يهتز إنسان .

تلك المصيبة أنست كل فادحة ... وما لها في طويل الدهر نسيان

وهذا النمط من القول يذكي المشاعر ، ويلهج الألسنة بالصراخ والعيون بالدمع ولذلك بقيت القصيدة حيّة يُتمثل بها في المواقف المؤسية ! وهي على بساطة معانيها أفعل بالنفس من كل توليد خارق ! بل إن المعاني المتكررة كبكاء الأم المصرع الطفل ، وانقياد الأوانس المحصنات إلى سفلة العلوج لترى بها قشيبةً ذات طرافة وجدّة ! وهذه بعض زفراتها :

أعندكم نبأ عن أهل أندلس ... فقد مضى بحديث القوم ركبان
تبكي الحنيفية البيضاءُ من أسف ... كما بكي لفراق الإلف هيمان
حيثُ المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهنّ إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة ... حتى المنابر ترثي وهي عيدان
كم يستغيث بها المستضعفون وهم ... قتلَى وأسرَى فما يهتز انسان
ألا نفوس أبيّاتٌ لها همم ... أما على الخير أنصار وأعوان
يا منْ لذلة قوم بعد عزهم ... أحالَ حالهمُ كفرٌ وطغيان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم ... عليهمُ من ثياب الذل ألوان

ولو رأيت بكاهم عند بيعهم — لهالك الأمر واستهوتك أحزان
يا رب أمٍ وطفل حيل بينهما — كما تفرّق أرواح وأبدان
وطفلةٍ مثل حسن الشمس إذ طلعت — كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودُها العلج للمكروه مكرهةً — والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوبُ القلب من كمد — إن كان في القلب إسلام وإيمان

أسمعت خطبة رائعة يقولها خطيبٌ بليغ اللفظ قوي الإشارة عن حادثة خطيرة في محفل يترقب النتائج ويستشرق الأنباء ! فهو يجمل إجمالاً يغني عن التفصيل ليترك للمشاعر والعقول نصيبها من التخيّل والتخمين ! ! ثم هو يضرب على الأوتار الحساسة ليشد الأعصاب إلى قوله والنفوس إلى افكاره هكذا كان أبو البقاء خطيباً شاعراً ، وإذا كانت موازين النقد المعاصر لا تعترف بالأسلوب الخطابي في مجالات الشعر فهي مضطرة إلى التنازل عن رأيها فيما يتعلّق بفنون الاستثارة حماسةً وبكاء ! لها أن تطبق قواعدها الفنيّة على الغزل الهامس والعتاب الشاكي والوصف المصوّر ! أمّا مجال الحفيظة القصبي والثأر المتربّص والحمية المذكاة ! فإن الخطابة الشعريّة هنا من بواعث التوفيق وأسباب التبريز ! وإذا عارض بعض الناس هذه الوجهة فليسأل نفسه لماذا خلدت قصيدة أبي البقاء وما ينحو نحوها فرددتها الأجيال . . .

وهناك في مراثي الأندلس ظاهرة هامة هي أن أكثر قائليها غير معروفين لنا الآن ، إذ كانوا نفراً ممن هزّتهم المحنة فأرسلوا عبراتهم المنظومة ورواها الأدباء عنهم لروعتها دون أن يقفوا غالباً عند قائليها . ولا شك أنهم كانوا مشهورين في أزمانهم حتى سارتْ شواردهم مسير الشمس في كل أفق ! ولكنك تتقصّى أسماءهم الآن فتجهل أكثر ممّن تعرف ، وقد مرّت بنا أبيات من قصيدة :

لثكلك كيف تبتسم الثغور — سروراً بعد ما يئست ثغور

ومن قصيدة :

نادتك أندلس فلبّ نداءها — واجعل طواغيت الصليب فداءها

وكلتاهما لا يُعلم لهـــا قائل ، أما أروع مرثية عرفناها للأندلس على الإطلاق فقد ظلّت مختفية في المخطوطات حتى كشف عنها الباحثون منذ نصف قرن فقط ، دون أن يهتدوا للآن إلى قائلها القدير ! وهي ملحمة طويلة تسجّل النكبة الأندلسية تسجيلا حاراً يلهب الجوانح ، ويثير اللواعج ، واذكر أن المؤرخ الجاد الأستاذ محمد عبد الله عنان قد درسها دراسة تاريخية في مجلة الرسالة العدد ١٣٣ (٢٠ يناير سنة ١٩٣٦) فاهتدى بمقارنة ما فيها من الحوادث ومصارع المدن إلى أنها نظمت بعد سقوط غرناطة ، وهي بعدُ آخر معقل إسلامي غربت بعده شمس الإسلام بالأندلس بل تأخرت عن هذه الكارثة حتى شاهد ناظمها محاولات الأسبان في تنصير المسلمين وصدّهم عن دينهم القويم بعد أن أعطوا العهود الخائنة باحترام العقائد وتأمين الأشخاص على الأعراض والأموال والحريات وأشار إلى نحو من ذلك في قولـــــه :

وجاءت إلى استئصال شأفة ديننـــا   جيوشٌ كموج البحر هبّت دبورها

علاماتُ أخذٍ مالنا قبلٌ بهـــــا   جناياتُ سلبٍ قد جناها مثيرهــا

فلا تمّحي إلا بمحو أصولهـــــا   ولا تنجـــلي حتى تحط أصورهــا

وقد استنبط الأستاذ عنان من ذلك أنها قيلت حوالي سنة ٩٠٥ (سنة ١٥٠٠) مع أن سقوط غرناطة كان سنة ٨٩٧ هـ سنة ١٤٩١ .

والقصيدةُ الرنّانة عواطف ثائرة ناقمة ، قد أغنتْها وقائعها المذهلة عن التلفيق والتنميق، وقد جمعت كلّ ما قيل عن المأساة قبل ذلك من هتك الحرمات وهدم المنابر والمحاريب واستسلام الأطفال واليتامى والشيوخ ، واستئصال الشباب وذوى الفناء ! ولا يستطيع مسلم – على مرور الزمن الطويل – أن يقرأها مرّة واحدة ، حتى يقف أثناءها لحظات يردّد بها زفرة أو يساقط عبرة ، أو يهدىء لواعج حزن يلذع ! فإن بها ما يشيب الولدان من فاجر التعذيب وهائل الترويع ! وقد أرهقتْ أعصابي إرهاقاً مؤسياً وأنا أحاول إعادتها لكتابةِ كلمة موجزة عنها فكنت كمن يسير على الجمر

الملتهب ، تشتعل النار في أعضائه فيتصبّر ويتماسك ثم يلمس من هول اللذع ما يسلمه إلى النحيب ! وسأنقل منها بعض الأبيات كما اتفق وهي أكثر من مائة وخمسين ! فيا لله كم تعذب ناظمها ثم خلّفها من ورائه ليعذب بها القارئين ! !

أحقاً خبا من جوّ رندة نورها — وقد كسفت بعد الشموس بدورها
وقد أظلمتْ أرجاؤها وتزلزلتْ — منازهُها ذات العلا وقصورها
تسلمها حزب الصليب وقادها — وكانت شروداً لا يقاد نفورُها
فَبادَ بها الإسلام حتى تقطعت — مناسيها واستأصل الحق زورها
لقرع النواقيس اعتلى بمنارها — كرائهُ أصواتٍ يروع صريرها
فواحسرتاه كمْ مساجد حوّلت — وكانت إلى البيت الحرام شطورها
وواأسفا كم من مآذن أُوحشت — وقد كان معتادُ الأذان يزورها
وكم من لسانٍ كان فيها مرتل — وحفلٍ بختم الذكر تمضي شهورها
وكم طفلةٍ حسناء فيها مصونة — إذا سفرتْ يسبي العقول سفورها
تميلُ كغصن البان مالت به الصّبا — وقد زانها ديباجها وحريرها
فأضحت بأيدي الكافرين رهينةً — وقد هتكت بالرغم منها ستورها
وقد لُطمت واحَرَّ قلبي خدودُها — وقد بُعثرت وادمعَ عيني شعورُها
وإن تستغثْ بالله والدين لا تُغثْ — وإن تستجر ذا رحمة لا يجيرها
وقد حيلَ ما بين الشقيق وبينها — وأسلمها آباؤها وعشيرها
وكم من عجوز يحرم الماء ظمؤها — على الذل يطوى لبثها ومسيرها
وشيخ على الإسلام شابت شيوبه — يُمزّق من بعد الوقار قتيرها
وكم فيهمُ من مهجة ذات ضجة — تودّ لو انضمت عليها قبورها
لها روعةٌ من وقعة البين دائمٌ — أساها وعينٌ لا يكف هديرها
وكم من صغير حيز من حجر أمه — فأكبادها حراء لفح هجيرها

وكم من صغير بدّل الدهر دينه ... وهل يتبع الشيطان إلا صغيرها
كرُوبٌ وأحزان يلين لها الصفا ... عواقبها محذورة وشرورها
فيا قرحة القلب الذي عاش بعدها ... ويا لَعمى عين رآها بصيرها
ويا غربة الإسلام بين خلالها ... ويا عثرةً أنّى يقال عثورها
وياليتَ أمي لم تلدني وليتني ... بُليت فلم تفلح فؤادي حرورها
ويا لعزاءِ المسلمين لفاقة ... على الرغم أغنى مَن لديها فقيرها
منازلها مصدورة وبطاحها ... مدائنها موتورةٌ وثغورها
تهائمها مفجوعة ونجودها ... وأحجارها مصدوعة وصخورها
وقد لبست ثوب الحداد ومزّقت ... ملابس حسن كان يزهو حبورها
فلو أن ذا إلفٍ من البين هالك ... لذابتْ رواسيها وغاضت بحورها
تُرى للأسى أعلامها وهي خشع ... ومنبرُها مستعبر وسريرها
ومأمومُها ساهي الحجا وإمامها ... وزائرها في مأتم ومزورها
أضعنْا حقوق الله حتى أضاعنا ... وحلت عرى الإسلام إلا يسيرها
وملتنا لم تعرف الدهر عرفها ... من النكر فانظر كيف كان نكيرها
لقد سلبُوا أوطاننا ونفوسنا ... وأموالنا فيئاً أبيحت وفورها
علوْها بلا مهر وما غمزت لهم ... قناة ولا غارت عليهم ذكورها
وقد عدت الإفرنج من كل شاهق ... علينا فوفت للصليب تدورها
وقد كثّرت ذؤوبانها وكلابها ... وقد كسرت عقبانها ونسورها
ودبّت أفاعيها إلى كل مؤمن ... وعضّ بأكبادالتقاف عقورها
أنادي لها عجم الرجال وعربها ... نداء سراة القفر إذ ضلّ عيرها
إله الورى ندعوك يا خير مرتجى ... لكالحة هز الصليب سرورها
أغثْ دعوات المستغيثين إنهم ... ببابكْ موقوفو الحشاشات بورها

هذا قلٌّ من كُثر ، ونظائره في هذه الملحمة وفي غيرها من أدب الفجيعة أكثر من أن يشـــار إليه .

لعلنا بعد هذا الاستعراض نعلم أن مراثي المدن مبثوثة في كل أدب وفي كل إقليم وفي كلّ لغة ما دامت هناك نكبات تهز الشعراء ، فالقول بأن الأندلس قد ابتكرت هذا اللون يحتاج إلى تصـــويب كالقول تماماً بأن مراثي الأندلس في القديم قد تركت تأثيرها المجلجل في مراثي فلسطين التي نطالعها الآن راجين أن يسعفها نصر من الله وفتح قريب .

قضية التأثير من الوجهة الإسبانية

تحدثنا فيما سبق عن ألوان هامة من التأثير المشهود للأدب الأندلسي في الآداب الأوروبية وقد تعمدنا أن نفصل القول تفصيلا في كل ما يوضح هذا التأثير وينبيء عنه بأقوى دليل ، وللقاريء أن يراجع كل باب على حدة ليعرف من هذه الحقائق في أماكنها المبسوطة :

١ ــ أثر الموشحات والأزجال في شعراء التروبادور .

٢ ــ كيف كانت قصص الفروسية العربية فاتحة لأدب أوربي جديد .

٣ ــ تحليل الحب وتشريحه والسمو بالمرأة إلى عالم طاهر ، نفحة عذرية هبّت من أشعار العرب وآدابهم .

٤ ــ المقامات العربية توجه القصص الأوربي وجهة واقعية اجتماعية .

٥ ــ ابن طفيل يسبق أدباء العرب إلى الحديث عن التربية والتاريخ البشري والتأمل الفلسفي ، ويجذب المفكرين إلى احتذائه .

٦ ــ الملاحم الأندلسية شعبية وعربية توحي باتجاه جديد .

هذا غير الفصول التي تشرح التأثير في أدب المشرق ، كما في حديثنا عن رسالة التوابع ومقدمة ابن خلدون عن أثر الأندلس في الثقافة العلمية بمصـــر .

أذكر أني قلت في مقدمة هذا الكتاب : « وقد كنا نعهد من يخوضون هذه المباحث يوجزون القول ، بحيث يدرجونها جميعها في باب واحد ، ولكننا وقفنا وقفات هادئة لدى كل مبحث، لنرد على من يزعمون أن

إيضاح التأثير الأندلسي في الأدب الأوربي شاق عسير ، لأن الآثار الأدبية بزعمهم تندمج سريعاً في التأليف المطرد بحيث يتعسر تمييز أصولها على الوجه الصحيح ، ولا كذلك الآثار الفنية والحضارية ، وهم يقولون إننا لا نستطيع أن ننكر أثر الأندلس في الموسيقى والغناء وفي الزخرفة المعمارية والهندسية الفنية لوجود الآثار والمواثل ولكننا نجد من ينكر التأثير الأدبي معارضاً هذه البحوث باحتمالات أخرى وافتراضات تقوى وتضعف . وقد كان ذلك ممكناً لو أننا أجملنا حديث التأثير في بضع صفحات كما تعود أن يجعله الكاتبون . أما وقد أفردنا كل باب ببراهينه وأدلته ، فإن الافتراضات المحتملة لا تنهض في دحض الواقع الراسخ إلا كما تقدر نسمة واهنة على زعزعة طود مكين » .

هذا ما قلته في المقدمة ولعلي بعد تحرير هذه الصفحات قد قاربت ما أريد علي أن مما يساعد على إيضاح الحق وجلائه أن أكثر القائلين بهذا التأثير القوي غربيون لا شرقيون ! فقد ساعدت القرون المتعاقبة على صفاء كثير من ذوي النفوس المخلصة من شوائب التعصب والاندفاع فنظروا بعقولهم البريئة إلى التراث العربي نظرات صادقة ، وفتحوا أعينهم المتيقظة على مكنوناته وذخائره فما وسعهم أن ينكروا الحق الصراح ، فسجلوه واثقين ، وسنحاول الآن أن نتابع خطواتِ التطور المتئد على مرّ الأجيال من النقيض إلى النقيض في هذه القضية ، لنرى كيف قاومت أسبانيا ثقافة العرب عن كراهية حاقدة ثم تراخت بها الأيام هلى هذه الكراهية المتنمرة أحقاباً ذات عرض وطول حتى استسلمت في النهاية إلى التسليم بالحق لأصحابه فوزنت تاريخ العرب في بلادها بميزان جديد ! سقطت الأندلس المسلمة في يد أسبانيا النصرانية ، فهبت هذه تطارد الإسلام بكل ما تستطيع وتعدّ قرونه الثمانية بالأندلس ليلاً دامساً يجب أن تزول آثاره الكريهة عن البلاد ، وانطلق الكتاب يؤرخون العهد العربي وهم يتوجعون لمحنة قاسية طال عليها الأمد فهو في رأيهم حلم مفزع رهيب جثم كابوسه الثقيل على صدورهم فكظم الأنفاس في عنف حتى استيقظوا بعد بلاء شديد ! وقد دخل الكردينال كمنيس غرناطة في

سنة ١٤٩٩ وحث مطرانها ودوقها على اتخاذ وسائل حاسمة لتنصير المسلمين وشَـرَعَ أعنف وسـائل الإرهاب من تقتيـل وإحـراق وإغراق لمن تُحدثه نفسه بالمقاومة ثم جَمَعَ ما استطاع جمعه من الكتب العربيـة ورماها أكداساً فوق أكداس في أكبر ساحات المدينة وأضرم فيها النار لتذروها رماداً في يد الريح وقد ذهب بعض الكتاب إلى أن عدد ما أحرق من الكتب العربية يبلغ المليون، وهو رقم يصل إلى ما أغرقه هولاكو من الكتب الإسلامية في دجلة والفرات حين اكتسح التتار بغداد ! ولله كم لاقت الثقافة العربية من أهوال على يد الهمج والرعاع .

كان من نتيجة ذلك أن رأى مؤرخو الأسبان أن الحط من شأن الحضارة العربية واجب ديني ووطني معاً ، فأخذوا يستمطرون اللعنات على العصر الإسلامي ويتخيلون شتى الموبقات المنكرة لإلصاقها بهذه الحقبة المضطهدة وإذا أعجزهم أن يروا من الأحداث نواة يغذونها بالتزيد ويجوفونها بالتمويه، استعاروا من العصور المظلمـة في غير الأندلس ما يروع ويفزع ثم صبوه ظالمين على العرب والإسلام وفي هذا الاتجاه الجائر كتب « ماريانا » في عصر شارلكان تاريخ أسبانيا العام وقد جعله عدلا ومرحمة إلا فيما يختص بالعصر الإسلامي فهو عهد الجرائم والفظائع والنكبات ، ومن المذهل أن الأندلس قد احتلت قبل العرب بطغاة أجانب سفاحين ، ولكنهم كانوا في رأي ماريانا معتدلين ذوي مطامح ! بل إن الأندلس بكل تأكيد لم تتَرَدَّ في هوة أعظم وأقسى مما كانت عليه قبيل الفتح الإسلامي ومع اتضاح هذه الحقيقة البديهية ، فإن عهد لذريق وغيطشة كان في رأي هؤلاء هو الشفق الذي يجلل الأفق قبيل غروب الشمس وانتشار الظلام . . . ونادى بعضهم جهرة بأننا إذا أردنا معرفة أصل كل تقدم حضاري في أسبانيا فلنبحث عنه لدى اليونان أو الرومان دون العـرب لأن حكم هؤلاء البدويين قد أخر تقدم الأسبان قروناً عديدة ، ولولا ذلك لنهضت بلادهم سريعاً كما نهضت فرنسا وانجلترا وألمانيا وشعوب القارة المتحضرة ، وقد نسوا أن تأخر أسبانيا إذا عدت أسبابه فإنه يرجع مبدئياً إلى إبعاد العرب واستئصالهم وقد كانوا

أصحاب الزراعة والصناعة والتجارة والعلم والعمل فلما نأوا عن ربوعهم أعوزها أن تجد من يقوم على نهضتها العمرانية فرُدت إلى الحضيض ، والذي يشك في ذلك ـ كما يقول الدكتور أحمد أمين في ظهر الإسلام(١) :

« يجب أن يقـارن بين قرطبة وأشبيلية وغرناطة وغيرها من مدن الأندلس أثناء ازدهارها وبين الأمم الأوروبية في ذلك الزمن ، وليكن منصفاً في المقارنة ! ! أيهما كان أرقى علماً ، وأحسن حضارة وأسمى تقدماً هل يساوره شك في أن الأولى كانت كلها أرقى من الثانية وأن بعض المؤرخين شبه مدن الأندلس وسائر الممالك الأوروبية بحال «فينا» بين بلاد البلقان جميعها » .

ولو كان الذين يكتبون تاريخ الأندلس على هذه الصورة المنكرة يجهلون الحقائق السافرة لالتمسنا لهم بعض العذر في أحكامهم الخاطئة المخطئة ولكنهم يعرفون معرفة يقينية أن أول مدرسة للترجمة بأوربا قد نشأت في طليطلة بالقرن السابع فتحولت بذلك إلى مركز ثقافي كان يديره لأول عهده « دون رايموندو » أسقف المدينة ، وقد ترجمت إذ ذاك مؤلفات عربية لابن سينا والغزالي ومؤلفات يونانية عن الترجمة العربية لأرسطو ثم أخذ يتوافد على هذه المدرسة الفريدة عشاق المعرفة من الشعوب اللاتينية جميعاً . وفيهم القسس والرهبان ليجدوا الزاد الصالح من ثقافة العرب ، وتوالت القرون على نشاط هذه المدرسة حتى دعت الحاجة إلى إنشاء غيرها فأسس « رايموندو ليوليو » مدرسة الدراسات الشرقية في أجمل سواحل « مايوركا » لتساعد على نشر الثقافة الأندلسية ، أما الفونسو العاشر فقد أفرغ اهتمامه في هذا المضمار واهتم بدراسة العلوم والآداب العربية ، بل أمر بترجمة القرآن الكريم إلى الإسبانية مع مؤلفات تقدمت الإشارة إليها مثل كليلة ودمنة والسندباد وزاد فأنشأ في أشبيلية مدرسة عربية ثالثة ! فليت شعري ماذا كانت تصنع مدارس طليطلة وأشبيلية وميرمار إذا كانت الثقافة العربية لا شيء كما يدعون ، وهل يعقل أن يقدم أعداء العرب على إنشائها وهم

---

(١) ظهر الإسلام ج ٣ ص ٣٠٩ .

لا يلمسون بها نفعاً يتاح أو أن المعقول أن الثقافة العربية الراقية قد أجبرتهم على الإذعان لسيطرتها ، فكانت معراجهم الأول إلى الارتقاء ! أجل لقد أجبرتهم على ذلك صيحات الإنكار من الحمقى والمتجاهلين ، وكان من التناقض المضحك أن يهجن المسرفون من المؤرخين عهود العربية الزاهرة وهم يتعلمون لغتها وعلومها في مدارسها ويرتشفون الزلال من معينهـا الثجـاج !

مهما يكن من شيء ، فقد ظلّ ما بقي من أكداس المجلدات العربية بعد أن أعدم الحشد الكثير مجفواً مهملا في دير الأسكوريال حتى نشبت النار بهذه البقية المجفوة فلم تترك منها سوى الفين ، وكانت قبل الحريق فوق عشرة آلاف مخطوط ! فاستيقظت الحكومة الأسبانية من غفلتها (١) ـ كما يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان ـ واستقدمت من رومة حبراً لبنانياً كبيراً هو العلامة ميشيل الغزيري، الذي عرف باسم « كازيري » فقام بدراسة هذه المخطوطات ، وأفرد لها فهرساً كبيراً تحدث فيه عن أغراض كل مؤلف ، وصدّره بمقدمة حافلة تبسط أهمية هذه المخطوطات ، فوجه الأنظار بذلك إلى الكتب العربية بعد أن كان الباحثون لا يعلمون عنها شيئاً بل يكتفون بالمراجع النصرانية ، وكلها مكتوب من زاوية خاصة تسلك سبيل الدعاية السياسية للقومية والعنصرية ! وحينئذ نشأت طائفة جديدة من المؤرخين تقابل بين الآراء المختلفة ، وتعرض الرواية العربية بجوار الرواية الأسبانية وتستنتج ما يفرضه منطق الموازنة من حقائق تثبت تقدم الأندلس وعظمتها وازدهارها ، وكان من هذه الطائفة الجديدة « أندريس »و« ماسدى» و« كوندى » ، ولأمر ما مال الأخير إلى ترجيح الروايات الإسلامية حتى كاد يعتمد عليها اعتماداً كلياً ، فوجه الأذهان إلى دراسة المخطوطات العربية والعكوف عليها لمعرفة الحقائق الجديدة ، ولكن المتطرفين من ذوي العصبية قد نقدوه نقداً لاذعاً ورأوا في تاريخه هدماً مدمراً لكل ما خطه

---

(١) مجلة الرسالة يوليو سنة ١٩٣٦ .

سابقوه من إرجاف وتهويل ، لا سيما وكوندى متبرم ضائق بحركة الاضطهاد الطاغية التي أرهبت المسلمين عقب سقوط غرناطة فجعل يقسو على مواطنيه قسوة نجد مبرراتها من الواقع الدامي ويكشف للناس فظائعهم الرهيبة فباءَ بإنصاف الحق وإغضاب المتزمتين .

ولكن هؤلاء المنصفين لا يقفون وحدهم في الدراسات الاستشراقية ، فهناك من مستشرقي الدول الأوروبية عدا أسبانيا — من لا يسره أن تكشف الحقائق مأخوذة من الروايات الإسلامية ، وفيهم من سار له ذكر رنان في تدوين الثقافة الأندلسية حتى أصبح حجة في موضوعه ، ويرجع إليه كبحاثة راسخ القدم ، عميق الاطلاع ، والمستشرق الهولندي الكبير دوزي مثال لمن نعنيه ، فقد قسا قسوة عنيفة على مؤرخي الأسبان من طراز ماسدي وأندريس ورماهم بضيق الأفق ، وضحالة المعرفة وتابعه رهط من تلاميذه الكثيرين ، وقد ظنوا أنهم بهجومهم على هذا النفر من مستشرقي الأسبان يخمدون أنفاسهم أو يحولون اتجاههم على الأقل إلى غير منحاه الأندلسي ، وما علموا أنهم أوقدوا جذوة الحمية في نفوس الأسبان فعكفوا على القراءة المستأنية ، وراجعوا المظان العديده شرقية وغربية حتى اطمأنوا إلى نتائج حاسمة ، جاهروا بها ظافرين منتصرين ، فكشفوا مناحي متعددة من التأثير العربي ، وسنُلم في إيجاز ببعض من أسهموا في ذلك ، لنرجع بالفضل إلى أهله شاكرين !

كان الدوق باسكوال جايانجُوس (١٨٠٩ — ١٨٩٧) أول أستاذ جامعي للغة العربية في مدريد ، ألف كثيراً في الدراسات العربية بلغات مختلفة وقد ترجم أجزاء من نفح الطيب ، ونشر مخطوطات هامة أشهرها كتاب ابن القوطية عن غزو العرب لأسبانيا ، ولا ترجع أهمية الرجل إلى هذه هذه الدراسات والمنشورات وحدها ، ولكن إلى شيء آخر هو أثره البعيد في تنشئة تلميذه الصبور فرانشسكو كوديرا (١٨٣٦ — ١٩١٧) إذ صار خليفته في الدراسات العربية ، وقد أجاد لغات كثيرة مع إتقانه العربية ثم

أقدم على إنشاء دار للكتب المخطوطة بالاسكوريال وباشر طبع أصول منها بنفسه ، حيث استطاع بصبره أن ينشيء لأول مرة في إسبانيا مطبعة عربية ، وأن يوجه تلاميذه إلى جمع الحروف بالمطبعة ، ويدربهم على إجادة ما يتفرغ له عمال المطابع من رصف وتصفيف دون أنفة واستكبار ثم أشرف على طبع نفائس هامة من المخطوطات وكان يجمع تلاميذه في بيته ، فتوسط حلقة من الباحثين النبهاء زاولوا النشر والتأليف بجدارة، حتى استطاع الأسبانيون أن يقارنوا بإخوانهم الفرنسيين والإنجليز والروس والألمان في حقل الدراسات الاستشراقية من ناحية الإنتاج الكمي ، أما أكتشاف المجهول في حقل التأثير العربي فقد فازوا منه بأوفر نصيب . وسيسلمنا كوديرا إلى تلميذه الكبير (خوليان ريبيرا ١٨٥٨ – ١٩٣٤) .

وكان أستاذ العربية بسرقسطة ومدريد ، وهو صاحب النظرية الخطيرة التي أعلنت تأثير الموشحات والأزجال في شعراء التروبادور ، إذ قرأ ديوان ابن قزمان ودرسه فنياً ولغوياً وعروضياً ، وكشف كثيراً من مفردات اللغة الشعبية التي كان يتفاهم بها المستعربون الأسبان مزيجاً من العربية واللاتينية ، كما قال بوجود ملاحم شعبيةأندلسية أثرت في الأدب العربي الأندلسي فوجهت الشعراء إلى الأراجيز التاريخية وإن ساروا فيها على نحو ضيق لم ينفرج به الخيال إلى دائرة ذات اتساع ، أما دراسته عن الموسيقى الأندلسية فقد انتهى بها إلى أنها كانت المفتاح المؤدي إلى حل الرموز الغامضة في الموسيقى الأوربية ، وعلى سننها طرد النسق الموسيقي فيما نقل عن الأندلس في العصور الوسطى ! وهو الذي تبنى فكرة الأصل الإسباني لمسلمي أسبانيا محاولا إثباتها من الوجهة العلمية إذ يرى أن العرب الفاتحين منذ عهد طارق نزلوا الأندلس جنوداً دون أُسر وقد تزوجوا من الأسبانيات جيلا فجيلا حتى ذابوا في الجنس الإسباني ولم يعد للواحد منهم سوى قطرات ضئيلة من الدم العربي كادت تتلاشى كنقطة في زجاجة ! ونحن حين ننقل عنه هذا الرأي لا نميل إلى موافقته ، ولكننا نلفت النظر إلى تعسف استدلاله فهو

يضرب الأمثلة على هذه القضية من الأسرة الأموية فيقول ما خلاصته نقلاً عن ترجمة الدكتور هيكل ص ٤٩ من كتابه :

« إن عبد الرحمن الداخل كان يحمل نصف دم عربي فقط لأنه كان من أم غير عربية وكذلك ابنه هشـــام لا يحمل إلا ربع دم عربي لأن أمه كانت أيضاً غير عربية ، وهكذا تتناقص نسبة الدم العربي كلما مضينا من أمير إلى آخر بينما تتضاعف نسبة الدم الأجنبي فالحكم بن هشام ليس له من الدم العربي إلا الثمن ، وعبد الرحمن الأوسط ليس له إلا جزء من ستة عشر جزءاً والأمير محمد ليس له إلا جزء من اثنين وثلاثين والمنذر بن محمد ليس له إلا جزء من أربعة وستين» . وهكذا يمضي خوليان ريبيرا في استشهاده التاريخي مسلسلا حتى يصل إلى هشـــام الثاني فلا يكون له من الدم العربي إلا جزء من ألف وأربعة وعشرين جزءاً » .

كأني بالأستاذ ريبيرا يحاول أن يكسب الحضارة الأندلسية العربية ويضمها إلى التراث الأسباني الغربي بمجرد افتراض متخيل ليصبح ابن حزم وابن مسرة وابن رشد وابن طفيل وابن باجة وابن زيدون وأضرابهم من أعلام الفكر والأدب أسبانيين ما بين غمضة عين ، وناحية المحمدة في اتجاهه أن يفتخر بأعلام العرب ويراهم أجدر بالانتساب إلى موطنه أما ناحية الخطأ فإنه نسى حقائق كثيرة تهوى بنظريته إلى البطلان وقد أشار إليها الدكتور هيكل ص ٤٧ من كتابه عن الأدب الأندلسي . إذ قال : « ولسنا ننكر الدافع الكريم الذي حمل الأستاذ ريبيرا على محاولة إثبات أن الأندلسيين أسبان مسلمون فهو يحاول كسب الحضارة الأوربية وضمها إلى التراث الأسباني ، ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نذهب معه فيما ذهب إليه من تجريد الأندلسيين من عروبتهم ولا نستطيع كذلك أن نسلم بتلك التجربة التي أجراها على الأسرة الأموية الأندلسية كدليل على ذوبان الدم العربي في الدم الأسباني لأننا لا نتصور أولا أن كل الذين جاءوا إلى الأندلس من الرجال قد تركوا نساءهم في المشرق ، ولأننا لا نتصور ثانياً أن الوفود على

الأندلس كان دائماً من نصيب الرجال دون النساء ، ولأننا لا نتصور ثالثاً أن كل عربي في الأندلس كان ينجب دائماً من أسبانية جديدة وإن تصادف ذلك في الأسرة الأموية فالمعقول أن توجد مولدات من أب عربي وأم أسبانية ، وأن الزيجات كانت تتم بعد الجيل الأول من هؤلاء المولدات ، وبهذا احتفظ الأندلسيون من غير قصد بنصف الدم العربي على الأقل ، وإلا فكيف يتصور بناءً على المثال الذي ضربه الأستاذ ريبيرا أن كل زيجة من عربي وأسباني كانت تنتج رجالا قط يضطرون إلى الزواج من أسبانيات خالصات » اهـ .

على أننـــا لو سلمنا من باب الجدل الفرضي فقط بنظرية ريبيرا على بطلانها الواضح لواجهناه بمشكلة جديدة هي أن هؤلاء الأسبان دماً ولحماً كما يرى لم يحملوا مشعل الثقافة بالأندلس، لكونهم أسبانيين أو عرباً بل لكونهم ذوي حضارة إسلاميـــة ، فأساس التقدم في عصور الأندلس لم يرتبط بالعرب إلا لكونهم مسلمين يفتحون العيون على مثل جديدة ،في الإدراك والوجدان والسلوك ، وبهذه المثل أصبحت قرطبة في ازدهارها لا تقل شأناً عن بغداد ، فليكن أصحاب الحضارة الأندلسية أسبانيين دماً كما يريدالأستاذ أن يقول ، ولكن الفارق الأول بين من سبقهم من أبناء جنسهم في عهود الروم والوندال والقوط وبين هؤلاء الذين أورثوا أوربا حضارة مزدهرة ، هو أن الآخرين تقدموا عن طريق الإسلام ، هذه حقيقة ماثلة لا أدري لماذا يشفق بعض الباحثين حتى من العرب أنفسهم من تسجيلها وهي من الوضوح بحيث لا تنكر ، ولعمري لو زالت العربية من الأندلس وبقيت على إسلامها ما كان هناك مأساة ونواح على الفردوس المفقود ، ولكانت أسبانيا لدينا كتركيا وإيران وباكستان وأفغانستان وأندونيسيا ممن يعتزون بالإسلام ، ولا ينطقون بالعربية . أما المأساة الكارثة حقاً فهي ضياع للإسلام بحضارته وثقافته وسموه ومثله من البلاد ، . هذه هي الداهية الدهياء التي قال عنها أبو البقاء :

تلك المصيبة أنست كل كارثـــــة وما لهـــا في طويل الدهر نســـيان

ويطول بنا القول لو أرسلنا الحديث عن جهاد الأستاذ خليان ريبيرا كما نريد فلنودعه إلى تلميذه وخليفته الأستاذ ميجيل آسين بالاتيوس(١٨٧١ — ١٩٤٤) وقد كان كاهناً يتصف بالنزاهة والتقوى ، تخصص في الفلسفة والتصوف ففتح عن مغاليق كثيرة وأزال غوامض مبهمة ووضع الصلة بين الفكر الإسلامي والفكر المسيحي في نحو يثبت تأثير الإسلام في قضايا الفكر العالمي من دينية واجتماعية وفلسفية وقد قال بعض الباحثين في تاريخ الاستشراق الأسباني أن جاينجوس كان الأرض الملائمة وكوديرا كان من بعده كالجذور التي تتماسك وتمتد في شعاب الأرض ، ثم نمت الجذور فكان ريبيرا هو الجذع القوي حتى اكتمل النماء فصار أسين هو الزهـــرة والثمرة.

لقد نهج التلميذ أسين نهج الأستاذ ريبيرا فاستطاع أن يكون رأياً عاماً أسبانيا في دوائر البحث العلمي يجعل من الأسبان حتى المتعصبين منهم للأسبانية والكاثوليكية من يعجبون بآبائهم المسلمين ويفتخرون بأنهم باعثوا الحضارة الأوروبية، وحتى استطاع في أوائل سنة **١٩٢٩** أن **تستجيب** له جامعة غرناطة فتقيم احتفالا كبيراً لذكرى الخلافة الأندلسية لمناسبة مرور ألف عام على قيامها ، فكان ذلك أول حادث رسمي من نوعه يدل على التفات الدوائر المسئولة في إسبانيا إلى تقدير أسبانيا المسلمة ، وما لها لا تلتفت إلى ذلك وقد أكدت لها بحوث آسين وأساتذته أن الأسلاف السابقين من المسلمين كانوا أساتذة الفكر الأوربي بعامة ، وأن أسبانيا أصبحت معلمة الشعوب ورائدة الأجيال . وقد ترك أسين أبحاثاً ذات دوي وصليل ، أهمها بحثه الدقيق عن الكوميديا الإلهيةوتأثر دانتي بقصة الإسراء والمعراج في الإسلام، وطبيعي أن تهب الاعتراضات في وجهه من غلاة الناقدين ، وكان أهم اعتراض قدم إليه أن دانتي لم يكن يقرأ العربية حتى يلم بحادث المعراج كما صوّره المسلمون وتشاء الأقدار أن تجيب على هذا الاعتراض بعد وفاة أسين سنة ١٩٤٤ ، إذ اكتشف مستشرقان أحدهما أسباني هومونيوس ساندينو والآخر إيطالي هو تشيرولي أن مخطوطاً عربياً عن المعراج قد ترجم إلى الأسبانية ثم إلى الفرنسية واللاتينية بأمر الملك الفونس العاشر ، وقد كان

نفوذه عظيماً على أكثر دول أوربا وتؤكد المعلومات التاريخية وصول الترجمة اللاتينية إلى إيطاليا ووجودها في مكتبة الفاتيكان وقد عقدتْ الفصول في الموازنة بين الأثر والمؤثر موازنة تفصيلية تتحدث عن الجحيم ورفاق الطريق والنسر الملائكي ذي الأجنحة الكثيرة والشعاع الرفاف كما صوره دانتي مستلهماً ديك المعراج ، وارتداد البصر حسير أمام نور الله مما ينطق بالمطابقة ويتعب منكرها تعباً يقذف به إلى اللجاجة العمياء وهي لا تفيد .

لقد كان على مؤرخي الحركة الاستشراقية من كتاب العرب على الأقل أن يفردوا الصفحات الطوال بمجهودات الأساتذة الأسبان وفي طليعتهم من أسلفنا الإشادة بجهودهم في هذا الفصل ولكننا ندهش كثيراً حين نرى من يتحدثون عن دور الاستشراق في تاريخنا الأدبي يملئون الدنيا ثنـــاء على مستشرقي فرنسا وانجلترا وهولندا وإيطاليا وألمانيا وروسيا ثم لا يكادون يذكرون شيئاً عن ريبيرا وآسين وكوديرا ، وأحدث كتاب عربي قرأته عن المستشرقين هو كتاب الأستاذ نجيب العقيقي ، وقد أجمل الحديث عن الأساتذة الأسبان فيما يقرب من صحيفتين فقط ، على حين أفاض في سير المغرضين من ذوي النزعات المريبة إفاضة توهم القاريء أنه يطالع مآثر ذوي النزاهة والإخلاص في سيرهم ، ولست بذلك أنكر تاريخ الحركة الاستشراقية في دول الغرب على وجه شامل دقيق ، ولكني آسف حين أرى كاتباً عربياً يهتم بلامنس أكثر من آسين ، وهو يعلم أن لامنس ما أفرد عن تاريخ يزيد بن معاوية إلا لينتقص الحسين بن علي ، فإذا أثنى كثيراً على والده معاوية قرن ذلك بمعابة علي بن أبي طالب واتهامه ثم إذا تطرق إلى مديح جده أبي سفيان وجد الفرصة سانحة للوقيعة في نبيّ الإسلام ويمضي إلى جده الأعلى حرب بن أمية ليفضله على عبد المطلب بن هاشم . وهكذا تصبح سيرة يزيد ، مداراً للطعن في صاحب الدعوة الإسلامية وأسرته . وكأن التاريخ الإسلامي في أربعة عشر قرناً لا يضم أفضل من يزيد لنسهب في الثناء عليه على حساب سواه . وقد أعقب آسين أساتذة من زملائه مثل أنخيل جونثالث بالنثيا (٨٨٩ — ١٩٤٩) أو من تلاميذه مثل (أميلو

غرسيه غومس المولود سنة ١٩٠٢) وسفير أسبانيا في بيروت ورهط من مريديه فكتبوا كثيراً عن الأدب الأندلسي والفكر العربي ، واكتشفوا المجهول من الآراء والمخطوط من الكتب ، وأنشأوا المعاهد الخاصة بالدراسات العربية والمجلات الحافلة بالبحوث الأندلسية . . . وإذا كان أكثر هؤلاء لا يزالون يواصلون جهودهم الرفيعة في تسجيل عظمة الأندلس الثقافية والحضارية فإننا ننتظر منهم الرائع المبتكر غداً وبعد غد ، وقد أخلصوا النية وصدقوا العمل ، والنشاط موفور ، والحقل فسيح .

لقد وجدت الحضارة العربية والثقافة الأندلسية عشاقها بين مثقفي الأسبان . فكشفوا عن تأثيرها مدعماً بالدليل مفصلا بالأمثلة والشواهد ! ولعل مما يسر العربي الشرقي أن يعلم أن بين أعلام الفكر في شتى بلاد أوربا من يؤمنون بثقافة العرب وحضارة الإسلام وتأثير المشرق إيماناً لا يتطرق إليه الارتياب ، وقد سجلوا من الأقوال في ذلك ما ذاع واشتهر ! ونحن لا نجد في ختام هذا الكتاب نشيداً رائعاً تنتهي به هذه الصفحات ، أعظم من أن ننقل أحد هذه الاعترافات المخلصة لرجل من أئمة الفكر الفرنسي ، يعجب بحضارة العرب ، ويتأسف على انطفاء مشاعلهم الوضيئة بعد أن هدت المدلجين في الظلمات .

يقول الأديب الفرنسي الأشهر موسيو كلوت فارير : « في سنة ٧٣٢ م حدثت فاجعة ربما كانت من أشأم الفجائع التي انقضت على الإنسانية في العصور الوسطى وكان منها أن غمرت العالم الغربي ــ مدة سبعة قرون أو ثمانية إن لم نقل أكثر طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد إلا على عهد النهضة . . . هذه الفاجعة هي التي أمقت حتى ذكرها ، وأعني بها الانتصار البغيض الذي ظفر به على مقربة من بواتييه ، أولئك البرابرة المحاربون من الإفرنج بقيادة الكارولنجي شارل مارتل على كتائب العرب المسلمين الذين لم يحسن عبد الرحمن الغافقي جمعهم على ما ينبغي من الكثرة ، فانهزموا راجعين أدراجهم في ذلك اليوم المشئوم تراجعت المدنية ثمانية قرون إلى الوراء!

يكفي المرء أن يطوف في حدائق الأندلس أو بين الآثار العربية التي لا تزال تأخذ بالأبصار مما يبدو من عواصم السحر والخيال ــ أشبيلية وغرناطة وقرطبة وطليطلة ــ ليُشاهِدَ وَالألمُ آخذ منه ما عسى أن تكون بلادنا الفرنسية لو أنقذها الإســلام العمراني الفلسفي السلمي المتسامح ، وخلصها من الأهاويل التي لا أسماء لهـا ، وكان من ذلك أن نتج خراب « غاليا » القديمة فاستعبدها لصوص أوستزازيا ثم اقتطع قرصان النورمانديين جزءاً منها . ثم تجزأت وتمزقت وغرقت في دماء ودموع ، وفرغت من الرجال بما بعث في أرجائها من الدعوة إلى الحروب الصليبية ، وانتفخت بالأشلاء والجثث بحروب داخلية وخارجية لا تحصى حدث ذلك حين كان العالم الإسلامي من نهر الوادي الكبير في أوربا إلى نهر السند في قلب آسيا يزدهر كل الازدهار في ظل الإسلام ، ليس ما كتبته فصلا من التاريخ الرسمي ، بل هو التاريخ الحقيقي الذي يتعلمه المرء بنفسه بما يجتازه من بحار ، ويقطعه من فياف وآفاق ، ويقلبه من خزائن الكتب الأجنبية ، وليس هذا بعزيز على حياة سائح يريد أن يفضح عقب رحلة له ــ ما كان يلمسه بأطراف بنانه من تلك الأكاذيب الكبرى السفيهة التي أراد معلمون ــ ولا زالوا يريدون ــ وضعها أمام أعيننا كأنها حقيقة ، بل هي عندهم الحقيقة ! ! ! ».

ليت شعري أهذا نشيد يختم به الكتاب أم هو اعتراف يسجل على الأحقاب . . . . .

سلام على الأندلس في أمسها السعيد !

مراجــع الكتــاب

١ – أثر العرب في الحضارة الأوربية – لعباس محمود العقاد – م . دار المعارف ط أولى .

٢ – أدب المغاربة والأندلسيين – لمحمد رضا الشبيبي – م . معهد الدراسات العربيـــة .

٣ – الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة للدكتور أحمد هيكل – مكتبة الشباب بالمنيرة .

٤ – الأدب الأندلسي لجودت الركابي – م . دار المعارف .

٥ – الأدب المقارن – للدكتور محمد غنيمي هلال – ط ثالثة .

٦ – الأدب الأندلسي – لعبد الجواد رمضان – مطبعة الأزهر .

– الإسلام والغرب في الأندلس للمستشرق بروفنسال ترجمة السيد سالم وصلاح حلمي – م . نهضة مصر .

٨ – الإسلام في أسبانيا للدكتور لطفي عبد البديع سلسلة المكتبة التاريخية – ط أولى .

٩ – بلاغة العرب في الأندلس للدكتور أحمد ضيف – مطبعة مصر – ط أولى .

١٠ – تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين (للدكتور إحسان عباس – ط بيروت الأولى .

١١ – *تاريخ الأدب العربي في العصـــر العباسي – للأستاذ أحمد* السكندري – ط ثالثة .